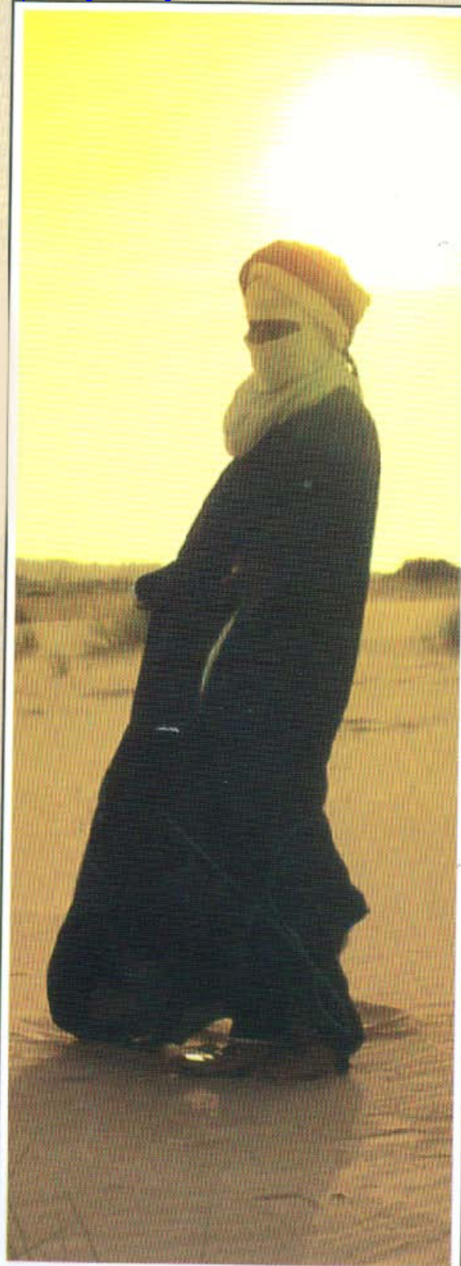


عيون المعاصرة

إبراهيم الكوني

من أساطير الصَّحراء

تقديم
توفيق بكّار

دار الجنوب للنشر - تونس

إبراهيم الكوني

من أساطير الصَّحراء

تقديم

توفيق بكّار

دار الجنوب للنشر - تونس

79 نهج فلسطين – 1002 تونس
الهاتف : 179 785 71 (216+) الفاكس : 664 848 71 (216+)
e-mail: sud.edition@planet.tn

ISSN 0330-5627 - ISBN 978-9973-844-63-7

صورة الغلاف : خزينة دار الجنوب للنشر – المصوّر ع. ع. فريخة

«أنا الطرقيّ..»(*)
أو
منطق العناصر «الكونيّة»

خارج عن الصفّ بلا ريب هذا الكاتب، شارد منفرد؛ وفذّ بلا مراء فائق. من نوابغنا الذين، وهم عندنا اليوم نُدَّر، قد شرّعوا في القصّ شوارع بكرا. إذا أنشؤوا فعلى غير مثال قائم -مهما علا- ما بسوى أنفسهم يتشبّهون. هي في التأليف موردهم أولا ومصدرهم آخرا. وإن استلهموا غيرهم من الأعلام شيئا – وحبّذا ذاك الذي يستلهمون – فالخلق في الأدب من أين يؤتى، سرّ الصنع في ذات المصنوع. فيقتدون ويُبارون بما يضاهي، يبدعون بدورهم ولا يعيدون. لا يقلّدون مذهب أحد، هم الذين في مذهبهم يُقَلَّدون. ذوو اقتدار ولهم بأس، أصحاب إقدام واقتحام، مُغامرون غزاة؛ روّادُ كشفٍ طلائع، ولهم في الفنّ فتوحات بهم من بعدهم تُعرف، ولهم عند أهل الدّراية تُحتسب.

كذلك الكوني، وكذلك – من البد ء – أمره في الجمّ الذي كتب، وجلّه في فروع السّرد وفاتنٌ.

(*) من أغنية تونسية مشهورة : «أنا الطرقيّ وابن الطرقيّة قَطَّاع الأجبال والصحراء ليّ».

فإن تقرأ ما قد سطّر لنا منه في صحفه تُبهتك ضروب فيها من القصص العُجاب، أحداثه بين حقيقة وسحر، عاديّ وخارق، وأبطاله الكائنات سائرها الإنس والجنّ، والطير والدّوابّ، والزّهر والشّجر، والماء والحجر، والريح والسراب.كلّهم حيّ فيه عاقل قائل فاعل. هي الخليقة بأسرها على ركحه تتحرّك، تؤدّي أدوارها وتحدّث أخبارها لغرض له فيها مرسوم.

فنلقاه منّا وإلينا، أوّل ما نلقاه، يردّد علينا، ويمدّد، أصداء شتّى من موروثنا في هذا الفنّ شعبيّه وفصيحه. ما تحكي الجدّات للأحفاد في السّهر، وما يُحدّث به الرواة حلقات الهواة في رحاب المدينة العتيقة، نهاراً، وفي أقبية مقاهيها ساعة السّمر، وما تُطالعنا به عيون نصوصنا من تصاريف الخيال. فيه من كتاب ألف ليلة وليلة شيّقُه من المدهشات ومن كتاب كليلة ودمنة تعاليمه الدفينة وراء شخوص البهائم والسّباع. فإذا قفار وأهوال، وسير وأبطال، أشخاص من الإنسان وأطياف من الجان، وأشباح وأرواح، وحيوان ذو لسان، بل ونبات مُبين وجماد منطيق.

وإن يكن ، على هذا الوجه، وثيق النّسب بخرافتنا القديمة، فإنّه جديد، فنّ من رَحِمها وليد، كمثلها عجيب، أو يزيد، ولا كَمثلها في الدّلالة. أعمق منها معنى، وأبعد، في الأرب، مرمى. فقد عدل بها عن دورها المأثور إلى غايات له أخرى، نائية. فارقها في الغرض، وعلا بها في النّظر علوّا، ونهّج فيها منهجاً، وحمّل متنها رؤيا. فصيّرها للفكر لسانا يُقوّلها به ما لم يكن من دأبها أن تقول. لا متعة حكي يُبتغى به لتسلية النّفوس، وإن راق وراع؛ لم يُجعل ليستهويها بخُلّب من ألوان المُحال. فإنّه، على فتنته، لكلام جدّ المرَام، مثقل باطنه بالعظات الجسام.

شكل محدث من أدب الحكمة. تخييليّ ذهنيّ، وتمثيليّ تعليميّ(*). إذا شخّص لقّن، وإذا جسّد جرّد معنى له هادفاً مسدّداً. قريب القول بعيد الغور، يثنّي في العبارة بالإشارة، فيزاوج ويمازج بين الحسّ والفكر، والصورة والرمز. يقابلنا بوجهين، وبلسانين يكلّمنا. في حديثه أحاديث، ولدلالته دلالات.

يبادرنا، في كلّ مرّة، بظاهر منّا نعهده، وينتهي بنا إلى خاطر له فينا يفجأنا ويزعج، بِدَانٍ يصفه من المشهود يقصد، أبداً، قصيّا من تأمّلات العقل قاسيا. والظاهر الداني بيئته. يقصّها علينا أوفى قصّ، لا يترك منها شيئا، لا المعاش ولا الشعائر ولا الأساطير، كأنّما رائده أن يعرّفها إلينا ويحبّب، ويحبّبها إلينا فيقرئنا فيها أمثالاً مروّعة يضربها لمصير الإنسان، في أصفى مفهوم له وأسمى، خالص الكيان من ملابسات الظروف، عارياً إلاّ من لبّ لبّه من المعاني، ما هو به في الوجود ما هو. فبينا نحن مع الأبطال في غمرة الأحداث يخوضونها إذ بنا في شاهق مع مرّ من الحقائق يجلوها وعي لوعينا. وراء كلّ ذات مثل يلوح، وفي كلّ فعل فكر يبوح، وروح في كلّ حال بشجواها تناجي، أو من العباد بشكوى.

صوت الراوي، بديل الكاتب في القصّ، حاضر بملء حسّه في النصّ، قلّما يغيب. ولا من وراء حجاب يخاطبنا إلاّ لماما. يُعايش أبطالها – ويداخل – أنّى كانوا ولو ضبّا أو ريحا أو نخلا أو صخرا. وينسلّ منهم أحيانا فيعلوهم، ومن فوق ينظر إليهم وفيهم، مهتمّ

(*) بالمعنى المذهبيّ لا المدرسيّ.

البال والنّفس تُصدي وهم في أمرهم يخبطون. لا يعرف في الوضعين حياداً. يباطنهم فيعاني عناءهم حتّى كأنّهم قطع قدّت من لحمه الحيّ، ترف على شاشة الخيال، لا صور من حبر تمتدّ خطوطاً على بياض الصفحة؛ أو، وقد فارقهم، يعاني منهم فيتأفّف أو يتهكّم. كم ينفعل في سرده ويهتزّ! يروي الوقائع ويصف النفوس بإمعان، وفي الخلال يبدي ما يعنّ بخلده، أو يختلج في مُهجته، فيفتي في أحوالهم برأي من فقهه، ويقضي بينهم بحكم، لهم أو عليهم. فيلين ويشتدّ، أو يهزأ كالمستخفّ. يألم فيتأسّى، أو ينقم فيتشفّى، وقد يقهقه ليتعزّى كقهقهة الشيطان.

صوت عقل أعياه طول النظر في أهل الدنيا، وهم بين «خروج» و«خروج» : من جوف الأمّ إلى بطن الأرض، من رحم إلى قبر، من مولد إلى موت، نزولاً في الوجود ورحيلاً عنه بلا عود، إلى يوم يبعثون؛ وفي الأثناء ضائعون، يبحثون عن خلاص ولا يجدون إلاّ سراباً، لا اليقين، أو يرضوا بالمنزلة، ويسلّموا بالناموس.

صوت ضمير حائر، متبرّم بالأنام، ولا متفائل، يرثي لحالهم، ويشهق كالضاحك، والسخر من شيم ذوي الفكر، دواؤهم من علّة التسآل، يدرؤون به عن نفوسهم وطأة الهموم إذا اشتدّت، لكي لا يقعوا في اليأس.

إن حدّث الكونيّ عن قومه حدّث عن نفسه، فـ«هم» «أناه»، و«أناه» «هم»، والكلّ «أنت» أيّها القارئ. ألست من آدم؟ وهل قصّتهم وقصّته إلاّ قصّتك تُروى لك برمز ملفوف في خيال؛ وتُروى «لنا»، فإنّما «أنت» «نحن» معشر البشر، حيثما كنّا في الأرض، وتحت كلّ سماء.

قصص رهيب مَفَاده في أكسيته من العجيب. يغرينا بخلّبه من الأجواء، وبما في الأحشاء يشجي النّفس ألوانا. لا يحكي لنا، أو قليلاً، إلاّ أوجاعاً وفواجع، ولا موجع فيه ولا فاجع إلاّ الأنا. إيّانا يصوّر في ما دهانا كلّما زغنا عن الرّشد، أو نقضنا عهداً كان علينا لزاما، فانتهكنا سنن الكون أو استهتّا بأحكامه. بؤسنا الأشقى أوّل همّه، وغرضه الأقصى منجاتُنا والسّلامة.

طموح إذن هذا الأدب. أصيل، نعم، حميم، مشبع بألوان المكان وأهله، طبيعة ومناخا، وعادات ومعتقدات، وأوسع أفقاً من حدود القوم والإقليم؛ لا محليّ هو ولا فلكلوريّ. طرقيّ النّسب، ليبيّ البلد، عربيّ اللسان مبينه. وفي عمقه إنسانيّ، وفي أبعد أبعاده، كلَقَبِ صاحبه، كونيّ. يضرب بجذوره في أعماق تُربته، والرأس شامخة في الذّرى، يُعالي آدابا في الدنيا وآدابا. يُحاورها في البشر ما شأنهم، ما مأتاهم وما المآل، وما الحال بينهما، وما الحكمة. قضايا أمّهات خاضت فيها، ويخوض، وقالت فيها أقوالا، ويقول. دعته إليها فأجاب، جواب النّدّ للنّدّ، يبادلها فيها الفكر بالفكر، والفنّ بالفنّ، كأحقّ - وأجدى - ما يكون التبادل بين ثقافات الشعوب وآدابها. ولا أدلّ على ذلك من كثرة الشواهد التي صدّر بها أكثر نصوصه القصار، من دين وعلم، وفلسفة وأدب؛ قديماً وحديثاً، وشرقا وغربا.

ذاك في أدب الكاتب المذهب، وتلك شحنته من الفِكَر والأشجان، ولا غاية إلاّ الإنسان كلّ الإنسان.

ومن أيّ باب دخلنا إلى هذا الأدب، إن قصّة قصيرة أو رواية مطوّلة، لا نجد إلاّ الصحراء ولا شيئاً عداها. فهي مادّته الأولى ومناط الفكرة، المِهاد وأفق الرؤيا. مسرح أحداثه ومنها

أشخاصه ومعانيه من أساطيرها. عالمه الواحد الأوحد. ولم يزل يجوس بنا فيها طولا وعرضا، وسفلا وعلوا، حتى أغوتنا، فهِمْنَا بها هياما وتِهْنا، بعد الذي هِمْنا فيها وسِحْنا.

ولم يقصر الكاتب عليها همّه إلاّ ليعكف فيها على ذاته. فهو أصيلها وهي مرآته تجلّي له صورته بألوانها، فيتأمّل سماته، ثم يغوص تحت الألوان على معدن الإنسان فيها، فينا.

فللصحراء في أرضنا وسعُها من المدى، وفي ثقافتنا آيات. مهد الشعر، ومهبط الوحي، مبعث الإسلام وحضارته الكبرى التي بها تخلّقنا على مرّ القرون.

فإنّها لجزء لا يتجزّأ من جسم البلاد، ولها من نارها ونورها في تكوين الأهل سيماء؛ وجوه سمر، وعيون تحنّ إلى الضياء، وسخاء في الطبع، وفي الخيال رؤى كخطف البروق، وأكباد حرّى، وفي العشق بكاء أو دماء. ملاحم تروى، وقصائد تنشد، ومواويل تغنّى. ركض خيل وغزو وغارات، وحسان وفتية وغرام، الجازية وفرسانها، من بعد عبلة وعنترها، وليلى ومجنونها، وبثينة وجميلها و... و... وعروج على الديار، في أشعار الهوى، وذكرى حبيب ومنزل، وبكاء؛ من بعده «نَسيب» وتشبيب، من بعده «رحيل» ومطية، ووحش وطراد، وصوت صليحة في الأجواء يردّد على المسمع، ببُحّته الحنون : «ياسايقين البلّ قولو لحواء». إرث لا ينقطع له ذكر في البال، ولا في النفس وقع.

أقبلت على صحراء الكوني بكل معارفي عن الصحراء، من نصوص وصور وتجريب، وقد كان لي في بعض شواطئها أيّام

الشباب مغامرة، فألفيتها كالتي أفدت من الكتب، وشاهدت على الشاشات، وخبرت عن كثب... وغيرها أخرى،عهيدة جديدة، قريبة بعيدة، تلعب في الذهن، فاتنة، بشتّى ألوانها من الإلف والخُلف.

المعالم هي هي، بحر شاسع من الرّمال أمواجه الكثبان، تثور إذا عصفت الرياح فتمور وتدور كألسنة الجان؛ تطفو على وجهه من حين لحين جزر خضر من الواحات كأنّها الجنّات، فإذا مرفأ رحيم كأنّه النعيم بعد عذاب النّار؛ ومهاد أديمه الحصى كمحنة الصراط، وجبال عاريات صهباء. لا تجري من تحتها أنهار، أودية ولا معين، إلاّ سيل إذا هطلت الأمطار. ينصبّ من كلّ حدب عارماً هادراً جارفاً.

هي هي قسوة ولين. شمس وظلّ. حرّ وقرّ. جدب وخصب، عطش يميت وماء يحيي، سراب وشراب. إلاّ الأسماء. **فأميهرو وتدرارت**، ولا دَحُول ولا حَومل، وتاسيلي ولا جبل الريّان، **وأزجير وآير** ولا عالج ولا نعمان، **وتنبكتو أغاديس وكانو**، ولا أم القرى، ولا الطائف ولا أثاية العَرْج(*).

وهو هو الحيوان، جمل وضبّ، وحيّة وغزلان، إلاّ أنّ عصم الجبال من الظباء **أودود / وذان**، رمز الجدّ الأوّل **أمغار**؛ والحمام حمام، وأقدس الطير **سخرك إيبرضن** بشير الفردوس.

وهو هو النبات سدر وطلح وأثل ورتم، ولا «سمرة الحيّ»، والنخل نخل والثمر تمر، وأسحر الزهر ترفاس يفوح بريح الجنان.

(*) ومنها العرجيّ الشاعر.

والبيوت خيام، والقوم رحّل من القبائل **أهجار وإيفوغاس وأمغار**، ولا ربيعة ولا مُضر، ولا هلال ولا سُليم ولا رياح. و**أخنوخن** للتّنادي ولا يا أخا العرب؛ والفتى **بوخا وباخي وأكّا**، ولا قيس ولا عدي ولا تيّم؛ والبكر **تازيدرت** أو **تينيري**، ولا زينب ولا هند، ولا الرباب ولا دعد.

ما نحن، مع الكوني، في بادية من بوادي الجزيرة أو الشآم، بالمشرق، بصحراء المغرب الكبرى في جوف قارتنا الإفريقية، فضاء يصل ويفصل بين شواطئها، شمالا، على البحر، وأدغالها، جنوبا، تحت خط الاستواء، برّ السمران وبرّ السودان.

هي التي يصوّر الكاتب، ويعيد، في هذه النصوص التي اخترنا من إنتاجه، عينات تُقرّ بفنّه الخلاّق. أرض النار، كذلك يراها، ويُريها، مصهر حضارات على مرّ الزمان. فيها تمازجت أقوام، بربر وعرب وزنج، بالحرب وبالسّلم، ورحلات العلم أو التجارة، ملحا بتبر، وأمتعة بعبيد (لشديد الأسف)؛ وتداخلت أديان إسلام ومجوس وأصنام، ففقيه وكاهن، ودرويش وساحر، وحكيم وعرّاف؛ وصلوات خمس للرحمان تُقام، وشطح من وجد وجذب، ورقص على وتر وصنج من طقوس الأوثان؛ وآية الكرْسي وتمائم ويس وتعاويذ وبخور وتعزيم؛ وزعيم وإغليد وتامنوكالت؛ واللسان بين تماهق وضادنا والهواسا.

وطن الطوارق زرق العباءة، سود العمائم، سود اللثام. لا يُرى منهم، على المهاري، إلاّ عيون تشعّ تحت أشفار الأجفان. أخلاف البربر الأوائل، والتيفناغ لغتهم، ولها موسيقاها في الأذن، ومن المعاني ذخر، حكماً وأمثالاً. ثقافة في عمر الصحراء، وعمر الصحراء طويل طويل.

وكم فيها من أساطير، ومن خيوطها جميعاً نسج الكاتب أسطورة كبرى حبلى بالمعاني، تحكي عابراً أضاع السبيل، ومن حوله علامات من «سلطان الضياء» تُنير فتدلّ، ومن «سلطان الظلمات» مغريات تستهوي فتُضلّ، وبين ذاك وهذا يسير بخطو آمن أو بقدم تزلّ، فإذا الصحراء كناية عن الدنيا، و«**الأزرق**» رمز للإنسان. واحداً على اختلاف الألوان.

ولهذه الأسطورة أول تنطلق منه، وإليه تعود بالذكر في النصوص مرارا. نواته الأصل.

في البدء كانت «واو». وهي، كحرفها في النّحو، للوصل، تعطف الإنسان على الإنسان، فتصافي بينهما وتُؤاخي. وكانت رياضا خصبا ومروجا، وأنهارا تجري، وثمارا وأزهارا. اسم آخر للفردوس يُضمّ إلى معجمه في الأديان. وأهلها أخيار أبرار، أبرياء من كلّ شرّ، لا يعرفون إثما - ولا تبرا -. يمتثلون لتعاليم «**آنهي**» كتابهم، زُبرت فيه الوصايا، كأنّه اللوح المحفوظ. وحلّ بهم قوم من الأغراب، فاستطابوا المقام، واستأذنوا في البقاء، فجاوروهم وصاهروهم على عهد بينهم ألا يقتلوا نفسا، أو يصيدوا أنثى من الودّان حبلى، أو يحتطبوا من شجر لا يزال أخضر. وسرعان ما دبّ بينهمالشقاق. من أجل امرأة قتل رجل من الأغراب رجلاً من الأصلاء - كما قتل قابيل قايين - أخاً يفتك بأخ ؟ فانفرط الشمل وزال النعيم. طارت «واو» إلى غيب المجهول وبقيت ذكراها في المهج كالحلم، ورفعت الأنهار إلى السماء، فهي الأمطار إذا نزلت، وانقلبت الأرض صحراء، وانسحب الأُصلاء إلى الخفاء، فهم الجنّ، سدنة الناموس، وضاع «آنهي» إلاّ نُبذاً منه كالألغاز مرسومة على جدران الكهوف، أو منقوشة على صخر مبثوث، وكتب على

الأغراب الشقاء، رحيلاً في الخلاء، وحنيناً أبداً إلى الأصل المفقود، وهم الإنس.

من هذه الأسطورة الأمّ تنبثق سائر هذه الأقاصيص؛ في كلّ نصّ منها صورة وفي كلّ صورة منها معنى. إن هي إلاّ فروع ترتدّ إلى جذعها، وإن يكن من ثمارها بعض الحلو، فجلّها حامض، أو مرّ، وكلّها لا محالة درّ من ألمعيّ الإبداع.

وهذا ذوق منها عسى أن أُغري بها، كما أُغريت، نفوساً لم تعرف شيئاً من طعمها.

جبل علا كالصّرح، مرقى إلى السّماء، وانكشف جوف في سفحه عن مطمور من القدم : لوح من الحجر فيه حروف، وجمجمة بالية، وقلّة على فمها ختم، التّواهي والحتم، وشرّ في السرّ كامن متربّص. وحذّر من القلّة العرّاف، وافتكّها لئام فكسّروها، فإذا تبر يبرق كالجنّ خطّاف، فعملت الفؤوس في الصّخر القائم، طمعاً في المزيد، حتّى جعلته حضيضا.

ذهب الطّود، وبقي الذهب يصول، وبقيت المعاول، وهي اليوم علينا، في العراق، قنابل، تهدّ الحدب والصّوب، إذ اسودّ الأصفر اللمّاع نفطا، كالزفت، يسيل.

شيطان المال حبسه الأوائل - عن حكمة - في قمقم ودفنوه في قاع، وأُفرج عنه فعاث. فقد تعولم في هذا العصر واستشرى، يدحو في طريقه كلّ ناتئ، ليوطّئ أرضنا لنظامه، ويخضع أهلنا لأحكامه، أنعاماً تأكل عشبا ولا ترفع رأسا. هيهات.

وقامت في الصحراء شجرة، بين أفنانها عشّ، فيه أفراخ، وعليه من الحمام أمّ. والخلاء آمن. والهواء طلق. وهل آنس من

حمام ؟ مَثل «الألفة والألاّف»؛ نجيّ المشتاق في وحشته؛ رسول العشّاق إذا بانوا؛ وفي الدنيا رمز السلام. ولاذ بالجذع إثنان من الإنس، وفي يد كلّ منهما سلاح، ولم يكونا من الصيّادين، فاطمأنّت الأمّ، وراقبتهما في فضول. وبعد حين، عن بعد في المكان، دوّى، كالغول، مدفع، فتزعزعت الأرجاء، وانتفضت الحمامة ترفرف في الهواء هالعة، ثمّ عادت تحمي صغارها. وصرخ الغول ثانية فقرُب الدّمار، زلزلت الأرض، وثار الغبار، وتقشّع، فإذا قد مات من الاثنين إنسان. ودمدم ثالثة، فانفجرت الأرض من أعماقها، واهتزّت الشجرة من أصولها، وطار ثاني الإنسان وهوى الحمام، وفي برزخ مّا لاقاها ولاقته. برزخ الفناء.

أبيد البشر والطير والشّجر، وفي الجوّ ريح بارود بعد الصّفاء ولا في المكان إلاّ جثث. شهداء.

ما أوجزها قصّة، وما أبلغها، تدين، ولا تهويل ولا شعارات، نار الإيطاليّ يوم غزا الصحراء وأهل الكوني - إخوتنا -، ونار الحروب، وكلّها عمياء؛ بل ونار الصيّاد من أبنائها إذا عدا.

شيخ برع في الصيد مذ كان فتى. بيدٍ واحدة، والأخرى قد ذهبت، وتحته المهريّ يعدو، يصيب فريسته وهي تطير كالسّهم. رصد قطيعاً وسدّد السلاح. فراعه جمال الغزال؛ وديع، لطيف الجسم، أهيف، والعين حالمة، وما عبثاً شُبّهت به الحِسان. من خير ما خُلق، ويقتله ؟ ولكن بالخيمة أطفال جياع ولا بدّ من طعام. أطلق النار فلم يخطئ الرّمية؛ وفرّ الغزال جريحاً، فاقتفى أثره أيّاماً فلقيه طريحاً ولا يزال حيّا. ذبحه وعلّقه في السرج وهمّ بالرّجوع، ولاتَ حينَ رجوع.

شطّ في المدى، ولم تبق في القربة إلاّ قطرات، وأبى أن يقتل «الأشقر» ركضاً يطوي المسافات طيّا. وهو أليفه، ربّاه صغيراً وعاشره سنين. ونَفِدَ الماء فأشقاه العطش. ولع بذهنه خاطر، أن يطعن نحر المهريّ ويتجرّع من دمه. ومدّ صاحبه عنقه، طيّعاً مستسلماً، لينقذه، ومنع الشيخَ ضميرُه أو استعجله الإغماء، فسقط منه السكّين، وخرّ على الأرض ساكنا. وعاد الجمل إلى المضرب، فمرّ، ولم يتوقّف، أمام الأبناء، والغزال يتدلّى، ولا على السّرج إنسان.

أنعتبر بوفاء الجمل، أم نأسى لمصير الرجل. وأعبث ما في أمره أنّه قتل من البَرِيّة نفْسا وما أطعم جياعه.

قَصاص الصحراء من أبنائها إذا أذنبوا، ولا ترحم.

وأفجع من قصّة الشيخ، وأروع، قصّة الفتى في «الفخ»، فخّ على الحقيقة والمجاز، نصبه للودّان يصيده، فانقلب عليه يُصيبه. كان يتيم الأب، وربّته الأمّ، ولقّنته حِكم الصحراء، وأن الجنّ إخوته. وماتت عنه. فسها عن وصاياها، وفي النعيم، والعام خصب. ارتخى فَلَهَا. دسّ في العشب فخّا من أعواد الرَّتَم، فإذا الفريسة، ولا يعلم، أمّه. وكانت من «الخسّ» بين جنّ وإنس. فرّت، وهي تدمي، بالآلة، فرآها، لويله، معلّقة في الجبل بحبل الشرك بين صخرتين، فوق هاوية، وكواسر الطير تنقر بطنها، ومنه صغير قد تدلّى : قتل أنثى حاملا. ولم يزل مارد من أهل الخفاء يوجعه في الليل ضرباً قاسياً، حتّى احتمى بجمجمة أمّه، تميمة تقيه، وخاطبه هاتف من الجنّ، أخ له من أمّه، فجلّى له الجريمة وأدانه، وتواطأت عليه من ذلك الحين عناصر الصحراء تطارده. جرفه

السيل، وأخذ منه الرّتم التميمة، فدُفع بقوّة خفيّة إلى الجبل، وضميره بعد الضرب يعذّبه بأشدّ من آلام الجسم، آلام الروح، وما أشقاها. غصّة في الحلق كالخنجر المرشوق يخنق أنفاسه، وتسلّق السفح كمن يطلب الهواء، فتعثّر وهوى. فانحلّت عمامته، وشدّت في صخر بطرف، وبطرف حول عنقه التفّت، فتدلّى في الفراغ كأمّه الودّان.

أقصوصة يُذكّر بعضها بأسطورة أوديب، إلاّ أنّه قتل أمّه لا أباه. وما فقأ عينه، من بعد، فقد عمي من قبل. وعاقبه الناموس على فظيعته شنقاً. هي الجريمة والعقاب. ويلوح في أفق القصّة طيف «راسكلنيكوف» في أشدّ عذابه الروحيّ. ودستويفسكي من أحبّ الكتّاب إلى الكوني.

والقصّة من أروع ما كتب الكاتب.

ولا يحبّ من كَابَر.

كالحجر. رأى في نفسه من الصّلابة ما قد أوهمه بالبقاء، فآل إلى الفناء. سلّط عليه سلطان الظّلام العناصر، البرد بعد الشمس، والريح بعد الماء. فانتثر هباء.

وكالضبّ، وكالودّان، وكانا من سادة القوم وغرّهما العُجب، فارتكب كلاهما ما تحرّمه التّعاليم، ذاك دنّس بجسمه الماء، وهذا تعالى يطاول السّماء. فأنزل بهما ربّ العُلى عقاباً، ردّهما أصغر من حجمهما، مسخاً في صورتي ضبّ وودّان. حرم الأوّل من الماء، وكتب عليه الخلود، وهو العذاب الأشقى؛ ونفى الثاني في الجبل بعيدا. وجعل لكلّ منهما، إذا عاد فغوي، صيادا مفترسا. فلم يزل الضبّ يقف على حجرة جحره، يصلّي ويسترحم، والودّان في الذرى يعتبر ويكفّر.

كلّ قوّة إلى الضعف ترجع ؟ هل يتّعظ جبّار من فراعنة هذا العصر عتا، فعدا ؟

وفاخر الجمل. يرتع حرّا في الصحراء، خفيف الظهر، مرفوع الرّأس. وعذّبه العطش فشكا. وسمعه الماكر الأمرد فقايضه أن يهبه الصّبر على الماء، ويحمل الإنسان، فاستخفّ الأحمق العبء. والإنسان «قرين الشيطان». فأدمى فمه بحديد اللّجام، ومشفره بالخطام. وبنار الميسم وركه، وحمّله من الأثقال ما ناءت به عظامه. فتشفّع إلى السّماء وطلب الإعفاء من حمل هذا الذي هو في الأرض «أثقل أوزارها».

ومن الإنسان من هو أبطش من الضّواري، لا سيّما إذا كان له سلطان، ومن الأمركان، وكنت له كهذا الجمل تبرك، فَيَرْكَبُكَ الدّهرَ، بسرج وخطام.

أجل. لا يحبّ الكونيّ المكابر، ولا يحبّ أيضاً الخانع في السّهل قابعا، لا يشجع فيرتفع. لا كالرّتم على حرف الوادي يعجبه. رأى أن يعلو في الجبل، فسعى في صبر حتى تسلّق السفح ووقف، ولم يرم القمّة كمن يتحدّى. فانتصب فيه ظلاّ يفيء إليه السَّفْرُ! كأنّه صالح في زاويته يؤمّه المتحرّم.

علوّ لا يجاوز حدّه، وإلاّ صار غروراً وعتوّا. فكن كالرّتم، وحسبك.

ويثني على من يفارق «القطيع» فرداً حرّا. ولكن، مع الحرية، أخطار. ومع كلّ اختيار مغامرة ورهان، فربح وخسران. إيّاك من السّراب، ففيه هلاك. واحذر السّيل، وإن كان خصبا، فإنّه أحياناً خلّب كالسّراب فاتن.

انقطع السّيل دهراً، فجفّت الأرض جفّا، وماتت النفوس عطشا. وبكر لم تعرف في عمرها إلاّ الجدب، وحدثتها عنه الجدّة وأنّه لا يعطي خيره إلاّ أخذ به قرباناً. فتبتّلت تأبى الزّواج، ونذرت نفسها للسّيل، فِدى. إلى أن طمى الوادي بفيضه. فنزلت فيه، وخفّفت من ثيابها، تبغي التحاما به كالوصال. فهبّ لها منه لسان، فالتفّ بخصرها، وعرّى جسمها، وكالبعل المغتلم - أو كالمارد - اندفع بها حيث لا يدري أحد.

قديماً، في أساطير اليونان، هرب بالحسناء «أوربا» ثور شبق، «دزوز» الزنّاء، ربّ أربابهم. فقضى منها وطرا، ثمّ خلاّها على شاطئ البحر تنتحب.

وهذا سيل كالثور مهتاج - أو كالجانّ - يروح بعذراء بتول.. فإلى أين ؟ إلى سديم الفناء، ضحيّة تُبكى ؟ أم إلى «واو» المنى، حوريّة تُغبط. مأتماً تحكي القصّة أم حفلة عرس ؟

أهي مثل العشق الصوفي، زهد ووجد، وروح طاهرة كالبكر، تذهب لتفنى في ذات الحقّ ؟ أم صورة أخرى من **البطل المأسوي** لم ير في الدنيا إلاّ زيفا، ودارا لا تصلح للمُقام، فخاطر بالنفس في مغامرة قصوى، لعلّه يصيب في ملكوت المطلق «ماء» يرتوي به، بعد الخوى، كيانه ؟

كتب الكوني، وعلى القارئ أن يتأوّل ما شاء من المعاني.

وكم من شائق إلى «واو»، في هذه القصص ! وكم من ضائع يبحث عنها ! ولا أحد يعرف ما السبيل، لا زعيم القبيلة ولا شيخ الدراويش، ولا حتى **وانتهيط** «صاحب الحمارة» إذا جاء. كلّ يرشد

إلى طريق، ولم يبلغها بالغ لا بعقل ولا بشطح، ولا بخدر من ثمرة الرّتم، ولا بسحر. سرّ هي في الغيب أبدا، ورامها ذاك البائس، في «وطن الرؤيا»، وابنه معه، فأسلمه الأفق للأفق، وإغراء السّراب، إلى إغواء الترفاس، وقد سبقت إليه الحيّة، فذاق التعيس في الزهرة سمّها، وذاق ابنهُ، فبقيا في الخلاء جثّة على جثّة، ولا فردوس.

وما «واو» ؟ حقيقة أم خيال ؟ كثر فيها بين الناس الأخذ والردّ، فتارة شكّ وتارة يقين. يكذّب بها «قصير سمين»، ويصدّق «طويل نحيل»، مُبطر ومعدِم ؟ شبعان وجوعان ؟ غربيّ وشرقيّ ؟

أما في «صحراء» الدنيا إلاّ الشقاء والرحيل ؟ أما من هناء؟ أما من سكينة ؟ بلى. في «إخبار الكائنات» دليل.

ماء على سفح يشقّ الصخر إلى السّهل، يحيي مواتاً، ويمدّ من وجهه للسماء مرآة تتراءى فيه بالنيّرات، الشمس والقمر وعنقود الثريّا، وعلى الماء رجل اعتزل القوم وعلا إليه معتكفا، ينصت إلى «الأسرار»، ويرصد «الإشارات». ووضع في المجرى حجرا، فصلَّ الحجر يغنّي، ولا يبالي أن يأخذ منه الزلال. تجاوبت الأرض والسماء، فإذا الدنيا سناء، وائتلف الحجر والماء، فإذا مع التّور شدو.

فكن كالماء يروي من عطش، صافياً يردّد الضياء؛ أو كن كالماء، وإن ذبت، معِزفاً يصدي في الأرجاء؛ أو كالمنفرد في عل يتأمّل الآلاء، وتُلهم فكره فيحسن بيده عملا، فتنشده الكائنات، على اللألاء، لحن الوجود.

حكمة لمن يفتكر.

كذا عناصر الكون - والكوني - إذا نطقت للعاقل.

و... و... وأدب كاتبنا يقرأ، ولا يعاد فيحكى إلاّ تشويقا.

فأقبل عليه بكلّ عقلك وتدبّر ما يقول فيه ويردّد. وإن لم يقنعك بعض فكره، وأنت حرّ، فاقنع بالذي ترضى منه ويرضيك، واعرض له بملء حسّك تجد نفسك كالطرقيّ في الصحراء، فترَ كيف يتولّد الأفق من الأفق، و«يتمادى الامتداد في الامتداد»، وكيف يغامز القمرُ محذّرا، والسّرابُ مخادعا، و«خروج» الرّتم، في موسمه، ومولد الترفاس؛ وعود الشجر كيف تعذبه النار، إذا اتّقدت، فيذرف دمعا، وينزف دما، وتسمع كيف يئنّ الرمل تحت سياط الشمس، وفي ضياء القمر كيف يهزّه الغناء؛ وتضرُّعَ النخلة تحنّ إلى اللّقاح، ومواويل القبلي، يهدم ويبني، يحيي ويفني. وكيف تشويك الرمضاء، ويبلّلك الندى، متى هبّ عليك من البحري هبوب.

آيات كلّها من فنّ القول هذه الأقاصيص، مهندسة الشكل، لعوب، تغدو بك في الزمان وتؤوب، تؤجّل الأحداث أو تستعجل فتؤخّر أو تقدّم. وتعلّق، وتشوّق، وتسوّف، وتفاجئ. مقطّعة المشاهد، موقّعة. قصص كالقصائد، ونثر، وإن «بريّ»، كالشعر قوّة في الإيحاء، وأسلوب ناصع كأجواء الصحراء، حَرّ حميم كشمسها. أساطير فيها صَمّ من معاني الفكر صميم.

قال الطيب صالح، في «موسمه»، متحدّثاً عن صحرائه «أرض لا تنبت إلاّ الأنبياء... والشعراء». وأنبتت اليوم كتّاباً من

خيرة المبدعين، هو في سودانه، و«الكوني» في ليبيائه، وفي تونسنا المسعدي فقيدنا، وإن كان من أهل القرى في الشمال، ألهمته، وحسبنا أبا هريرة وقصّته. فإنّ ثلاثتهم لمن ألمع وجوه أدبنا الحديث، وما عرَضاً ذكرناهم معاً، فبينهم من وجوه الشبه في ما كتبوا ما لا يخفى عن نظر الفاحص.

فدونك الآن النصوص يا قارئ.

توفيق بكار

فانسان – باريس
24 ربيع الأنور 1427
22 أفريل 2006 إداريا

الجبل

- 1 -

بدأت الرحلة في القماط. تسلّى بالسماء فرأى الأنواء. رقعة ظلماء موشاة بعيون لامعة، تومئ ولا تتوقف عن مشاكسته بوميضها الغامض. يغيب في زحمة العيون كل ليلة. ولم يكفّ عن أسفاره حتّى بلغ «آشيّت آهض»[1]. دخل بيتاً لم يعد منه أبداً. لاحقته الأم. أغوته بحيل الساحرات. استبدلت في يده صرّة الشّيح. أخذت الصرّة القديمة وأحرقتها في موقد النار. أعدّت صرّة جديدة وثبّتتها في معصمه الأيمن. ذهبت إلى السّاحر وجاءت له بتميمة جديدة. نحرت فوق رأسه ديكاً أبيض اللّون. لوّثته بدم الديك، وأعدّت له من المُخّ حساء. اشترت من العرّافين العابرين مدية نحاسية جديدة. غرستها فوق رأسه بجوار الركيزة. ولكنّ الوليد الذي سار وراء «آشيت

---

(1) «آشيت أهض» : الثريّا.

آهض» ليلاً، ومضى بعيداً في ساحة الوطن المجهول، لم يعد إلى الوراء نهاراً. ظلّ يرطم ويتبسّم ويبتدع اللّغة التي يخاطب بها كوكبة الصبايا طوال الليالي. ولا تنطفئ له عين حتّى يفلق القبس المبكّر قوس الأفق. يعود إلى الصحراء متعباً فلا يستجيب لمداعبات الأم، يستسلم لحلم مبهم، فترقص على شفتيه ابتسامة مجهولة يرتجف لها قلب الأم.

- 2 -

في الأسفار الليليّة اكتشف الجبل. رآه يتمرّد على الحضيض، يتسلّق الفضاء. يشقّ طريقاً في زحمة العيون المشاكسة، ولا يتوقّف حتّى تلامس شعفته كوكبة الصبايا. فلا يعرف هل يلتئم الشمل، ويحدث اللقاء، بفضل عناد الجبل، أم أنّ الحسان تتنازل وتهرع للقائه في منتصف المسافة.

في حضيض المهد لم يكتفِ بمتابعة الصبايا. ولكنّ الجبل هداه إلى بروج أخرى. يزحف نحوه ما إن يكتمل نزول العتمة، يتعلّق بالسفح. يتشبّث بالحجارة القاسية، ويبدأ الصعود. يصعد، ويصعد، ويصعد. في الشعفة المكابرة يجد «طالمت»[1] في انتظاره. يجلس فوق ظهرها فتنطلق إلى أعلى، تقطع المسافة

(1) طالمت : النّاقة.

فتغيب الواحة. تقطع مسافة أخرى فتختفي شعفة الجبل. تقطع مسافات أخرى فيدخل زحام الصبايا. هناك ينسى، ينسى. فلا يعود يذكر شيئاً كلّما عاد ووجد نفسه يهجع في المهد، مقيّداً بأربطة القماط.

- 3 -

تمرّد على القيد كما تمرّد الجبل على الحضيض. زحف على ركبتيه ويديه وسعى في العراء نهاراً. زغردت الأمّ فوق رأسه، صرخت في أذنه اليمنى باسمه حتّى لا يستغفله أهل الخفاء، فينسوه بحيلهم ومكائدهم اسمه. هرعت إلى جارتها واستعارت من زريبتها ديكاً ناصع اللون. نحرته في طريقه ولوّثته بدمه. جرّت لسان المدية على بدنه، وقالت: إنّها نحرت جنّا كريهاً أراد أن يكيد له قبل أن تبدأ المسيرة. قرأت في وجهه تمائم الأوّلين وهي تحذّره من هول السبيل، وغدر الخلاّن، ودهاء الزمان، وفساد الخلق. رفعته في الفراغ وقالت أخيراً: «إيّاك أن تنسى اسمك». أعادته إلى الأرض وبكت. عادت إلى الخباء وسعى هو في العراء.

افترقا منذ ذلك اليوم.

- 4 -

تدفّق الزّمان فقاده السبيل إلى الجبل لتصير له القامة المكابرة بيتاً. في الحضيض وجد حجراً مدبباً صقيلاً فحمله في

رحلة الليل إلى جنّة الصبايا. هناك عرف أنّ الأسلاف أيضاً عرفوا الظمأ إلى الخلود، وأرادوا أن يُبقوا أثراً يبرهن للأخلاف أنّهم عاشوا يوماً مثلهم، وغنّوا المواويل مثلهم، وعشقوا الصبايا مثلهم، وتلذّذوا بجموع الكواكب مثلهم. لم يجد الأسلاف رسولاً أكثر صبراً أو وفاءً من الحجر فصقلوه بأيديهم وبثّوه وصيّتهم، وتركوا عليه علامة فجيعتهم.

تفقّد الحجر فوجد عليه رموزاً خفيّة. حمله إلى العرّاف فانكفأ عليه طويلاً. لم يقل شيئاً عندما أعاده إليه، ولكنّه لن ينسى كيف ابتسم له. كانت ابتسامة غامضة مثل الرموز المخطوطة على الحجر، حزينة حزن الحجر نفسه.

أخفى الحجر في جُحْر، ومضى يفتّش السفح، ويكتشف مجاهل الجبل.

– 5 –

وجد لوحاً حجرياً مستطيلاً مدفوناً في كهف يجاور الشعفة العليا. لم يكن معتم اللون كبقية الحجارة في الجبل. كان شاحباً، صقله التداول، وشذب الاستعمال منه الحواف. أزال عنه الأتربة فكشف جوفه قبيلة من الخلق: رجال يخفون وجوههم بأقنعة. على رؤوسهم تنتصب القرون. يحملون في أيديهم الحراب. يطاردون أشباحاً نصفها الأعلى مخلوقات بشرية، ونصفها السفلي حيوانات حقيقية. لاحظ أنّ الرجال

رُسموا بسائل له لون الدّم، في حين أضيف اللون الأبيض إلى الأشباح، فرُسم النصف العلوي باللون القاني، ورُسم النصف السفلي ببياض شاحب. حمله إلى العرّاف فتأمّله طويلاً. لمعت عيناه. تمتم: «هذا كنز» قبل أن يعيد له اللّوح. حمل كنزه وذهب إلى الجبل. حفر في السفح هوّة، وأخفى فيها الكنز.

– 6 –

دهمه الزمان بوديانه الخفيّة، وجرفه كما يجرف السيل وقشاً بلسانه الشّره. قطع مسافة أخرى في أرض الجبل، وعثر على كنوز أخرى. عثر على جمجمة، وعين ماء، وقلّة من فخار. الجمجمة كلّمته بلغة لم يفهمها، والعين ومضت ببريق مجهول ما إن تبدّت تحت الشمس، فجرت نحو الحضيض، وهي تحاور في طريقها الحجارة. ولكن قُلّة الفخار جلبت على الواحة البلبال، وأبعدت مملكة السماء عن أرض الصحراء، وأطفأت وهج الصبايا، وسافرت بشعفة الجبل إلى أسافل الحضيض.

وجدها في الجناح الغربي، مطمورة تحت ركام من رمال، مختومة بحبس معتم، ثُبّتت على عنقها عروتان. إحداهما مكسورة حتّى منتصفها.

هرع بها إلى العرّاف.

في ذلك اليوم رأى قلقاً في عين العرّاف لأوّل مرّة. قرأ التمائم المجهولة بصوت مسموع، ورشق مدية شرسة

بجوار القُلّة، ودحرج اللقية بحذر من يشاكس حيّة. ثم رفع إليه عيناً غاضبة. وقال : «اذهب إلى أبعد مكان، واحفر لها في الأرض أعمق هاوية، وادفنها في أسفل الأسافل، واحترس أن يراك مخلوق. ففيها يتخفّى مارد مخيف، إذا خرج من القمقم أفسد في الأرض، ولن يقدر سلطان على الأرض أن يعيده إلى معقله مرّة أخرى». خرج من خباء العرّاف وسار في العراء. ولكنّ الأقران أدركوه وأحاطوا به. قالوا له : «أرنا الماعون الذي بيمينك !». قال : «في هذا الماعون يرقد شرّ كبير فابتعدوا !». قالوا : «رأيناك تدخل بيت العرّاف فتخرج من هناك بالعطية. قاسمنا العطيّة. وإلاّ اضطررنا أن نأخذ نصيبنا بالقوّة». تراجع إلى الوراء خطوات. حذّرهم مرّة أخيرة : «انتظروا. هنا يتخفّى المارد، هنا ينام الجنّ. ألا تخافون الجنّ ؟ العرّاف قال : إنه سيفسد في الأرض إذا خرج من القمقم، فابتعدوا». ولكنّ الأشقياء هجموا عليه. انتزعوا القلّة الخفية، وكسروها بحجر. تدفّق منها مسحوق لعوب. ومض تحت الشمس، ورفع في الفضاء قامة عجيبة. راح يتمدّد حتّى اخترق الفراغ وحجب بقامته قرص الشمس، أطلق قهقهة كريهة فتزلزلت الأرض، وتمخض الجبل فزعاً، وانهارت الحجارة نحو الحضيض. ركض الشبح عبر الواحة فهرع الأهالي إلى المكان، تكأكؤوا حول المسحوق الأصفر، تنازعوا حبيبات التراب، تقاتلوا بوحشية في سبيل الفوز بذرة من الرّمل اللعوب،

ولكنّهم لم يروا المارد الذي يحجب عين الشمس، ويركض في الواحة مقهقهاً.

- 7 -

نحروا الأنعام عند حضيض الجبل. ثم صعدوا السفح وبدأوا حملة استمرّت طويلاً. أزالوا الحجارة، نبشوا التراب البكر. سحقوا الجمجمة التي كلّمته يوماً بلغة لم يفهمها، زحفوا إلى أعلى، أتلفوا اللوح المرسوم بقبيلة القدماء. أزالوا الكنز القديم بحثاً عن الكنز الكذوب. أضاعوا الأثر الأوّل في سبيل الهباء. أتلفوا الحجر الذي أخفاه في الجُحر أيضاً، فأضاعوا الوصيّة. ماتت عين الماء، وعاد السلسبيل إلى نبعه. ناحت الصبايا في السماء وأشحن خجلاً. ابتعدت السماء مسافة أخرى عن الصحراء، وسافرت قامة الجبل الجليل أشباراً أخرى نحو الحضيض. أضاع الحجر، وفقد الصبايا، ونسي اسمه فوجد نفسه وحيداً، وحيداً، وحيداً.

دسّ رأسه في التراب، وبكى !

- 8 -

سار به الزمان في مجاهل أخرى، فوجد نفسه يرتحل برفقة القوافل. يحمل بضائع نفيسة إلى ممالك الأدغال، ليحصل من قبائل الأشباح على المسحوق الأصفر كما يفعل كلّ التجّار.

سافر كثيراً. وكدّس من التّبر أحمالاً كثيرة، فنسي كوكبة الصبايا، والوصايا، والشعفة المكابرة، نسي الواحة كلّها كما نسي يوماً اسمه.

- 9 -

عاد إلى الواحة بعد غياب طويل، فوجد أنّ الجبل فقدَ قامته المكابرة، وتحوّل رابية حقيرة، عارية من الحجارة، ومن بهائها القديم. ذهب في زيارة إلى العرّاف. تحدّثا عن الجدب، والأوبئة، وغدر الزمان، وفساد الخلق. انتهى حديث الناموس. فسأل الكاهن عن البلاء الذي حلّ بالجبل. قال العرّاف: «الخلق لم يهلكوا الجبل برغم أنّهم دنّسوه وحرثوه بحثاً عن كنزهم اللّعين. ولكنّ الجبل الذي تغيّر وبدأ يصير إلى زوال ليس جبل الواحة، ولكنّه جبل آخر حملته أنت». حدّق فيه بعين فارغة يسودها البياض. أضاف: «هيهات أن تجد الجبل، هيهات..». أومأ للعرّاف أن يوضّح، ولكنّ الكاهن راقب الفراغ بعينيه الفارغتين.

- 10 -

عاد في مرّة أخرى إلى الواحة فاكتشف أنّ الرابية تضاءلت واستحالت إلى أكمة تكاد تتلاشى وتستوي بالأرض، ذهب إلى العرّاف، تحادثا عن الحياة بلغة النّاموس أوّلاً. لم يطق صبراً فسأل

بوجل: «أين الجبل؟ الجبل، يا مولاي، اختفى!». ابتسم العرّاف بحزن. قال بقساوة تليق بمصاحبة البسمة الحزينة: «أنت أيضاً ستختفي!». تمتم: «الحق يا مولاي، أنني لم أفهم». قال العرّاف: «لم تفهم لأنّك ابتعدت كثيراً. ضيّعت الحجر فأضعت الوصيّة، تركتهم يعبثون باللّوح ففقدت الكنز. سرت وراءهم، وبحثت عن كنزهم فنسيت اسمك. ويوم نسيت اسمك هرب منك الجبل. والآن، فات الأوان لأنّني أراك تقترب من الحضيض الذي خرجت منه كما اقترب جبلك من الحضيض». تطلّع إلى الأكمة المغمورة بفيض الغسق فبدت بقامة أقصر. تضاءلت أشباراً أخرى أمام عينيه.

- 11 -

وقف في مواجهة الأكمة. انحنى، تناول حفنة من ترابها، أطبق عليه بقبضته اليمنى، ثم ملأ به الكفّ اليسرى، أطبق عليه أيضاً. شدّد قبضته. ألقى به في الفراغ. تشتّتت الحبيبات التي كانت تتلاحم في قطعة مرنة، ناعمة، وصارت هباء بدّده النسيم وأعاده، في ذرات خفية إلى أصله، إلى تراب الأرض. تعلّق بذرة ظلّت تحوم في الفضاء. دارت حول نفسها مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات، حاولت أن تصعد إلى أعلى. استماتت. عاندت، ولكنّها توقفت وبدأت تهوي أيضاً. جاهد أيضاً. حاول أن يستعيد السيرة الأولى، ويبصر قامة الجبل، ويكتشف الحجر واللّوح، والجمجمة، والعين، و.. كوكبة الصبايا. و.. الاسم، الاسم،

الاسم. ولكنّه لم يستطع أن يصعد إلى أعلى، فهوى إلى الأرض، كما هوت ذرّة التراب.

في سماء تلك الليلة تنقّلت الأنواء في منازلها : لمع نجم. انطفأ نجم. هوى نجم. ولكنّ كوكبة الصبايا لم تظهر أبداً.

تون (سويسرا) : 1993

الحوار بمنطق العناصر الكونية

بدأت الخصومة عندما اكتشف الحجر في نفسه ميولاً للكَسَاحَة. طاف الحصراء مبشّراً الكائنات :

– لم أجد في الصحراء عنصراً أقدر على البقاء منّي. فارهنوا وصاياكم في قلبي إذا أردتم أن تبلّغوها للأجيال. إزبروا أسراركم في صدري، فليس في الصحراء غيره يحفظ الأسرار. لم أجد في طريقي عنصراً يفوقني قوّة ولا خلوداً. سمعه القبلي[1] فنقل النداء للزمان. غضب العجوز وصاح بالحجر :

– بلغني أنّك تتطاول وتدّعي لك نصيباً في الأبدية. اعلم أنّها حكر عليّ وحدي. فأنا من لم يبدأ ولن ينتهي. خَلَقَ و لم يُخلَق، وَلَدَ و لم يولَد. فَعَلَ و لم ينفعل، يصيّر ولا يَصيرُ. يتحدّى ولا يتحدّاه شيء. خالد وكلّ ما سواي إلى فناء يسير.

نازعه الحجر :

_ حتّى أنا ؟

---

(1) القبلي : الريح الموسمية الجنوبية في الصحراء الكبرى.

قال الزمان بثبات يميّز الخالدين :
– بما في ذلك أنت !

أخذ الحجر العجب، واستغرب في أمر الخبر، فقال باستكبار :
– عجباً سمعت. لم أجد في الصحراء عنصراً واحداً يفوقني كساحة أو صلابة.
– إيّاك والغرور ! فهناك الماء !
– الماء ؟
– إيّاك والغرور : فهناك النّار !

زادت دهشة الحجر وتضاعفتِ مباهاته واعتزازه بنفسه. فخاطب الحكيم قائلاً :
– لم أشكّ يوماً في حكمتك، ولكن ما تقوله اليوم يثير عجبي يا صديقي الزّمان : فهل تظنّ أنّ الماء السلسبيل، السّلس، المائع، يمكن أن يفوقني قوّة ؟

قال الخصم بثقة الحكماء :
– أجل. الانسياب والهدوء والميوعة التي تعتبرها فيه ضعفاً هي من أسباب قوّته.
– عجيب !
– أما أنا فلا أعجب إلاّ لمغرور يدّعي الكساحة في حضرة الزّمان.

تجاهل الحجر التحذير وقفز لأمر النّار :
– والنار ؟ أعترف أنّ لها لساناً شرهاً كلسان الحيّة، ولكنّه ليس بالسلاح الذي يصلح للقضاء على صلادة الحجر.
– بل يفتّته إلى هباء كنقيضه الماء.

لم يتمالك الحجر المكابر نفسه فقهقه عالياً حتّى ردّدت الصحراء الصّدى. ثم قال :
– وماذا لديك أيضاً يصلح لفنائي ؟

فقال الزّمان بيقين المعمّرين القدماء :
– لديّ شعاع الشمس أيضاً.
– الشمس ؟

عاد يقهقه بطريقته الاستفزازية الكريهة، ثم أوضح :
– إنّها تسطع فوق رأسي منذ زمن تعجز ذاكرتي الضعيفة عن حفظه دون أن تؤثر في قواي.
– أثّرت في قواك العقليّة. ألم تعترف منذ قليل بضعف الذاكرة ؟
– ها – ها – ها... بل هذا دليل على خلودي. الخالد هو من يبلغ عمراً لا يستطيع فيه أن يتذكّر يوم مولده.

قاطعه الحكيم :
– وأخيراً هناك غول كلّ العناصر في الصحراء. الغول الذي لولاه لما أصبحت الصحراء صحراء : الريح !
– الريح ؟
– رسولي الجنوبي، المسمّى القبلي. له مواهب خاصّة. يسير بتدبيري ومساعدتي وتسخيري، فلا يغلبه غالب. فهل تجاهر بالخصومة وتقبل التحدّي ؟

بعد أن انتهى الحجر الجبلي من قهقهته الكريهة أعلن :
– أقْبَلُ. ولِمَ لا أقبل ولم أرَ في الصحراء عنصراً أصلب منّي ولا أكسح؟ كما لا أستطيع أن أقيم وزناً للعناصر الخفيّة دون أن أتّهم بالجبن.

بدأ زمان التحوّلات بوحدة القياس الفلكي.

بدأ الزمان حربه بالماء فلحس السائل السرّي، المائع، خشونة الحجر المُكابر، وشذب فيه النتوءات والأسنان والمخالب، حتّى جرّده من الأسلحة والأعضاء، فأصبح أملس بمساعدة من الزمان وحده. ثم زلزلت الصحراء زلزالها وتفجّر الجوف بالبركان، تحوّل المكابر في البداية إلى قطعة تصلى في النار الموقدة ثم انتقلت إلى درجة أخرى وتحوّلت إلى فحم بالبرودة. تحلّل الحجر في الداخل ولكنّه احتفظ بالتماسك الخارجي. هنا جاء دور الشمس فسلّطت عليه شعاعاً أبدياً مستعاراً من الجحيم. ظلّ يتلوّى ويتشكّى ولكنّ العذاب استمرّ.

في المرحلة الرابعة، الأخيرة، جاء دور القِبْلي. هبّ من الجنوب البعيد، وظلّ يعصف ليل نهار لأمد لا يُقاس إلاّ بالوحدة الفلكية. وداوم، طوال الغزو، على صفع وجه الحجر بحبيبات رملية قاسية حتّى تفتّت وانهار. ذابت الصلابة. تحطّمت الكَسَاحَة. تحلّل الكبرياء وتحوّل إلى باطل في قبض الريح. هنا خاطب الزمان الهباء:

– قلت لك إنّ صلابة الرأس ليس دليلاً على الشجاعة. فما رأي المكابر؟

قالت عناصر الحجر التي غابت في ذرّات الغبار ضائعة في المتاهة العدمية:

– آمنت أنّ العنصر كلّما خفي وصَغُر كلّما كان أقوى وأقدر!

الدار البيضاء

1991/3/2

إخبار الكائنات

1- جسد

الصبيّة لها قدٌّ مارد. تتلحّف بدثار أسود، تضمّ إلى صدرها جسماً ملفوفاً في قماط شاحب. انحنت وهي تلج الخباء فتمرّد الصدر وتمادى. جرّدت الجسم الخفيّ من حجابه الشاحب. تبدّى رغيف الملّة. كان معتماً، موسوماً برموز غامضة خطّتها عليه شظايا الجمر، ولكنّه كان غضّاً، وديعاً، مثل طفل رضيع. وضعت الرغيف على قطعة محبوكة من سعف النّخل. تأمّلت البدن المدوّر. استنشقت أريجاً طازجاً شهيّاً. داعبته بأصابعها وابتسمت بغموض العذارى. سطع وجهها ببريق خفيّ.

أقبلت العجوز. مقوّسة، نحيلة، صارمة، تحمل عكّازاً شذّبه الاستعمال وصقله الزمان. ألقت نظرة على الرغيف. ألقت للصبيّة بأمر صارم. تردّدت الصبيّة. غاب عن وجهها البريق. التفتت إلى المدخل المفتوح على عراء أبدي يتمدّد ويتمدّد حتّى يبتلعه الأفق.

تابعت الامتداد. رافقت المسافة في رحلة الأبد. تحسّست خدّ الرغيف البكر دون أن تتخلّى عن ملاحقة الأفق. أعادت العجوز الأمر بلهجة أكثر صرامة. انتفضت الصبيّة، توقّفت عن ملاحقة السراب في الأفق، تناولت السكّين. لمع النصل تحت شعاع القيلولة بوميض غامض. تحسّست اللسان الشّره بسبّابتها. ثمّ.. جرّة النصل على الجسد الوديع. غاب النّصل في طراوة الجسد. انشقّ الجسد الغضّ إلى شطرين. غزا وجه الصبيّة شحوب. غاب منه الوهج، وفقد بهاء الصبايا. من العين فرّت دمعة. ولكن شهقة فاجعة، لم تسمعها العجوز، ندّت عن الصبيّة.

2- منافسة

قامات الأشجار في حضيض الجبل، ماردة. يمتدّ الجبل إلى أعلى فتلاحقه الأشجار، وتتقدّم لتتسلّق امتداد السّفح بقامات أقلّ طولاً. تتضاءل قامات الشجر كلّما اقتربت المسيرة من القمّة. فوق القمّة تحدث مفاجأة، تتوقّف قامات الأشجار عن الامتداد إلى أعلى. تنتكس بغتة. تنحني بانكسار. تدلي رؤوساً حزينة إلى الهاوية. هل لأنّها تطمع في أن تبلغ الجبال طولاً، أم بسبب غياب المنافسة ؟

3- لغة

الماء يتدفّق من الينابيع في قمم «تاسيلي». ينساب عبر قنوات محفورة في سفوح الصّلد. في حيد الجبل شمالاً استقرّ غار

عميق. يتحايل السلسبيل فيطوّق الغار من جهات ثلاث. تتباطأ المياه في القناة وتكفّ عن برطمتها الخفيّة.

في الغار أقام شيخ نحيل كأنّه شبح من أشباح الجنّ. بل إنّ الرعاة وأهل تاسيلي دعوه بـ«آلهين»[1] منذ زمن بعيد. ولكنّ المعتزل الغامض لم يكن يهجر جُحره الذي يشبه جحور الضّباب إلاّ لكي يتفقد جدول السلسبيل. يركع فوق المجرى ويتأمّل أَلَق الماء. إذا سلّطت عليه الشمس سياط أشعتها ردّ على الإساءة بالألق، وإذا حلّ الليل وسكب البدر فوقه فيض ضيائه ردّ على الدعابة بالألق. وإذا لفّته الظلمة بلحافها الكئيب وجد السبيل أيضا كي يجيب بالألق.

ولكنّ المعتزل الغامض لم يكتفِ بلغة الألق فبحث عن تدبير يستنطق به الماء. جاء بثلاث قطع من الحجارة. وضع الحجارة في ممر الجدول. تمدّد بالجوار. أسدل لثامه على وجهه. تصنّت كيف نطق الماء بسرّ الينابيع.

4- الحجارة

برطمت المياه. حاورت حجراً ظنّه الرعاة أخرس. حلّت ظلمة. سافر القمر بعيداً. عاد القمر من أسفاره كثيراً، تخاطبت الأنواء بإشارات الضياء. بدّل الإثل شعر رأسه مرّات كثيرة.

(1) آلهين : الجنّ.

اختفى البدن النحيل من الغار القديم. ولكنّ السلسبيل لم يتوقّف عـن المسير. لم يـتوقّـف عـن مخاطبـة الحجـارة ببرطـمـة المجهـول. تضاءلت أبدان الحجارة. ولكنّها لم تكفّ عن محاورة النّبع. لأنّ الحجارة هي الكائنات الوحيدة التي لا تملك إلاّ أن تتكلّم إذا جالست الماء، برغم أنّها تفقد جسدها، وتتلاشى، إذا تكلّمت كثيراً.

5- اختـبـاء

اختباء قرص الشمس وراء شجرة الإثل مناورة

اختباء قرص الشمس وراء الجبل منفى !

جبال بلاترز (قبرص)
أغسطس 1992 م

نذر البتـول

«ليبيا تصحّرت. القيظ اختلس الندى
فناجت الحوريات بشعور مهدّلة يبكين الينابيع والبحيرات».

أوفيديوس
«التحوّلات»
المجلد الثاني

«الماء يتمدّد ويتكاثف مدفوعاً بالنّار ليكوّن الأرض. يندفع ويخرقها فيصنع الهواء. على هذه الشاكلة فإنّ الأرض مرفوعة بالهواء. والهواء مرفوع بدورة النار. كلّ الكائنات الحيّة خلقتها الأرض بالحرارة التي ينفثها الطمي بنفس الأسلوب الذي يغذّي به الحليب الجسم. بهذا الأسلوب أيضاً خلقت الأرض النّاس».

أرخيلايوس
أوردها ديوغين لاورتسي في
«حياة وتعاليم وحكم مشاهير الفلاسفة»

- 1 -

- غر.. غر.. غر.. رق.. رق.. رق..

أنصتت مرّة أخرى. انحنت كي تتبيّن الصوت الخفيّ ثم عادت تحاول تقليد لغة الماء :

- لق.. لق.. لق.. لق.. لق.. لق !

سعْدت بالاكتشاف. راقت لها النغمة الأخيرة فردّدتها طويلاً وهي تنحني فوق النهر المتدفّق في قنوات صغيرة تتسلّل بين الصخور، تتلوّى حول الشجيرات البريّة الشاحبة عبر الوادي الكبير.

هبّت نسمة شماليّة باردة، مشبعة بالماء.

الشتاء.

السماء عارية في الحمادة. وبرغم الصفاء فإنّ الشمس لم تجرؤ على العجرفة والاستبداد. الرحمة التي نزلت على الجبال

أقصى الشمال، غلبت الشعاعات النارية وخفّفت من قساوة الحرّ. وصل لسان السيل إلى مراعي القبيلة مع الأصيل فتنادى الرعاة وتجمهر الناس وانتشروا على طول الوادي يتمتّعون بمشاهدة المعجزة. خلت البيوت وزحفت إلى النهر حتّى العجائز. تعرّى الأطفال وزحفوا على أيديهم وبطونهم محاولين السباحة في الماء الضحل. الأحجار والأشواك أصابت الكثيرين بجراح فهرعت الأمّهات وانتزعنهم من الماء. حذّرت العجائز :

– إيّاكم وأن تطمئنوا إلى السيل. فوق لسانه جنّ وفي ذيله دائماً غدر.

ولكنّ الجيل المحروم الذي لم يشهد في حياته سيلاً، وسمع عنه فقط في خرافات العجائز، انشلّ من الدهشة.

«تازيديرت» تنتمي إلى هذا الجبل.

استيقظت مبكّراً وهشّت أغنامها عبر المنحدرات نحو الوادي عندما رأت المعجزة. الماء يرتفع بضعة أشبار على أرض عذّبها الجفاف والشمس و لم تذق طعم الماء عشرات السنين و.. يجري. أكثر ما أثار دهشتها أنّ السائل النفيس، العجيب، من الوفرة بحيث تجمّع في مكان ما وجرى.. تدفّق.. انساب بين الصخور، حول الشجيرات اليابسة، فوق الأرض العطشى.

سبحان اللّه !

توقّفت كالمشلولة. نسيت نفسها. عجزت عن النطق. سرحت في المجهول. لم يتجمّع السحاب، و لم تسقط قطرة مطر

واحدة، فأين يمكن أن يتجمّع كل هذا القدر من الماء بحيث يستطيع أن يتدفّق في الوادي العطشان ؟ الوادي الشّره الذي رأت كيف يبتلع قربة ماء كاملة في رمشة عين.

جدّتها أخبرتها في الخرافات أنّ الأمطار تسقط على المرتفعات في جبل الحساونة، أو جبل نفوسة، في أقصى الشمال، ثم تنحدر عبر الشعب وتصبّ في الأودية. تتجمّع هناك ثم تبدأ مسيرتها نحو السهول في الجنوب. ولكنّها لم تصدّق يوماً هذه الخرافات. لم تصدّق أنّ السماء يمكن أن تجود بهذا القدر الوفير من الماء الذي يستطيع أن يقطع كلّ هذه المسافات في الحمادة دون أن تستولي عليه الأرض البائسة وتمتصّه في منتصف الطريق.

ها هي ترى الخرافة بعينيها.. المعجزة.

ما زال قلبها يخفق بشدّة عندما اقتربت من حافة الوادي وتأمّلت السائل النشيط وهو يجرف البعر والقش، يغمر الأحجار، ويلتفّ حول الشجيرات البرية في شقاوة.

سمعت ثرثرة الماء لأوّل مرّة.

لم تصدّق أيضاً.

اقتربت خطوات. تردّدت. ترنّحت. مدّت يدها. لامست السائل. انتفضت. استولى عليها شعور غامض ولكنّه لذيذ. عادت ودسّت يدها في الماء. بارد، رحيم، حنون، خفيّ.

انحنت فوق النهر وأنصتت للّغة المجهولة. أنصتت طويلاً. استمرّ قلبها يرتجف. رفعت رأسها. رأت القبيلة تزحف نحو الوادي وتنتشر عبر السفح. أدركت أنّ الماء حقيقي. عادت تنحني فوق النهر وتنصت للضجيج الغامض.

ثم بدأت تحاول تقليد الصوت :

– غر.. غر.. غر.. رق.. رق.. رق.. لق.. لق.. لق.

– 2 –

يُروى أنّ المجاعة أهلكت نصف القبيلة في تلك السنوات.

نجا القليلون الذين تشبّثوا بحياة بائسة في الواحات. أبوها تركها عند جدّتها والتحق بالقبيلة في الحمادة عندما تحالف الجفاف في الصحراء مع العدو في الشمال. كسر الطليان المقاومة في السواحل وبدأوا يغزون الجبل تمهيداً للتوغّل في الجنوب. شارك الأب قبيلته مأساتها ومات أيضاً بالجوع قبل أن يتمكّن الطليان من الوصول إلى الحمادة. أمّها تنتمي إلى قبائل «إيفوغاس»، تخلّت عنها أيضاً قبل أن تبلغ التسعة أشهر وماتت بوباء مجهول.

لم يطل بهم المقام في الواحة. اقتحم الطليان الصحراء الجنوبية، ودارت المعارك في رملة «زلاّف». تكبّد المجاهدون خسائر قاسية أجبرتهم على التراجع جنوباً والاحتماء بالصحراء الرملية، فوجد الغزاة طريقاً مفتوحاً للدخول إلى الواحات.

انتشر الخبر الفاجع قبل وصولهم إلى الواحة بأيام، وتناقل الرواة قصص التنكيل، فعمّت البلبلة، ورحل الرّحل وتركوا الواحة للفلاّحين.

تشتّتت القبائل. هاجرت عشائر إلى آير وبلاد السود، ورحلت عائلات أخرى إلى تونس والجزائر وتمبكتو، وبقيت بقايا الشتات تنتقل في الحمادة التي تعاني من استبداد الشمس وقساوة الجفاف الطويل.

التحقت مع جدّتها ببقايا القبيلة التي فضّلت البقاء في الحمادة العارية. لم يشمل العراء الوحشي الحمادة البائسة، ولكنّها تذكر جيّداً تلك السماء القاسية، العارية من السحب. لم تحتجب الشمس المستبدّة بسحابة واحدة طوال تلك السنوات، فاستمرّ الجفاف والمجاعة، وعاشت «تازيديرت» مع جيل كامل، محرومة من المطر ورؤية السحب.

لم تر الماء يجري. لم تشاهد السيل.

شاهدته فقط بعيني جدّتها. تجلس بجوارها حول موقد النار الخابئة في مدخل الخباء عندما تفرغ العجوز من ترديد التعاويذ، تتشبّث بطرف لحافها الأسود وترجوها أن تحدّثها عن السيول. ولم تكن العجوز تستجيب لتوسّلاتها في كلّ مرّة. بل كثيراً ما تتملّص وتختلق المبرّرات لتتخلّص، ولم تدر «تازيديرت» وهي طفلة ما تسبّبه هذه القصص للعجوز من ألم.

مرّة رأتها تقوم بحركة مفاجئة بعد سردها لإحدى قصص السيل : رشّت الموقد بالماء وأطفأت النار. احتضنت عمود الخيمة

ودسّت رأسها بلحافها وبكت طويلاً. وفي مرّة أخرى انهارت في أثناء السرد واستولت عليها نوبة طويلة من النحيب. ثم أصبحت تبكي في أثناء السرد. لم تعد تحاول أن تخفي دموعها كما كانت تفعل في الماضي. فتروي الأساطير المثيرة عن سيول عظيمة شهدتها الصحراء في الزمان القديم فظلّت السماء تمطر والأرض تسيل بالماء شهوراً كاملة، وفي هذه الأثناء تسيل الدموع بهدوء على وجنتيها البارزتين الشاحبتين دون أن تمدّ يدها لتمسحها. وأكثر ما أثار تازيديرت في قصص العجوز أنّ السيل لابدّ أن يجرف رجلاً أو امرأة أو طفلاً في طريقه عندما يأتي. لم يدهشها أن ينزل خسائر بالحيوانات التي تتّخذ من الوادي دائماً مأوى، ولكن لماذا عليه أن ينزع البشر أيضاً إلى جانب الحيوان ؟ حيّرها اللّغز، فسألت الجدّة عن هذا السلوك.
قالت العجوز :

– لأنّ الأشقياء في هذا الزمان يبخلون بالقرابين ولا يفون بالنّذور. يظنّون أنّهم يستطيعون أن يخدعوا السماء. فيضطرّ السيل أن يأخذ منهم حقّه بالقوّة.

سألت تازيديرت :

– ألا تكفيه أرواح المعيز والإبل ؟ أليست الحيوانات قرابين أيضاً ؟

أجابت الجدّة بكلام عاش في ذاكرة الحفيدة إلى الأبد :

– الحيوانات قرابين صغيرة لم تخلق للسيل. السيل صعب. السيل لا يقنع إلا بدم الإنسان. لو كان السيل

سهلاً لما غاب عشرات السنين وحرمنا من الحياة نصف عمرنا.

أما «تازيديرت» فقد حرمها السيل من العمر كلّه.

- 3 -

لا تذكر من حياة الواحة سوى عدوّين : الرمضاء والعجاج.

تذهب إلى أحراش النخيل لتأتي بالبرسيم إلى الماعز. في تلك الأثناء تكون الشمس قد ارتفعت وأشعلت النار في الرملة فتعترض طريقها الرمضاء عندما تعود حاملة الرزمة الخضراء فوق رأسها. كثيراً ما اضطرت إلى الزحف على بطنها كالأفعى وحمل البرسيم يسحق رأسها. وفي مرّة لحست بطن قدميها بلسانها لتطفئ اللهب، وفي مرّات أخرى تدحرجت كالكرة وهي تجرّ كتلة البرسيم بحبل. لم تجدِ شكواها لجدّتها من قسوة الرمضاء. العجوز تتمتم بالتمائم وتجيبها بأنّ الصبر في الحياة أقوى من تعاويذ السحرة. وقالت لها : «ليس عبثاً سمّوك تازيديرت[1]». وبدل أن تتسلّح بأقوى تعويذة في الحياة وتقدّم الدليل على استحقاقها لاسم «تازيديرت» ذهبت إلى الحقل وعادت بربطة برسيم كبيرة فرشت بها الطريق وحمتها من لهيب الرمل.

(1) تازيديرت : الصبر (بلغة الطوارق).

اضطرّت الجدّة أن ترجو أحد الفلاحين كي يصنع لها نعلاً من السعف.

ولكنّ نعل السعف أيضاً لم ينفع. كان سيئ الصنع. تآكلت عقدة القطعة اليمنى فتحلّل النعل كلّه منذ اليوم الأوّل. فاستعملت النعل الأيسر للقدمين بالتناوب حتّى تَلِفَ أيضاً بعد يومين.

اكتشفت أنّ الرمضاء في الواحة قضاء مكتوب فاحتمت منه بتعويذة الجدّة: الصبر! أمّا العجاج فحطّم رأسها بالصداع ونوبات الغثيان.

الواحة تقع في نقطة التماس بين الصحراوين: الشمالية الطينية والجنوبية الرملية. ترتفع سحب العجاج الكثيف كلّما هبّت رياح القبلي، حتّى تحجب قرص الشمس وتحوّل النهار إلى ظلمات. تذكر أنّ العاصفة خيّمت في إحدى الغزوات عدّة أيام متتالية فسجنت الناس في بيوتهم وأطاحت بالأكواخ وأشجار النخيل وطمرت الزرع وعيون الماء.

تلك العاصفة جاءت بنوبات الصداع والغثيان.

ثم هاجروا إلى الحمادة.

في صحراء الشمال اختلف الطقس وطبيعة الأرض. خفّ لهب الأرض وهدأت العواصف المحمّلة بالغبار. ولكنّ قرص الشمس لم ينطفئ فسلّط عليها وحشاً آخر أشرس وأبشع.

في الشهور الأولى لم تتعرّض طويلاً لويل الشمس. كلّفتها الجدّة بجلب الحطب وساعدتها الشمس نفسها في إنجاز مهمّتها: أحرقت النبات وحوّلت كل شجرة خضراء إلى حطب يباب. ولكنّ استمرار الاستقرار في الأودية وإسراف القبيلة في استعمال الحطب اضطرّها إلى الابتعاد عن المضارب وجلب الحطب من الأودية السفلية البعيدة. انفردت بها الشمس وعطشت مرّات، ولكنّها لم تفقد الوعي إلى الحدّ الذي يجعلها تضيّع الطريق إلى النجع.

هذا حدث بعد أن سلموا لها الجديان وكلّفتها الجدّة بالرعي.

الجديان! يا ربّي ما أشقى الجديان! سمعت كثيراً من الصبايا عن شقاوة هذه المخلوقات ولكنّها لم تتصوّر أن يفوقوا الرمضاء قساوة، أن يفوقوا الشمس في التنكيل بالناس. في الأيام الأولى رافقتها قرينتها «تميما» إلى المراتع الشحيحة في السهول الغربيّة.

تميما صبيّة مرحة حيوية تكبرها بعامين قضت كلّ حياتها في الحمادة، ذاقت المجاعة وعانت من الشمس. تعلّمت الصبر واكتسبت مناعة ضدّ شقاوة الجديان. تضفر لها أمّها شعر رأسها في جدائل رفيعة طويلة تشبكها إلى الخلف في كتلة مضحكة كأنّها تاج من شوك، ويروق لها أن تشدّ خصرها بحبل من الليف، وتنتقل في الأودية، تقفز فوق الصخور برشاقة الجديان و.. وتغني. تغني وترقص أحياناً أيضاً وتحلم باليوم الذي ستبلغ

فيه السنّ المناسب كي تتزوّج الصبيّ المتكبّر «أخنوخن». وهي دائماً حائرة في الاختيار. لا تكفّ عن الاستفسار أيّ الصبيان أنسب لأن يكون عريساً. تختار اليوم أخنوخن لأنّه متكبّر ومتعجرف، ثم تنسى قرارها، أو تتراجع عن إصرار، لتختار «أمود» في اليوم التالي لأنّها لاحظت بالأمس أنّه يفوق أخنوخن كبرياء، وعمامته أكبر من عمامة أخنوخن.

خلال هذه الأثناء لا تكفّ عن الرقص والغناء ومطاردة الجديان الشقيّة في الأودية والسهول والتلال وشقوق الجبال من دون أن يصيبها الإعياء أو تتفصّد من جبينها قطرة عرق. أما هي ابنة الواحة التي لم تعلّمها الحمادة كلّ هذه الحيل و لم تهبها الحياة تعويذة الصبر السحرية إلاّ في الاسم، فإنّ التعب يكون قد هدّها وبلّل ثوبها بالعرق وجفّ حلقها من العطش وتخلّفت عن رفيقتها مسافة طويلة.

وكانت تميما تلوّح بعصاة السدر في الهواء وتميل إلى الوراء وهي تضحك. وما إن ترى الشقاء على وجهها حتّى تكفّ عن الضحك وتعزّيها قائلة :

– هذه هي الجديان. هل تظنين أنّ رعي الجديان أمر سهل ؟

كانت تستفزّها بهذه العبارة دائماً.

ملّت تازيديرت في إحدى الرحلات وسألت رفيقتها :

– لماذا يسند لنا الكبار رعي الجديان إذا كانوا يعرفون أنّها بهذه الشقاوة ؟

كانتا تستلقيان تحت شجرة سدر وحيدة في سهل عار مكسو بأحجار شرسة سوّدتها أشعة الشمس. قالت تميما الحكيمة وهي تعبث بعود السدر المكسو بالشوك الأشيب :

– الكبار يفعلون ذلك خصيصاً كي ينتقموا لطفولتهم الشقية. هم أيضاً عانوا من الجديان عندما كانوا صغاراً. ها.. ها.. ها..

– هذا ليس عدلاً. على الشيوخ العقلاء أن يتولوا الجديان. رعي الجديان يحتاج إلى التدبير. والتدبير في رؤوس العقلاء، الشيوخ.

– التدبير هو الذي أشار عليهم بهذه الحيلة. التدبير يقضي أن يتظاهروا بأنّ رعي الإبل والماعز أصعب، ويولون الصغار رعي الجديان الملعونة. سيجيء اليوم الذي أسلّمها فيه للذئاب. ها.. ها.. ها..

– هذا ليس عدلاً. العدل أن يعطونا الفرصة لنسرح بالأغنام والإبل.

– ليس في الدنيا عدل. قلت لك إنّ التدبير حيلة. أمي تقول إنّ الحياة حيلة.

– الكبار أجدر بتربية الصغار. هل يستطيع طفل أن يربّي طفلاً ؟ هل يرعى الطفل طفلاً ؟

– قولي هذا الكلام لجدّتك. ها.. ها.. ها...

ثم أحكمت شدّ الحبل حول خصرها، وزحفت على ركبتيها تلاحق ظلّ السدرة الهارب، وقالت :

– دعينا من الجديان. هيا نتحدّث عن العرسان. هل اخترت عريساً ؟

قالت تازيديرت بيأس وهي ما تزال تفكّر في الجديان :

– وما فائدة العرسان ؟

– وهل في الدنيا أجمل من العرسان ؟ ها.. ها.. ها..

– أغبياء ومغرورون ! السيل أجمل.

رقدت تميما على بطنها. أسندت ذقنها بيدها ودسّت يدها الأخرى في التراب. قالت :

– ليس في رأسك غير المطر والسيل. والمرأة خلقت لتكون عروساً والرجل خلق ليكون عريساً. لا أعرف شيئاً آخر.

– وأنا لا أعرف شيئاً آخر. ما فائدة الرجل بدون سيل ؟ ما فائدة الأرض بدون مطر؟ السيل وحده يستطيع أن يطفئ الشمس ويقضي على الوحوش الثلاثة.

– الوحوش الثلاثة ؟

– الرمضاء والعجاج والعطش.

– ها.. ها.. ها.. ليس في رأسك غير الرمضاء والعجاج. الواحة تطاردك حتّى في الحمادة.

– طول عمري أحلم بالسيل. لم أر سيلاً في حياتي. حدّثيني عن السيل.

– ليس قبل أن تحدّثيني عن أعراس الواحة.

– حدّثيني عن السيل أولاً. أنا التي اقترحت قبلك. أستحلفك برأس أمّك.. برأس أخنوخن.

– ها.. ها.. أنا نفسي لم أر سيلاً في الأحلام.

عمّ الصمت. أغارت ذبابة سمينة واستقرّت على ساق تميما العارية. طردتها برجلها الأخرى وأنصتت للسكون. من

الوادي انبعث ثغاء بعيد. رفعت رأسها نحو تازيديرت، فرأت في عينيها كآبة وهي تتابع الخلاء المغمور بالسراب، ثم رأت كيف انبثقت من عينيها الدموع.

انتصف الصيف فمرضت «تميما» بالحمّى. خرجت «تازيديرت» للرعي وحيدة. لجأت لمراتع الأودية الغربيّة لأنها أقرب وحواشيها غنية بالأشجار البرية الظليلة. استبدّت الشمس منذ الضُّحى ووعدت بيوم جهنّم. هنأت تازيديرت نفسها على اختيار المرعى. ولكنّ الجديان الشياطين لم تتركها تهنأ بالظل. ما إن تستقر تحت السدر أو تدسّ رأسها بين أوراق الرتم وتتهيأ لالتقاط نفس وقضم حبة تمر حتّى تكتشف أنّ الأشقياء قد تدفقوا في الوادي وغابوا عن البصر. تعيد التمر إلى الجراب وتنطلق خلفهم. لجأت عدة مرات إلى حيلة لئيمة تعلمتها من تميما: تقطع الوادي المتشعب وتتجه إلى الشرق أو إلى الغرب فتختصر المسافة لتلتقي بالجديان في المنعطف، ولكن تميما حذّرتها من المبالغة في استعمال هذه الحيلة لأنّ الذئب كثيراً ما يستغلّ الفرصة ويقطع الطريق على الجديان قبل أن تبلغ الناحية الأخرى من الوادي.

دقّ قلب تازيديرت بمجرّد أن تذكّرت الذئاب وسرعة هذه الوحوش في الفتك بفريستها. لم تر ذئباً و لم تسمع حتّى العواء. ولكنّ أساطير القبيلة وأفواه العقلاء لا تنطق إلاّ ببطولات هذا العدوّ. وتصوّرت هذا الوحش اللئيم وهو ينفرد بقطيع الجديان المسكينة في غيبتها ويتنقل بأنيابه المخيفة بين رقابها كما يفعل في الخرافات.

كفّت عن قطع الأودية وفضّلت المطاردة.

في كلّ مرّة تدرك فيها القطيع تجد جدياً واحداً يقود السباق ويجرّ خلفه بقية القطيع، جدي شقيّ لم يمر على ولادته شهر واحد، فطمته جارتهم غصباً وحرمته ليس من حليب الأم وحده ولكن من الأم نفسها. ربطتها إلى وتد في مدخل الخيمة وحرّمت على الجدي الاقتراب منها. قالت إنها تريد أن تنقذ بحليبها طفلها المعلول المصاب بفقدان الشهيّة. في الأيام الأولى لفصلهما لم يتركا أحداً ينام في كلّ البيوت القريبة. كانت تسارع إلى شدّ الجدي إلى وتد مع بقية القطيع، فيرفع عقيرته بالثغاء والشكوى، فتستجيب لشكواه أمّه المحبوسة بجوار الخباء. كان ثغاؤهما كالصوت والصدى. يصيح الجدي فترد عليه الأم بصيحة في الناحية الأخرى. وكان بثغائه الملحاح يثير حقد التيوس وخاصة المعيز فتنطحه بقسوة لتجبره على السكوت. وكثيراً ما استيقظت جدّتها على ضجيج هذا القمع، وسمعتها تتمتم بـ«لا حول اللّه» أو تسترسل في ترديد بعض التعاويذ أو الآيات. أمّا تميما اللعينة فقد أعلنت عن رأيها في موقف المرأة القاسية فقالت لها في المرعى : «سواء فرّقت بين المعزاة وابنها أم لم تفرّق فإنّ الولد سيموت. ها.. ها.. ها..». غضبت تازيديرت من هذا الكفر و لم تبادلها كلمة واحدة طوال ذلك اليوم. هذا الجدي هو قائد السباق. كلّما أدركته واعترضت طريقه يقف في مواجهتها في تحدّ، ينظر إليها بعينين شرستين كأنهما عينا إنسان ثم يحني رأسه ويحفر الأرض بحافره الأمامي في حركات

عصبية متكرّرة كأنه ينوي مهاجمتها فيتذكر أنه مازال مجرّداً من القرون فيصيح بصوت حاد رافعاً رأسه إلى السماء، ثمّ يثب جانباً وينطلق يتقافز فوق صخور الوادي كالغزال.. كالودّان.

في البداية كان سلوكه يضحكها. تضحك برغم التعب والغضب. ففي كلّ مرّة تدرك فيها القطيع وهي تجري وتلهث وتتصبب بالعرق، تكتشف أنّ الجدي اللعين على رأس الحملة. ولكن مع تكرار هذه النظرة الغاضبة الشرسة المجهولة، بدأت تحسّ بخوف غامض و.. قشعريرة كأنّ هذا الشقي ليس جدياً وإنما مخلوق يسكنه إنسان شرير. ليست نواياه العدوانية ورغبته المبكّرة في النطح سبب هذا الشعور ولكن تلك النظرة الوحشية الشيطانية الخفيّة.

عيناه لا تشبهان عيون الجديان الأخرى، تنطقان بشيء آخر لا يوحي بأنّه مجرّد غضب أو حقد.

ثمّ شعرت هي بالغضب والحقد. غضبت وحقدت لأنّها لم تستطع أن تتغذّى بالتمر أو تشرب من ماء الزمزمية أو تستلقي تحت الظل لالتقاط النفس. لعنت الجدي والشمس والواحات و... نفسها. لعنت نفسها أيضاً لأنّها لم تستطع مثل تميما أن تسيّس الجديان برغم مرور كلّ هذا العمر في الحمادة.

حاولت أن تكتم الغيظ فانبثقت الدموع. تناولت حجراً وركضت خلف القطيع. اجتازت الرؤوس الخلفية وواصلت الجري. دار في الوادي وانحرف يميناً فالتزمت الجانب الأيسر وركضت عند الحافة. أخيراً أدركت الجدي المشؤوم يتقافز في الهواء كالممسوس ولا يدع فرصة للبقية كي تهدأ وترتع. الجديان

لا تلتفت لكلأ أو لشجر مهما بلغ بها الجوع إذا اندسّ في وسطها جدي مغامر. هذا الجدي الشقي لا يهدأ حتّى يسلمها إلى الذئاب. تقول الخرافات.

وقفت في مواجهته، مبلّلة بالعرق. حلقها جف. فمها جفّ أيضاً. اقتربت خطوتين. حذّرها بعينيه الوحشيتين. أحنى رأسه، ولكنّه لم يحرّك حافره الأيمن. رفعت قبضتها في الهواء، وضربته بالحجر على رأسه وهي تصرخ صرخة حقد، ولكنّ الجدي الممسوس لم يتحرّك، و لم يبد أنّ الضربة آلمته. رفع نحوها عينين غاضبتين. التعبير المجهول ازدادِ فيهما وضوحاً وغموضاً. هل هو وعيد ؟

أحسّت بقشعريرة مجهولة.. قشعريرة كتلك التي يثيرها فحيح الحيّة.

تراجعت إلى الوراء، وانهارت تحت رتمة في عجز. تمنّت أن تنفرد به الذئاب. أضافته إلى الشمس، العدوّ الأوّل، ولعنته في سرّها.

تناولت الزمزمية، وشربت في جشع. سال الماء على صدرها، فتذكّرت السيول. سالت الدموع على وجنتيها.

– 5 –

في ضفة الوادي المقابلة ترتفع ربوة مقوّسة مثل السنام. سكبت الشمس فوقها عرفاً من اللهب فتسكع وتراقص واندلق على السفح فحرق الشجيرات وشقّ الأحجار فغرق الخلاء في السراب واللهب.

القيلولة.

هجعت في ظلّ الرتمة، و لم تشعر كيف سرقها النوم. أغفت لحظات فقط، ولكنها رأت حلماً: جمهرة النساء المتّشحات بالسواد تجمّعن في الخلاء ومشين في العراء حتّى حجبهن الأفق. شعرت بالقلق فجاءتها تميما ضاحكة وأخبرتها أنهنّ ذهبن لدفن الجدي الشقي. رفعت رأسها إلى أعلى كي تتمتم بشكر السماء فقرصتها عجيزتها. استمرّ الإحساس بالقلق. نفس القلق الذي أحسّته وهي تشاهد التجمّع المشبوه في العراء.

ثم تذكرت القطيع.

– 6 –

أضاعت أثر الجديان في نهايات الحمادة. العراء الفسيح أفضى إلى أرض صارمة في الغرب. الأودية والشعب العليا أدّت إلى جبال رمادية عارية، تفتح أفواهاً ظلماء موحشة.

وقفت فوق القمة، ورأت تحتها في الهاوية صقراً يفرد جناحين ثابتين ويحوم في دائرة محصورة داخل الطوق الجبلي القاسي، تنعكس خيوط الشمس الغاربة على جناحيه بين حين وآخر فيلمع ريشه ببريق مدهش.

جلست فوق الصخور السوداء المصهورة بالشمس الطاغية وشربت من الزمزمية. انتظمت أنفاسها وبدأت أطرافها

المشدودة تسترخي وتنعم بالخدر والسكون. تعلّقت بالقرص الأرجواني المعلق في الأفق عند نهاية الأودية السفلية. من موقعها السماوي، فوق القمة، تبدو الشجيرات البرية العطشى المتناثرة في الأودية السفلية، بائسة تعصر القلب. وبرغم هذا الشعور الكئيب الذي تثيره فإنّها ترسم تحت شعاعات الغروب الأرجوانية جمالاً حزيناً ممتعاً.

تذكّرت أساطير القبيلة حول التحوّل الذي تشهده هذه الأرض الرمادية القاسية عندما يرقّ قلب السماء وتحنّ على الصحراء بالسيول. تنفطر الأرض وتنشق الأحجار عن ألف نوع من النبات. تخضر الصحراء في بضعة أيام، وتتغطّى الأودية الجرداء بالأحراش، وتتفتّح زهور سحرية تصيب حدّة رائحتها الرعاة بالدوار. جدّتها كثيراً ما تتحدّث عن ربيع الحمادة كفردوس مفقود حرم اللّه منه أهل الصحراء عقاباً لهم على أعمالهم. تغمض عينيها وتتمايل برأسها يميناً ويساراً كالمجذوبة عندما تأتي على سيرة الترفاس. تتثنى على الأعشاب أيضاً، تانسميمت، أكرفال، تاناكفايت[1]، ولكن الوجد لا يستولي عليها إلاّ لّما يجيء ذكر ثمرة النعيم : الترفاس !

نسجت الخرافات عن النوع الأسود، شكله، حجمه، لونه، شذاه، وطعمه الأسطوري. ومن كثرة ما سمعت تازيديرت

(1) تانسميمت، أكرفال، تاناكفايت : نباتات صحراوية تنمو في الحمادة الحمراء.

هذه الأساطير أصبحت تجاري العجوز في طقوس الوجد. تترنح يميناً ويساراً مع نهاية كل حكاية. تتحسَّر لأنها لم تولد زمان السيول وتبكي في فراشها خفية حنيناً على الفردوس الضائع.

حظّها التعس شاء لها أن تولد سنوات الجدب والمجاعة واستبداد الشمس والغزاة. أصبح الحنين إلى السيل هاجسها المجهول، جنّتها المفقودة، أملها الوحيد. الصبايا يتعطّشن إلى يوم يدخلن فيه عرائس على عرسان متوجين بالعمامات الزرقاء، يتربعون فوق عروش الرمل بجوار العمود، وهي تتعطّش إلى يوم تتجهم فيه السماء وتطفئ القرص المستبد، تذرف دموع الغضب والرحمة على المرتفعات الشمالية لتغرق الصحراء بسيل يجرف الدنيا. وكلّما صرحت بأملها لـ«تميما» ضحكت وقالت إنها مجنونة. في رأيها أن لا شيء في الدنيا يستحق أن يُعشق غير الرجال. تميما حظها أفضل. عندما كانت هي تقيم في الواحات تمتعت تميما بمشاهدة بعض السحب المطيرة العابرة. وفي إحدى السنوات شاهدت خيطاً متعباً من سيل. ادّعت أن هذا حدث مرتين برغم أنها تشكّ في صدق تميما. ربما ساعد هذا الخيط الصغير المنهلك من الماء في إرواء عطشها. هي لا تتعطّش مثلها للسيل وإنما.. للرجال.

انطفأ القرص الأرجواني وبلعه الأفق، ولكنّ الصهد استمرّ يتصاعد من الأرض، والأحجار المشوية ظلّت تنفث البخار. الصقر المارد مازال يسبح في عتمات الهاوية. تازيديرت تجلس على الصخور الرمادية في المحراب الوحشي المهجور، تطلّ

من قمتها السماوية على الأودية المغمورة بالصمت والغموض، فتبدو في زحف الظلمات كجنيّة يافعة تحلم بالفردوس. لم تتذكّر حتّى تلك اللحظة جديانها المفقودة.

– 7 –

ليس الخوف من الموت هو الذي جعلها تعد بالنذر في تلك الرحلة وإنما الشوق.. الهاجس.. الحنين. التوق الأبدي إلى السيل المجهول.

العطش رفع الحجاب وجاءها بالوحي.

نفد الماء فتوسدت الزمزمية في وادٍ ضيق في طريق العودة. برغم الإعياء إلا أنها لم تنعس إلا في آخر الليل. سمعت عواء الذئاب وهمهمات الجن، ورأت الأشباح وهي تتسكّع في العراء تحت ضوء قمر شاحب. رأت الصقر المارد وهو ينقضّ في هجوم عمودي على الجدي الشقي في قاع الهاوية الظلماء.

استيقظت ونعست عشرين مرّة قبل أن تغمر الشمس الطاغية الصحراء بألسنة اللهب. واصلت الرحلة. بحثت عن الطريق إلى المضارب. الأرض الجبلية المفروشة بالصخور الرمادية ابتلعت أثرها كما ضيّعت آثار الجديان. ارتفع القرص القاسي بضعة أشبار فوق الأفق. توجهت نحوه بخطوات واثقة كأنها تتحدّاه وتذهب غازية لتأتي برأسها أو قررت أن تضع حدّاً لآلامها وقصدتها لتسلم له نفسها. لأنه مكتوب في معجم

الصحراء أن يسلّم كل من فقد الطريق إلى بيته أمره إلى الشمس المتجبرة، فتنجي من تشاء وتأخذ من تشاء. ما أكثر من نجا وما أكثر من تاه إلى الأبد ولم يعثر أهله حتّى على هيكله العظمي. سارت باتجاه قرص الشمس المشتعل حتّى الضُّحى.. حتّى القيلولة. احترق رأسها العارق وبدأ مخها يغلي. استقرّ القرص على عرشه السماوي ففقدت الاتجاه.

بدأت تتعثّر. سقطت ونهضت. تكرّر ذلك مرّات قبل أن تتوغل في غزو الشمس ويبدأ جلاّد الكائنات في الهجوم المضاد. أطلق في وجهها غيمة أخرى لحجب الرؤية. ولم يمض وقت طويل حتّى أعقبها بغيمة أخرى على العقل. هنا ركعت على ركبتيها وانتزعت التعاويذ الملفوفة على جيدها في عقد من المثلثات الجلدية باحثة عن الإبرة. الحرز مكوّن من ثلاث قطع علقتها الجدّة في رقبتها قبل أن تعرف الطفلة معنى الحياة والمستقبل والموت. قالت لها إنها اشترتها من عرّاف الواحة بثلاث معزات. الأولى تساعد في ترويض الجن، والثانية خاصّة بإحباط مكائد الإنس. أما الثالثة فهي لحماية العقل من الخبل، وهو مرض شائع في الصحراء، عانت منه القبائل المجاورة وهدد أنبل الرجال وأجمل النساء بأن يتحوّلوا جميعاً إلى دراويش.

الخوف من الدروشة جعل الجدّة تحرص على تحرير هذه التعويذة النفيسة وتدفع للعرّاف ثلاث معزات كاملة ثمناً لها برغم أن الحصن الأوّل والثاني يمكن مقايضتهما بجدي واحد.

عثرت على الإبرة. تناولتها بين إصبعيها المرتجفتين، وبدأت توخز ذراعها بقساوة وخزات سريعة متتالية. انكبت على الذراع لتمتص الدم. لم تحسّ بألم في أثناء الوخز، كما لم تحس بأنّ سائلاً تفصّد من الذراع. انهارت على الأرض القاسية وهي تلهث، ثم عادت فجلست وانهالت على ركبتها اليمنى بالوخزات. مدّت فمها ومصّت الركبة. لم تحسّ بطعم. ربما تبدّد الدم من الجسد كما تبخر الماء مع البخار والصهد. أفلتت الإبرة وحشت رأسها في التراب. مضغت الطين الملتهب الممزوج بالحصى فلم تحسّ بطعم أيضاً.

فجأة ومض رأسها بصفاء. وعدت بالنذر الجسيم في وميض هذا القبس الخاطف. ثم غابت مرة أخرى. استسلمت لزحف موجة جديدة من الظلمات.

- 8 -

التقطوها في قلب القيلولة.

مكثت في الغيبوبة ثلاثة أيام، تهذي وتثرثر وتتحدّث بكلمات مبهمة عن متناقضات لم تجد لها العجوز معنى. سهرت على رأسها الليالي الثلاث تقرأ التعاويذ وتتمتم بآية الكرسي. تغلي المراهم والأعشاب وتبدأ في مخض الحليب مع مطلع الفجر. العجائز أكثر رحمة بالصغار عندما يمرضون. انتهزت الفرصة وقررت أن تتدلّل.

في صباح اليوم الثالث كشفت عن رأسها وسألتها :
- لماذا خلق اللّه الصحراء صحراء ؟

لم تتوقف العجوز عن التمايل مع قربة الحليب يميناً ويساراً. رمقتها بفضول. ابتسمت قبل أن تجيب :
- لكي تكون مأوى لمن أراد أن يكون حرّا.

ابتسمت تازيديرت أيضاً. تنقلت ببصرها بين ألسنة اللهب في الموقد ووجه العجوز المصوص بوجنتيه الغائرتين. سألت بعد صمت :
- وهل أهل المدن عبيد ؟

أجابت بلا تردّد :
- طبعاً عبيد.
- وأهل الواحات ؟

هزت رأسها موافقة قبل أن تدعم موقفها باللغة :
- أيضاً عبيد. كل من رضي أن يعيش تحت رحمة عبد آخر فهو عبد، كل من نام تحت سقف أو أقام تحت جدار، كل من استقرّ في أرض.
- وسكان الأدغال ؟ هل سكان الغابات أيضاً عبيد ؟

هزّت رأسها بالإيجاب، فسألت تازيديرت :
- ولكنهم لا ينامون تحت السقوف ولا يقيمون تحت الجدران ؟
- هناك يعيشون تحت رحمة الخوف. كيف يكون حرّا من نام وهو يرتجف خوفاً من نمر أو ثعبان ؟

– ولكن في الصحراء يموت الإنسان أيضاً من الجدب.
– يموت وهو يعرف. الإنسان لابدّ أن يموت إذا أراد أن يكون حرّا.
– وما نفع الحرية في الصحراء إذا كان مكتوباً على جبين الإنسان أن يموت ؟
– وما نفع الحياة في العبودية ؟

استمرّت تتمايل في إيقاع منتظم مع قربتها. وجنتاها ازدادتا شحوباً وغوراً. على شفتيها رقص مشروع ابتسامة كئيبة.

في المساء زارتها تميما فسألتها عن الجدي. حدّقت في وجهها طويلاً بعينيها الضاحكتين قبل أن تنكس رأسها وتتكلّم.
– وماذا تتوقعين ؟ ليس وحده الذي ضاع. الذئاب قضت على نصف الجديان قبل أن يدركها الرعاة.

ثم اختلست نحوها نظرة خبيثة وقالت بنغمة ذات معنى:
– طفل الجارة المعلول أيضاً مات !

– 9 –

كبرت العذارى.

لم يتأخّر فرسان القبيلة فتخاطفوهن. تميما بالطبع فازت في السباق فكانت أوّل من دخل على عريس.

فازت في المباراة الثانية أيضاً وأنجبت ثلاثة أولاد. تجيء لزيارة تازيديرت كثيراً لتروي لها الأساطير عن مملكة الزواج. تجرّ

أطفالها وتلوّح الأصغر في الهواء. ثم تتلقفه بمهارة أم حقيقية وتردّد بصدق :
– لم أندم كالكثيرات. مازلت أصرّ أن الحياة هي الرجل. لم تعش امرأة لم تذق طعماً لرجل. لن أهنأ حتّى أراك بين أحضان أنبلهم. القبيلة لم تعدم الفرسان.

تتعمّد تازيديرت أن تستفزها بالدعابة القديمة :
– ليس قبل أن تسيل الصحراء.

في إحدى الزيارات ملّت تميما الدعابة فصرخت في وجهها :
– السيل.. السيل. وإذا لم تسل الصحراء ؟ هل تضيعين حياتك في انتظار المجهول ؟

كانتا جالستين في ظلّ العشية. تميما تخلط الشاي الأخضر. أخذت رشفة لاختبار نسبة السكر ثم أضافت بلغة العجائز الحكيمات :
– النساء كالزهور، يتفتحن بسرعة ويذبلن بنفس السرعة. الرجال فقط لا عمر لهم، محظوظون. الرجل دائماً فتى يافع. كم أحسدهم يا ربي !

ثم التفتت إليها واستمرّت في الحملة :
– وأنت تنتظرين السيل. ستذبلين قبل أن يأتي.
– سوف يأتي. سترين. لن أستسيغ رجلاً. لن أستسيغ شيئاً.

تمتمت تميما :

– ربنا يشفيك ! صبية ترفض العرسان تكفر بنعمة ربي. كم تقدم لك حتّى الآن ؟

بدأت تحصيهم على أصابعها دون أن تنتظر جوابها. استنتجت :

– سبعة. سبعة من قبيلتنا. أمّي قالت إنهم بعثوا يخطبونك من القبائل البعيدة. من إيفوغاس.

أغاظتها تازيديرت :

– رفضتهم أيضاً جميعاً.

ثم كتمت ضحكة. تنهدت تميما في غضب. انحنت فوق عالة الشاي.

عادت العجوز من زيارة العجائز في المضارب المجاورة. أقبلت بخطوات حيوية برغم ظهرها الذي ازداد في السنوات الأخيرة تقوّساً وانحناء. وجنتاها الشاحبتان أيضاً ازدادتا بروزاً. أقبلت تجرّ لحافها الأسود وتقاوم موجات الريح الشمالية المتقطعة. تكوّمت بجوار تميما وقررت أن تساهم بنصيبها في الحملة. قدمت لها تميما كأساً متوجة بالرغوة. رشفت الطربوش المنفوش وقالت :

– ينصر دينك يا بنيتي. قولي لها باللّه لا أحد في قبيلتنا يعيش عمر نوح. أريد أن أرى أولادها قبل أن أموت. أليس من حقي أن أفرح بمداعبة ابن الحفيدة مثل بقية العجائز ؟ أنتن صغيرات، لا تعرفن أنّ الأبهى من الولد هو الحفيد. وليس أبهى من الحفيد إلا

ولد الحفيد. ما أسعد عجوز عاشت حتّى داعبت ولد الحفيدة بين يديها !

تنهدت ورشفت الشاي. أكملت :

– وتازيديرت تبخل عليّ بهذه النعمة. تريد أن تحرمني. أنا تعبت. ساعديني يا تميما. أعينيني باللّه.

هبّت تازيديرت وجرتهما إلى ساحة أخرى. لم تشد اهتمامها إلى الطقس ولكن إلى الصحراء. قالت لصديقتها :

– الجدّة تعيد وتكرر : كل من أقام تحت سقف أو استقرّ في أرض هو عبد. تقول أن لا حرية بدون صحراء. لا حرية إلا لمهاجر في صحراء اللّه الواسعة. هل سمعت برأي كهذا من قبل ؟

في تلك اللحظة فكّرت في شيء آخر. كتمت خاطراً غامضاً كشف لها دائماً عن معادلة وحشيّة تقول: «الحرية هي الصحراء. والصحراء هي الجدب. الموت. إذن الحرية هي الموت». وكلّما انشق قلبها عن الخاطر الغامض تذكّرت السيل المنتظر واستولت عليها الرجفة والنشوة. مع الوقت أصبح الخاطر في القلب مثل الوعد الجسيم، سرّها.

- 10 -

العجوز أيضاً زيّنت لها الفرسان الأغراب عندما عجزت عن إقناعها بقبول أبناء القبيلة. لم تصف أبناء إيفوغاس بالغرباء وذكرتها بأمّها الفوغاسيّة وقالت إنهم أبناء خالاتها، والفتاة التي تفوز بابن الخالة محظوظة في الزواج. ولما لاحظت فتورها انبرت

تسرد عليها سيراً شيّقة عن بطولات وهمية قام بها الفرسان الأغراب. كانت تختار الليالي القمراء فتخرج إلى العراء وتجلس أمام البيت، في الناحية الأخرى المجاورة لمربط الأغنام، تدسّ قدميها ويديها في التراب البارد وتبدأ في سرد حكاياتها عن الأبطال. فلم تفتها قبيلة ولا ملّة في طول الصحراء الكبرى وعرضها إلاّ ووجدت لفرسانها الشجعان ملحمة بطولية تستحق الإشارة والتمجيد. ولابدّ أن تدسّ قصيدة هنا وأغنية شجية هناك حتّى أثارت دهشة تازيديرت التي لم تظن يوماً أنّ الجدّة تحفظ كل هذا العدد من قصائد الشعر. ثم تختتم الرّواية قائلة إنها تلقت خبراً من أحد أبناء القبيلة تقدّم يطلب يدها لابنه البطل. وكثيراً ما خانتها ذاكرتها ونسيت أنها تسرد قصصاً واقعية عن بطولات أبناء القبائل المرشحين للزواج فتنهمك في سرد أساطير سبق لها أن قصّتها عليها في الصغر كمجرد خرافات. وكم من مرّة فشلت تازيديرت في خنق الضحك فانطلقت تقهقه بوقاحة فتضطر الجدّة إلى أن تزمّ شفتيها وتتوقف عن السرد لتؤجل حملتها إلى الغد.

في ليلة فقدت تازيديرت السيطرة على نفسها فانطلقت بضحكة وقحة استنكاراً لهفوة تالية ارتكبتها العجوز فجاءت الضحكة بردّة فعل قاسية. سكتت الجدّة فجأة، أشاحت بوجهها ناحية الأغنام ونزعت يديها المدفونتين في الرمل الليلي البارد. سحبت لحافها الأسود على وجهها فبدت في عتمة القمر المبكّر مثل شبح بائس. قالت بصوت كأنه يخرج من أعماق بئر: «أردت أن أرى..» لم تكمل الجملة. بدا جسدها الصغير المكوّم

في العراء أكثر ضآلة. قالت تازيديرت بقسوة: «وأنا أردت أن أرى السيل. إحك عن السيول».

هي نفسها لم تفهم سبب تلك القساوة، فتوقفت العجوز عن سرد البطولات، وتردّدت إلى بيت العرّافة، ثم قطعت زياراتها للعرّافة وتردّدت إلى ربوة كئيبة ترتفع في العراء الممتد جنوب النجع اختلق لها الأطفال اسم «صلعة الدرويش»، ولا يعرف أحد مدى شبهها بصلعة الدرويش، ولا يعرف أحد أيضاً عما إذا كان صلع الدراويش تختلف عن غيرها من صلع عقلاء القبيلة حتّى يضطر الأولاد الأشقياء أن يعثروا لها على هذا الاسم المدهش.

وجد الأهالي أنفسهم يردّدون الاسم، ووجدت العجوز نفسها مضطرة أن تقضي فوق الربوة عدة ليالي ظلماء بعد أن خيّبت العرافة ظنّها في وجود ما يمكن أن يشير إلى اقتراب الخلاص من النكبة.

استطاعت العجوز أن تختلس عدة زيارات للربوة قبل أن تكتشف تازيديرت غيابها. نهضت في ليلة لتقضي حاجتها في العراء فرأت شبحاً هزيلاً مقوّساً يتسكّع في الخلاء. ظنّت أنه من أشباح جبل الحساونة فأشاحت عنه بوجهها وقرأت آية الكرسي ولكنّ الشبح لم يختف بل اقترب ببطء وزحف نحوها بوقاحة. توقفت وانتظرت أن تتلقى صفعة أو بصقة أو حركة استفزازية مشابهة. ولكنّ الشبح لم يلتفت واستمرّ في زحفه حتّى توقف في مدخل الخباء. عادت إلى البيت فوجدته ينتظرها هناك. في الظلمة

عرفت فيه عجوزها. سألتها عن سبب هيامها بالخلاء المسكون في مثل هذا الوقت ولكنّ الجدّة لم ترد. سمعتها تتمتم بالتعاويذ وتدخل تحت لحافها الأسود في زاوية الخباء بجوار قربة الماء.

في الليلة التالية رابطت لها واقتفت أثرها. رأت كيف تتمسّح المسكينة بـ«أدبني»[1] مستدير مرتفع الفوهة. قبعت تازيديرت في السفح وراقبت جدّتها وهي تتوسّد القبر القديم وتغفو. أدهشها أنها لم تكتشف وجود «أدبني» فوق «صلعة الدرويش» قبل أن تضبط عليه العجوز متلبسة بممارسة الطقوس. ونسيت أنّ أهل الصحراء لن يطيقوا مقاماً لا يجاورون فيه «أدبني». يقولون منْ لم يجاور قبور الأوّلين عاش أعمى، عاش غافلاً عن مؤامرات القدر، وعرض حياته لأكبر خطر. في الصباح ذهبت تازيديرت لاستشارة الجارة الزنجية في شأن الطقوس. قالت :

– كنت أظن أن «أدبني» ينبئ عن الغائب فقط.

ضحكت الزنجية الحكيمة وكشفت عن فم خالٍ من الأسنان. قالت :

– وهل غاب في الصحراء شيء كما غاب المطر ؟

– هل ينبئ القبر عن السيول ؟

– من يملك أن ينبئ عن السيول غيره ؟

(1) أدبني : قبر قديم يستخدمه أهل الصحراء لقراءة المستقبل وتسقط أخبار الغائبين (راجع هيرودوت «التاريخ»).

ثم بدأت تحضر الشاي وتحثّها على أن تمنح جسدها للرجل قبل أن يذبل ويترهل ويأكله الدود. قالت إنّ اللّه وهب جمال الجسد للمرأة لا كي تحتفظ به لنفسها ولكن كي تعطيه للرجل. وعندما لاحظت فتورها طمأنتها :

– السيل قادم. أين يمكنه أن يطير ؟ هل تظنينه معشوقك وحدك ؟ الصحراء أكثر شوقاً منك. أرضها أكثر لهفة. وهي تعاني من الهجر أكثر منك. اصبري. أين يمكنه أن يطير ؟

بعد أيام، قالت لها العجوز :

– هل تعدينني أنك ستختارين عريساً إذا جاء المطر بالسيل ؟

خفق قلبها. سمعت دقاته بأذنيها. تذكرت وعدها الجسيم. تذكرت المعادلة الوحشية همست :

– أعدك.

قالت الجدّة وهي تتنهّد بعمق :

– كنت أحلم أن أسمع هذا الوعد قبل أن أموت.

وليس غريباً أن تموت بعد أيام لأنّه لا يوجد من هو أكثر قدرة على معرفة نوايا القدر مثل عجائز الصحراء.

– 11 –

رق.. رق.. رق.. لق.. لق.. لق...

راق لها التقليد الأخير. وجدت أنّ الـ«لق لق لق» نغمة أقرب للغة الماء، أشبه بحواره الخفي مع الأحجار والأشجار. ما أشهى اللقلقة ! ما أشهى الماء !

تخلّصت من نعليها وسارت في المجرى، في الاتجاه المضادّ للماء، بقدمين حافيتين. تتوقف وتنصت للقلقة. تقلّد الصوت الغامض، تتأمّل السائل العجيب، تنحني، تحاول أن تتبيّن لوناً، أن تشتمّ رائحة، أن تتذوّق طعماً. لا لون، لا طعم، لا رائحة. وبرغم ذلك أطفأ لهيب الشمس وأحيا الأرض المقتولة منذ ألف عام. لا يشبه شيئاً برغم أنه كل شيء. أبسط شيء برغم أنه الحياة نفسها. ما هي الحياة بدون ماء يسيل ؟

تلذّذت بمداعباته لقدميها. ضحكت لشقاوة ملاطفاته. حاولت أن تقرأ سرّه في لغته المبهمة. ازداد اللغز غموضاً. ازداد قلبها عشقاً وتعلّقاً.

الوادي يشقّ النجع شطرين. تجمّع الأهالي على كلا الجانبين. ازدادت الجمهرة كثافة وعلت أصواتهم بالنداءات المتبادلة. ثم انطلقت زغرودة حامية كالرعد. تلاها بكاء أطفال وثغاء الماعز.

من الشمال هبّت موجات باردة. نسيم مشبع بالمطر، شرعت له صدرها وتمتعت لأول مرة. رفعت رأسها فرأت معجزة أخرى. قرص الشمس انطفأ نهائيّا. احتجبت الشمس خلف سحب كثيفة تتحرّك بجلال وبطء وتسبح نحو الجنوب. ثم.. ثم.. اشتعل الأفق بأسلاك من نار. لمعت في رمشة عين وانطفأت كما ومضت. البرق. هذا هو البرق. ولكنها لم تسمع قصف الرعد. يقال إنّ وميض البروق مرتبط بقصف الرعد دائماً. تذكّرت قولاً آخر لجدّتها : «إذا رأيت برقاً و لم تسمعي رعداً فهذا أحسن فأل». لم تسمع الرعد. سمعت منادياً يصيح :

– هييه – هييه... اخرجوا من الوادي، مستوى الماء سوف يرتفع. السيل قادم. احذروا السيل !

ضحكت. خفق قلبها بالبهجة. هل هذه هي السعادة ؟ ركعت في الماء. داعب السائل المسحور ركبتيها، حفر تحتهما، غابتا في التراب. تسلّل تحت ثوبها. دغدغ فخذها الأيمن. ثم تطاول ومدّ يده إلى الأيسر أيضاً. ضحكت وانحنت فسمعت عربدة، سباقاً، اندفاعاً. لمست الماء بشفتيها الحنونتين المتعطّشتين كالأرض منذ ألف عام. تركت السائل الشقي يعبث بالشفتين ويداعبهما في قبلة طويلة.. طويلة، تحمل شوق ألف عام. ثم نزعت شفتيها وأحست بالدوار. فتحت عينيها فسقطت الدموع وامتزجت بالماء. غمرت قلبها دفقة أخرى من البهجة. وتقاطرت من مقلتيها قطرات جديدة من الدموع.

ارتفع مستوى الماء.

ازداد التيار عنفاً واندفاعاً. تعكّر صفو الماء. جرّ القش والجل والروث والطين. تشبثت بالأرض فحفر تحتها ونزعها بدهاء. بدأ يلتف حولها ويضمّها إلى صدره. غمر نصفها السفلي.

أحنت رأسها وبدأت تشرب. شربت طويلاً. الماء عكر. رفعت رأسها. تقيأت الجل والطين وروث المعيز. لم ترتو، بل ازداد عطشها وحشية. اندلعت نار مجهولة وأحرقت جوفها بعطش أقسى. انحنت فوق الماء العكر وعادت تشرب بشراهة.

تقيأته مرة أخرى ممزوجاً بالروث والطين وأعواد القش.

حاول أن يصرعها ويطرحها أرضاً، فتشبثت بأعراف رتمة. استعادت توازنها ووقفت على قدميها. حفر الأرض محاولاً أن يسقطها من جديد. ضحكت. عادت تجثو على ركبتيها. قلبها يتأجج حنيناً وعطشاً.

بدأت تنزع ملابسها.

تحرّرت من اللحاف. التقطه من يديها وجرفه التيار. خيّل إليها أن الماء ازداد شراسة وعنفاً. مزقت ثوبها الفضفاض. مزقته من جزئه الملتف حول الرقبة وشقته إلى قطعتين كبيرتين. تخلّص من القطعة اليمنى. فتلقفها وابتلعها حالاً. تابعتها وهي تغيب في اليم الهائج. ثم أطعمته القطعة الثانية ووقفت عارية تماماً. تستعين بالرتمة بين الحين والآخر لحفظ توازنها. دمدم الرعد. سمعته بوضوح. دمدمة واعدة، مهيبة غطت على ضجة السيل.

ركعت فاحتضنها. هجم على الجسد البكر العاري، وغمره بحنانه. ألقت برأسها إلى الوراء فبلغ جيدها وأغرق جدائل شعرها. أرخت قبضتها وتخلّت عن الرتمة فاحتواها وسحبها. أحسّت بنفسها خفيفة كريشة طائرة. الماء الناعم يطوق جسدها البكر بحنانه. انسابت بحرية مع التيار الهادر الذي انطلق يجرف القش والروث، يحرث الأرض البتول بعنف مارد عاشق يفرّ بمعشوقته الحسناء إلى المجهول.

طوكيو – موسكو

1989

خروج

– 1 –

ما أن يهبّ الريح، ويشتدّ القبلي، حتّى يصيب الرتمة مسّ. تتململ في البداية بحياء العذارى، تتمايل بارتياب. تستقبل الأنفاس الحارّة باحتراس، ثم تنتشي وتستبدّ بها روح الوجد. يستيقظ فيها مارد خفيّ. تولول. تنوح. تتمرّغ في تراب الوادي. تحرث الأرض بجدائل شعرها المضفور بالزهيرات البيضاء. تهرع نحو الرسول بظمأ البتول، تراقص الإله الخفيّ بشوق عذراء، وجنون عاشقة جنيّة. يتحوّل النحيب الحزين إلى لحن شجيّ. يستقيم النّغم. ينتظم اللّحن في أغنية شجن فاجعة.

– 2 –

يزداد اللّحن صفاء. ينسجم النغم مع موّال الأنفاس الجنوبية. يتراجع النُّواح. تختفي الولولة. تتوقّف الرتمة عن

جنونها. ولكنّ صوت الفجيعة يتمادى في اللحن ويستولي على الأغنية. فتصيخ أشجار الوادي السمع. تلتقط السؤال، وتعرف الحنين، وتفهم التوسّل، وتدرك الرسالة المخفاة في الأغنية. غمغمت باللحن. ردّدت الأغنية. ولكنّ الأشجار الأخرى لم تتجاسر كالرتمة، ولم تحمّل الريح وصيّتها الخفيّة إلى المعشوق المجهول.

- 3 -

مضى الريح وعبر القبلي. ولكنّ الرتمة لم تكفّ عن الغناء. ظلّت تتمايل في إعياء. تجرّ على التراب الرامض ضفائر منمنمة بزهيرات صغيرة، نقيّة، مثل حبّات الندى. تسدل الضفائر على قدّها النّبيل.. و.. تغنّي. تختطف اللّحن من فم السكون كما اختطفت رسالة المعشوق من فم الريح، وتنسج من الأصوات العصيّة نشيداً شجنيّا شجيّا. ولكن الريح ذهبت، ولم تجد رسولاً يطير برسالتها إلى المعشوق.

- 4 -

غنّت طويلاً. وبكت طويلاً. وفي يوم رأت أن تجرّب وترفع رأسها إلى أعلى. لملمت جدائلها المطرّزة بالزهور فرأت الجبل لأوّل مرّة. كان عالياً ومكابراً وقريباً من السماء. أعجبتها قامته الماردة، ورأته بهيّا وقريباً من السماء. فلماذا لا تكتشف

سرّه، وترى ما يراه الجبل المارد ؟ خالفت شجرة الرّتم ناموس الصحراء، وتمرّدت على الحضيض. زحفت وخرجت من الوادي، تسلّقت السفح الموجع. اعترضتها حجارة لها مخالب الوحوش، ولكنّها عاندت. تخلّت عنها الأرض وحرمتها النداوة، ولكنّها قاومت الظمأ، وصبرت على غول العطش. عصف بها القبلي فغنّت له أغنية الفجيعة. تراجع القبلي عن محاربتها وسبقها إلى شعفة الجبل. أعجبه عنادها فرتّب لها على الشعفة فراشاً ناعماً منسوجاً من حبّات الرمل. تشبّهت بالطّلح. انفصلت عن حضيض الأسافل. ورفعت رأسها، رفعت رأسها ونصبت قدّها الخجول إلى أعلى. تمدّدت في الفضاء. تمدّدت وتمدّدت حتّى غابت في فراغ السماء. أدركت السرّ. عرفت لماذا يبدو الجبل مهيباً، ومكابراً وبهيّا.

عزفت بجدائل شعرها لحناً، وغنّت أغنيتها القديمة. اشتدّت زرقة السماء. وارتفع الجبل قامة أخرى. مضت تغنّي، مضى الجبل يرتفع مع استمرار الأغنية. وكلّما ارتفع الجبل كلّما ازدادت السماء زرقة وبهاءً واتّساعاً.

- 5 -

عبر العابرون. نشطت القوافل. جاء الزهّاد والعُبّاد والباحثون عن الواحة الضائعة. استقرّوا في الوديان. رفعوا

رؤوساً إلى السماء ليتوسّلوا الإلهام. رأوا على شعفة الجبل شجرة رتم وحيدة مثل الجبل، مكابرة مثل الجبل، تجاور السماء مثل الجبل. صعدوا الجبل ليستظلّوا بظلّها، تحسّسوا قوامها الممدود، قطفوا زهورها وصنعوا منها بخوراً. تمسحوا بجدائلها وبكوا طويلاً.

صارت الشجرة الوحيدة، المعتزلة، المتشبّثة بهامة الجبل العاري، علامة تهتدي بها القوافل، وحرماً تنحر له القبائل القرابين، ووليّا تنذر له النذور.

تون (الإلب السويسري)
يوليو 1993 **م**

الطّائر المقدّس
أو (شجرة الرّتم)

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.
صدق الله العظيم.

[سورة الأعراف، الآيات من **19 - 22**]

«فرأت المرأة أنّ الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأنّ الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان».

(الكتاب المقدّس، العهد القديم
«سفر التكوين» الإصحاح الثالث)

بعد شتاء صارم وأمطار غزيرة هجم الربيع مبكّراً هذا العام.

هدأت الرياح الشمالية الباردة واستقرّت الشمس في قلب السماء أياماً متتالية، فتنفّست الصحراء بالجمال والدفء والربيع. بدأ الاخضرار يغمر الأعشاب الشاحبة المنتشرة في الأودية الصغيرة المنحدرة من الروابي الجبلية القاحلة، فجاءت الطيور الصغيرة والكبيرة، البيضاء والملوّنة، وملأت الأودية السفلية الكبيرة حيث تتجمّع أمطار الشتاء، بالغناء.

ولم يمرّ أسبوع آخر حتّى ازدهرت الأعشاب والأشجار البرية. ازدهرت حتّى أشجار الرتم التي تكتظُّ بها الأودية والسهول المجاورة، فتهيّأ أهالي الصحراء للبحث عن الأرانب البرية والغزلان والكمأ والحجل.

كان ميلود يدسُّ رأسه بين أغصان الرتم يستنشق عبير أزهارها الحادّة العبقة عندما نادته غزالة :

– ميلود، انظر ! انظر !

التفت ميلود فرأى غزالة وهي تهبط السفح نحو الوادي تهشُّ أغنامها التي اندفعت نحو الوادي الأخضر، فاختلطت بأغنامه مكوِّنة قطيعاً كبيراً. نظر إلى حيث تشير بإصبعها ولكنّه لم يبصر شيئاً.

عادت تقول :

– انظر إلى هناك، فوق الشجرة، يا له من طائر جميل ! استقرَّ فوق شجرة سدر شائكة هائلة وسط غابة الرتم، طائر جميل بالفعل !

أبيض ناصع، ضخم مقارنة مع طيور الصحراء، ذو منقار طويل أقنى.

توقفت الطفلة إلى جواره وقالت من بين أنفاسها المتلاحقة :

– لم أر طائراً مثل هذا من قبل.

قال ميلود متأمّلاً وهو يتابع الطائر ببصره :

– إنه الطائر المقدّس.. الطائر الأبيض المقدّس. لقد حدّثتني أمي عنه كثيراً في قصصها. إنه يظهر مرّة واحدة في العمر للإنسان، ويهاجر دائماً وحيداً.

ظلّ يتأمّل الطائر مأخوذاً و لم يلحظ كيف التقطت غزالة حجراً ورمته في اتجاه الطائر، الذي رفرف بجناحيه الكبيرين، وحلَّق فوق الوادي الذي يضجُّ بحوافر القطيع وتناطح التيوس وثغاء الجديان.

قال ميلود غاضباً وهو يجذبها من طرف جلبابها :

– لماذا فعلتِ ذلك ؟ هذا حرام. إنه طائر مقدّس.

– مَنْ قال إنه مقدّس ؟ أمي لم تخبرني بذلك.

– أنت شيطانة !

– وأنت جبان..

ركض ميلود إلى أقرب ربوة ليتابع مشاهدة الطائر المقدّس الذي اختفى خلف المرتفعات.

ولكنّ الطائر غاب عن الأنظار. مَكَث فوق الربوة لحظات يحدِّق في الأفق والفراغ ثمّ يئس وعاد إلى الوادي. بحث عن غزالة في غابة الرتم والأعشاب الكثيفة، حتّى رآها مستلقية على ظهرها تحت رتمة تزدحم الزهور على أغصانها الرقيقة الطويلة، وقد انحسر طرف جلبابها عن ساقيها، تتسلّى بمراقبة معزاة تترنَّح أمامها !

وقف فوق رأسها وقال بغضب :

– لماذا طردت طائر الجنّة المقدّس ؟ سوف يعاقبك اللّه على ذلك.

رمقته بنظرة بطيئة غائبة، ثم عادت ترقب المعزاة وهي تترنّح وتتعثّر وتسقط ثم تقوم على ساقيها وتتقدّم بضع خطوات متعثّرة أخرى فتسقط من جديد.

جلس بجوارها وشرع يرقب المعزاة.

بعد لحظات تساءلت وهي مازالت مستلقية على ظهرها وساقاها بارزان حتّى الفخذين :

– أتعرف ما بها ؟

– لا.

– لقد أكلت أوراق الرتم.

– آه.. مسكينة. أوراق الرتم قاتلة. أمي قالت ذلك.

صمت لحظات ثم سأل بإشفاق :

– هل ستموت ؟

– لا .

– ولكنّ أوراق الرتم قاتلة.

– ليست قاتلة.

– كيف عرفت ؟

– لأنّي جرّبتها.

– كذّابة !

– بل جرّبتها وسأجرّبها الآن أمامك.

– لا. لا تقتربي من الرتم، إنها شجرة لا تؤكل، حرام، أوراقها قاتلة.. مسمومة ! أمي تقول ذلك دائماً.

نهضت واقتطفت الأغصان الطويلة المغطاة بزهور بيضاء حادة الرائحة، وقالت وهي تلوكها :

– أمي تقول، أمي قالت. أنت لا تعرف إلاّ ما قالته أمّك. أنا أصغر منك وأعرف أكثر منك.

قال باستنكار وهو يراقبها تمضغ أوراق الرتم :

– كذّابة. عمري أحد عشر عاماً فقط.

– وأنا عشرة.

– كذّابة !

– اسأل أمّي.

استمرّت تلوك الرتم وهي تنظر إليه وتبتسم في تحدّ. قالت ضاحكة :

– أتعرف بماذا أشعر الآن ؟

ظلّ يتأمّلها بفضول و لم يجب.

– أشعر أني خفيفة كالريشة، أستطيع أن أحلّق في الفضاء كالطيور، والسماء قريبة جدّاً من الأرض.. و.. ملوّنة.. كلّ شيء ملوّن ومزركش وجميل.. حتّى أنت !

أعقبت ذلك بضحكة طويلة رنّانة، ثم قفزت بين الأعشاب ترقص وتركض على رجل واحدة فتسقط مرة، ثم تنهض لتحاول من جديد. قال وهو يتابعها بذهول :

– أنتِ الآن كالمعزاة !

أجابته بضحكة هازئة، فأضاف :

– .. وسوف تموتين كالمعزاة !

علا ضحكها وهي تقول بمرح :

– لن أموت. سوف ترى !

استمرّت تركض وترقص وتغنّي ثم اقتربت منه وقالت في إصرار:

– جرِّب، لماذا لا تجرّب ؟

اقتطفت مجموعة من الأوراق الخضراء وقدَّمتها له. تراجع خطوتين وقال بهلع :

– لا. أخاف.

– ممّ تخاف؟ لقد رأيت بنفسك أنني لم أمت. أنا سعيدة وفرحة. ألا تريد أن ترى كلّ شيء ملوّناً زاهياً وجميلاً كما.. كما في الحلم. ابتلع ريقه بصعوبة وتمتم:

– أخاف.. إنني.. أخا.. ف.

تقدّمت منه خطوتين ومدّت له بأوراق الرتم وفي عينيها تصميم وعناد:

– لا تخفْ. هيّا.. سوف نحلم معاً، ونرقص معاً ونرى الأشياء الملوّنة.

تراجع خطواتٍ، تقدّمت خطوات، و.. دسّت الأوراق الخضراء المطرّزة بالزهور الصغيرة البيضاء في فمه.

مرّ بعض الوقت قبل أن يشعر بالخدر يتسلّل إلى رأسه، يسلب إرادته، ويعطّل عقله.. خدر لذيذ يزحف ببطء حتّى وجد نفسه غارقاً في الحلم، وبدأ وزن جسمه يخفّ حتّى شعر أنه رشيق كالعصفور فأيقن أنه في الجنة فانتابته نوبة من الضحك.

ضحكت معه أيضاً، وطارا معاً يتقافزان بين الأعشاب كفراشتين، يرقصان.. يرفعان عقيرتيهما بالغناء.. ثمّ سقطا فوق النباتات البرية الكثيفة يلهثان. مرّت لحظات قبل أن تقترب منه غزالة وتشرع في فكّ أزرار قميصه ثم سرواله. لم يدرك لماذا تفعل ذلك و لم يقاومها. نَزعت جلبابها فرأى جسمها عارياً.. زحفت نحوه وأطبقت على فمه بشفتيها، ثمّ وجد نفسه يعتلي جسمها الجميل العاري. لم يفكّر في شيء. شعر فقط أنه موجود

في الخيال، وأنّ الحلم اللذيذ قد ابتعد به عن الأرض مسافات طويلة جدّا. إنه الآن في الجنّة الموعودة التي حدّثته أمه عنها و لم يتصوّرها، وتمنّى أن يستمرّ هذا الحال إلى الأبد.

استمرّ ميلود يمارس هذا «الحلم» مع غزالة طوال الأيام التالية. يصحو مبكراً، يغسل وجهه ويهرع إلى الأغنام ليهشّها إلى السهول المجاورة دون أن يتناول إفطاره المعتاد حتّى دُهشت الأم. يجلس هناك بين الأعشاب ينتظر قدوم غزالة مع قطيعها. يقطفان أوراق الرتم، يرقصان، ويغنيان ويضحكان، ويمارسان الحلم والغيبوبة والخيال. حتّى جاء ذلك اليوم الذي ضبطتهما فيه النسوة فجأة.

كانا قد نزعا ملابسهما ورقد فوقها، و لم تمر لحظات حتّى انتفض جسمها تحته بعنف، نهض فوجد نفسه مع النسوة وجهاً لوجه. عرف فيهنّ وجه أمه التي وقفت بذهول وقد نزعت المفاجأة لسانها.

انتهز الفرصة فتناول ملابسه وهَرَع يجري حتّى توارى خلف الربوة المطلّة على الوادي الأخضر.

لم يجروْ على العودة إلى لبيت حتّى عندما هبط المساء. التجأ إلى شجرة رتم، حفر تحتها حفرة عميقة ونام وسطها طوال الليل. كان نوماً مزعجاً متقطّعاً تتخلّله رؤى الذئاب والأفاعي. وفي الفجر لسعه برد الصحراء القاري فعاد إلى البيت، وتسلّل داخل فراشه.

في الصباح لم تبادله أمه كلمة واحدة. ألقى بتحية الصباح فلم ترد. استمرّت تمخض قربة الحليب بين يديها وترمقه بطرف عينها خلسة بنظرة استنكار.

وعندما شرب الشاي ونهض يجمع القطيع قامت وقالت بوعيد :
– انتظر حتّى يعود أبوك، سوف أخبره بكلّ شيء.

هو على يقين من أنه لن يفلت من العقاب، ولكنه انتظر غزالة في المراعي. جلس فوق الربوة يرقب القطيع في قلب الوادي، يصغي لشقشقة الطيور وطنين النحل، يحلم بالسعادة والخيال وغزالة ولكنّه لم يقترب من الرتم. انتظر حتّى المغيب ولكنّ غزالة لم تأتِ. خاف ألاّ يتكرّر ذلك الحلم العجيب مع غزالة، فذهب إلى البيت والألم يعتصر قلبه.

عاد الوالد من رحلته إلى تشاد فأخبرته الأم. جلب له حلّة مزركشة وحذاء من المطاط. وفي الصباح تناول السوط من جرابه وقال لميلود بهدوء :
– الآن سوف تنال العقاب، أنت تعرف ماذا فعلت ؟

قال ميلود باستسلام :
– نعم.

تناول حبلاً طويلاً ثم شَرَع يوثق ميلود إلى عمود الخيمة المركزي، وتناول السوط وبدأ يهوي به على جسد الطفل الذي لم تمنعه لسعات السوط من أن يعلن :
– ولكنني.. ولكنني أريد أن أتزوّجها.

توقف الأب لحظة ذاهلاً. همهم :
– تتزوّجها يا زنديق ! ألا تستحي ؟!

وهوى بالسوط على جسد الطفل بعنف أكبر.

استمرّ الطفل يردّد :
– أحبها، سأتزوّجها !.. سأتزوّجها !

أثار ذلك الأب فازداد شراسة وازدادت ضرباته ضراوة ووحشية، حتّى بدأ الدم ينبثق من ظهر الطفل.

لحظتها تدخلت الأم وصرخت بأعلى صوتها :
– أوه يا ربي ! أنت تريد أن تقتله !

واندفعت وألقت بنفسها على جسد ميلود. توقف الأب وقال غاضباً وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه :
– اتركيني أربيه. هذا الكافر. هذا الزنديق !

نام في الفراش على بطنه قرابة الأسبوع، وأمه تدهن له الجراح في ظهره بزيت الزيتون وبعض المراهم المستوردة من كانو.

وحتى عندما تماثل للشفاء وسمحوا له بالذهاب إلى المراعي جلس فوق الربوة وانتظر غزالة. ذهب على أمل أن يلتقي بها.. ولكنه لم يجدها. لم يتصوّر أنه لن يراها. لا يستطيع أن يتصوّر أنّ ذلك الحلم العجيب يمكن أن ينتهي هكذا بسرعة وبساطة. لابدّ أن يهجر الأرض ويغيب معها في تلك الرحلة الخيالية العجيبة. انتظر حتّى هبوط المساء، ولكنها لم تأتِ. فقرّر

أن يذهب إلى بيتها. في مدخل الخيمة وجد أمها. وصرخت فيه متوعدة :

– ميلود ؟ ماذا تفعل هنا ؟ اذهب.. اذهب أيها المجنون. سوف أخبر أباك.

وأخبرت الأب الذي سجنه حول العمود المركزي حتّى الصباح. بعد الظهر أسرج الجمل وحلّ وثاقه من العمود قائلاً:

– هيّا. سوف ترحل إلى عمّك في الواحة. هناك تستطيع أن تذهب إلى المدرسة. هذا أفضل من أن تجلب لنا الفضيحة والعار.

عند عمه غمره الحزن وأضرب عن الطعام ثلاثة أيام. في الليل ظلّ يهذي باسمها.

وفي اليوم الرابع تسلّل إلى المطبخ وشرب زجاجة الكيروسين عازماً على الانتحار.

وعندما دخلت زوجة عمه المطبخ صرخت من فرط الرعب. وجدته عارياً.. غارقاً في القيء، ووجهه أصفر كقطعة ليمون.

تجمهر الجيران وحملوه إلى المستوصف، حيث أُجريت له عملية غسل المعدة. تماثل للشفاء فقال له عمّه :

– لماذا تُعذّب نفسك هكذا.. مازلت صغيراً سوف تكبر وتنسى.

قال بإصرار مدهش :

– لا أريد أن أنسى، لا أريد !

ثم أجهش بالبكاء. بكاء طويل مرير.

في المدرسة ضبطه المعلّم وهو يرسم وجه غزالة. سأله باستنكار :

– ما هذا ؟

– غزالة.

– مَنْ هي غزالة هذه ؟

قال ببراءة :

– غزالة، أريد أن أتزوّجها.

تفحّصه المعلّم بدهشة ثم قال مؤنّباً :

– ألا تستحي ؟ طفل في عمرك ويحلم بالزواج !

هجم على الكرّاسة وانتزع منها الورقة التي حاول أن يرسم فيها ملامح غزالة، مزّقها وألقى بالوريقات من النافذة.

منذ ذلك اليوم قرّر ألاّ يعود إلى المدرسة.

يخرج في الصباح إلى المرتفع على الواحة ويجلس هناك حتّى الظهر، يحلم بغزالة وبتلك اللحظات الساحرة التي قضاها معها في السهول الخضراء تحت أشجار الرتم العجيبة. يتسلّى أحياناً بإحصاء قافلة السيارات الفرنسية التي تخرق الواحة وتصعد المرتفع في طابور طويل متجهة إلى تونس.

ولكنّ غيابه المستمر عن المدرسة اكتُشِف. وبّخه عمه فقرّر الهرب نهائيّا. تسلّل من البيت ليلاً ومشى تاركاً الواحة خلفه.

مشى حتّى تلاشى نباح الكلاب وأطلّ القمر الشاحب. توسَّد يده على قارعة الطريق وقرّر أن ينام. نعس بعض الوقت

فحلم بالأفاعي والذئاب. لسعة برد الخريف فنهض وقرّر أن يواصل مسيرته.

وصل عند الصباح فوجد المضارب مهجورة. رحل أهله ورحلت غزالة. ولم يبق خلفهم سوى الرماد القديم يتناثر هنا وهناك.

تفحّص الآثار بعض الوقت ثمّ اتجه نحو السهول المجاورة، حيث كان يرعى الأغنام مع غزالة. ولكنّ السهل الأخضر كان قاحلاً. اختفتِ الأعشاب الخضراء وجفّت أغصان الرتم الساحرة. وقف عند شجرة الرتم التي أكل منها مع غزالة لأوّل مرة، تناول غصناً وضعه في فمه ولكنه تهشّم بين أسنانه كالحطب، كالخشب، كالعظام.. لقد غادرته الحياة. بصقه على الأرض وجلس يجول ببصره عبر الوادي الأجرد. حتى.. حتّى رأى الطائر. نفس الطائر المقدّس.. يرفرف بجناحيه الكبيرين على ارتفاع منخفض متجهاً نحو الشرق. استمرّ يتابعه ببصره حتّى اختفى. قال في نفسه: «إنني أراه للمرة الثانية. المرة الأولى تجلب السعادة. والمرة الثانية نذير شؤم».

جلس حتّى منتصف النهار. ثم نهض ومشى نحو الشرق، في الاتجاه الذي اختفى فيه الطائر المقدّس.

وارسو

1985- 3 -16

مولد الترفاس[1]

«سبقت إلى الجزئيات: في تجزأت لا بالحدّ. وسبقت إلى الحدّ: في تحدّد، لا بالمكان. وسبقت إلى المكان: في تمكّن، لا بالمسافة. وسبقت إلى المسافة: في سافت، لا بالفضاء. وسبقت إلى الفضاء: في تفضأ، لا بالهواء. وسبقت إلى الهواء: في كان هواء، لا بالهباء. وسبقت إلى الهباء: في كان هباء، لا بالإبداء. وسبقت إلى الإبداء: في كان إبداء، لا بالمدى».

م.ع. النفري

«موقف الاستواء»

(1) الترفاس: نوع من الكمأ ينمو بالحمادة الحمراء — الصحراء الليبية.

1- الكنز

هذه تعويذة الرعاة.. هذا طلسم قبائل الصحراء في البحث الموسمي عن الثمرة السحرية..

– يا لرقا[1].. وين الترفاس ؟

هذا هو السؤال الأبدي.

– نبّته وكلوه الناس !

وهذا هو الجواب العدمي.

دائماً يأكله أناس مجهولون لم يرهم أحد. وربما لا وجود لهم. دائماً يختطفونه قدامك، من بين يديك. ربما هم الجن. يسبقون ليأخذوا كنزهم بعيداً عن متناول الإنس. كما تعوّدوا أن

(1) لرقا : نبتة صحراوية يعتقد أهل الصحراء أن زهورها تلعب دوراً في تكوين الترفاس.

يفعلوا مع الذهب. أليست الكنوز كلّها ملكاً موقوفاً على أولئك الجند المجهولين ؟

ولهذا فإنّ الجواب الخائب، العدمي، دائماً فيه لوعة، وربما هزيمة. «نبّته وكلوه الناس».

هكذا يتطوّع الرعاة ليجيبوا نيابة عن الـ«لرقا» الخرساء !

ولمّا لم تعرف الصحراء منذ أن أصبحت صحراء، ثمرة ألذّ طعماً من الترفاس فقد أصبح البحث عنها تقليداً قدّسه الأوّلون وأورثوه للأولاد والأحفاد.

ولكنّ موسم الترفاس سرّ. ونموّ الثمرة حيّر أهل الصحراء منذ الأزل.

قال فريق : ظهور الثمار الخفيّة مرهون بأمطار خريفية غزيرة تعقبها أمطار شتوية تناسبها في السخاء.

ويؤكّد فريق آخر قائلاً : إنّ السرّ الأوّل يكمن في أمطار الصيف تدعمها أمطار الخريف والشتاء.

ويقوم فريق ثالث ويطعن في رأي كلا الفريقين مستنداً إلى تلك المواسم التي كثر فيها محصول الثمرة السحرية في سنوات لم تشهد فيها الصحراء قطرة مطر واحدة، لا في الخريف ولا في الصيف ولا في أيّ فصل من الفصول الأربعة. ويعتقد هذا الفريق أنّ للترفاس علاقة مباشرة بالسماء. ويروق لهؤلاء أن يحيلوا أيّ

سؤال يعجزون عن الإجابة عنه، سواء كان يخصّ الترفاس أو أيّ سرّ آخر من أسرار الصحراء الكثيرة إلى العرّافين. ويبرّرون ذلك قائلين إنّ الترفاس مثل أيّ كنز في الصحراء سرّ. والأسرار تدخل في اختصاص العرّافين. اللّه حرّم علينا أن نأكل أرزاق بعضنا بالباطل فكيف ننزع خبز العرّافين من بين أيديهم ؟

2- إشـارة

الترفاس كنز، واكتشاف الكنز مشروط بالطلسم.. مفتاح السرّ، فأين طلسمك أيتها الثمرة السحرية ؟

أهو بين يدي العرّافين حقّاً كما يؤكّد الأهالي ؟

دعونا نطرق باب العرّافين ونقرأ في عيونهم المجهولة، العمياء دائماً.

عيون العرّافين في الصحراء دائماً فارغة وعمياء. ويقول العارفون الرحّل إنّ هذه عاهة طبيعية لمن رزقه اللّه بالبصيرة.

البصر والبصيرة لا يجتمعان، وهي حكمة معروفة في بلاد العرّافين الأصلية : «كانو» البعيدة !

فماذا تقول عيون السحرة الفارغة عن أصل الترفاس ؟

قالت العرّافة الزنجية الشهيرة وهي تنظر في الفراغ الأبدي بعينيها الفارغتين، وتشير إلى الأفق الممتدّ بيدها النحيلة الموسومة بعروق بارزة :

– انظر ! خلف الأفق يلوح ضوء غامض.. بهرة خفيّة. لا تنظر إلى الشمال فتلك بهرة من نوع آخر. تلك زرقة يلوح بها البحر البعيد المستلقي في اليمّ العميق وراء جبل نفوسة. انظر إلى اليسار، نحو الغرب. هناك يلوح الضوء الخفيّ الذي أريد أن أحدّثك عنه. هل رأيته الآن ؟ إذن تمهّل، فعمّا قريب سيجتمع الغمام. غمام كثيف محمّل بمطر غزير. هذا ماء النهر الذي رفعه اللّه من الأرض ودسّه إلى جواره في السماء عندما أراد أن يعاقب هذه القبائل الشقية في الزمان القديم فتحوّلت الدنيا إلى صحراء كبرى. نهرنا في السماء كما ترى. ويرقّ قلب الرّحيم على العباد فيريه بين الحين والآخر، ويتلطّف أحياناً أخرى، ويبلّل ريق الصحراء العطشى بقطرات منه.

انظر الآن. السحب تتحرك، تسعى، تزحف نحو الشرق. هل أحسست بالنسمة المغسولة بالنهر السماوي ؟ الريح المغسولة بماء النهر فقط تستطيع أن تغسل الرئة وتشفي المصابين بالربو. في الهواء رائحة. آه من هذه الرائحة الربّانية ! لا تقل إنها رائحة المطر في الفضاء المصهور بالغبار والصهد. هذه رائحة أخرى. رائحة عطش.. تستجدي الإشارة، تتوسّل أن تنزل وتستقرّ لتبقى في الأرض.. لأنّها تريد أن تهجر العدم، تريد أن تكون.

إنها تنتظر الإشارة.

ها هي الإشارة !

هل رأيت الإشارة ؟

السوط المفتول من ألسنة الشرر يفلق الأفق المتجهم، المزدحم بالسحاب المطير. السوط الرباني لبّى توسلات الشذى السحري.

3- النــداء

لا يولد السرّ إلاّ بالنداء. اسمع الدمدمة.. همس المجهول.. تمتمة العدم. التمتمة تسبق الدمدمة المسموعة. الصحراء تصغي، تهمد، تموت انتظاراً. ورائحة الشذى المجهول، المشطور بضربة الضوء الإلهي يتضوّر توقاً إلى النداء. هل سمعته الآن ؟ إنه واضح د.. د.. د.. م.. د.. د.. د.. م ! دم.. دم.. دم. انهيار صرح في الغيب. وعراك الجنّ في الفراغ. وشوق الملهوف لتلبية النداء الوجودي. يركب جناح الريح ليرتمي في أحضان الملهوف. يلتقي النقيض بالنقيض، ويتحدان، يتعانقان، يتداخلان، يلتحمان.

يخيّم على الصحراء صمت القبور. يرتل الجنّ آيات من كتاب الميلاد. تخشع الملائكة وترقص الحوريات في الجنّات.

يستمرّ الالتحام حتّى يذوب النقيض ويستحيل الضوء والشذى كلاّ واحداً.

4- التكوين

تمدّد البذرة في العدم، تلتقط أنفاساً من باطن الأرض. في تراب الصحراء أنفاس كثيرة. الباطن مشبع بشذى الزهور الأسطورية. بكلّ الزهور التي تلاحقت في الأودية والسهول في الربيع عبر آلاف وآلاف السنين، تمتصها بذرة الترفاس وتحتضنها في صدرها البكر الذي بدأ للتو يتكوّر وينمو ويتمدّد، ويبحث لنفسه عن مكان بعيد في باطن الأرض المبللة بدموع السماوات، المعطرة بزهور الآلاف من السنين. الأرض الآن ترتجف. الأرض حبلى بالثمرة السحرية، الثمرة الولِيدة من تزاوج إشارات السماء ونداءاتها ببكارة الأرض العطشى للحب والماء.

إيماءات السماء تثمر في رحم الأرض الرحيمة. تثمر سحراً خفيّا مدوّراً كنهد صبية عذراء. تتعدّد ألوانه وحجومه ومذاقه. الكبير والصغير والمتوسط. الأبيض والأسود والأحمر. والمذاق ؟ والرائحة ؟ كيف يمكن وصف مذاق ثمرة لقاحها في السماء ومأواها من الأرض ؟ كيف يمكن وصف مذاق ثمرة تشبعت بأزاهير ألف عشبة أسطورية وألف زهرة صحراوية ؟ كيف يمكن وصف شذى نبتة صنعتها البروق والرعود والرياح والشوق، شوق السماوات العُلى إلى لقاء الأرض المعذبة بنيران العطش والجفاف والهجر الطويل ؟

كيف يمكن أن تستقيم العبارة الصمّاء في التعبير عن الأعجوبة ؟

وبرغم هذا المستحيل يتجاسر الإنسان الجهول ويفتح فمه مدّعياً المعرفة والعلم. فيا لها من بجاحة وجهالة اتّصف بها هذا المخلوق دون سواه !

5- الحجاب

يظلّ الكنز مخفى في الجوف. ينمو، يتمدّد، يستدير. يركل بجسمه المزموم. يخنقه القبر. يكتم أنفاسه التراب القاسي. يقاوم. الحياة أقوى من الموت حتّى في جوف القبر. يدفع الحصار من حوله. يدوس الحبيبات الصغيرة العنيدة الحمراء. تهرسه الأرض. لا يستغيث. تتلاحق أنفاسه القوية، يملأ جسمه المتنامي بالهواء ويدفع الطبقات السفلى. يستدير. يتكتّل. يتململ. يفلق الحجاب. يبحث عن متنفس. عن طريق للخروج، للرؤية. لا يجد القلب راحة حتّى ينعم بمقام الرؤية. تكبر الكتلة. تتكوّر. تندفع في كلّ الاتجاهات. ولكنّ رأسها يظلّ مندفعاً إلى الأعلى. نحو المجهول. نحو الأصل. كل فصل يرجع إلى الأصل كما يحنّ الولد إلى الوالد. الجزء إلى كلّه. لابدّ من تمزيق اللثام. لابدّ أن تقرّ العين بمشاهدة ضوء النهار.

6- الكشف

تشقّقت الأرض في الشعبة المفضية للسهل. السهل يكتظّ بـ«لرقا» الخضراء. برزت التشقّقات وارتفع النتوء الغامض. في

النهاية انشقّت الأرض عن الكنز الدفين وأطلّ رأس الوليد السحري العنيد باحثاً عن ربّ السماوات والأرض. في الصباح دائماً تبدو قمم جبال الحساونة[1] مغلفة بغلالة زرقاء، غامضة أيضاً.

رأس الوليد السحري اتجه صوب تلك القمم الإلهية الجليلة.

من الشمال هبت نسمة الربيع التي تمسح هموم القيظ في الصحراء. هل جربت أن تعطي خدّك وتفتح صدرك للنسمات الرطبة من الحمادة الحمراء ؟

آه ! لا يعرف مذاق هذه النسمة إلاّ من صهره الصهد وذاق طعم القبلي.

المعجزة الآن اكتملت.

فهبّي أيتها النسمات الشمالية الرحيمة، وارقصي يا حوريات النعيم، وابتسمي يا سماء وقبّلي جبين الصحراء المقهورة. لاطفي الأرض وحنّي على تراب الحمادة المسكين. تعانق البرق والرعد في مكان ما بعيد. وتبادلا التهاني في المجهول، فقد تكوّن الجنين من العدم، وطلع في نهار ربيعي،

(1) جبل الحساونة : (نسبة إلى قبيلة بهذا الاسم) سلسلة جبلية تمتد جنوب ليبيا عند نهاية الحمادة الحمراء.

وتوجه برأسه نحو قمم جبال الحساونة الزرقاء كي يتواصل في الأصل ويلتحق بالكل.

ولكن هل وجب الغناء والفرح عندما تكتمل الحياة وتتكامل الدورة ؟ نحن العرّافون ننصح باللّطم والعويل.

7- الفناء

مع هذا المصير لا تنفع تعاويذ السحرة.

طلع البدر واستدارت الترفاسة السحرية في العراء المكشوف.

عارية. حاسرة الرأس. طلع النهار فاكتوت بنار الشمس. شربت الرطوبة وامتصّت منها الحياة. استمرّت تعلن عن نفسها وتنتظر القطاف. أين الرعاة ؟ أين الغزلان ؟ أين الفئران ؟ أين الطيور البرية ؟

الصحراء مهجورة. الصحراء مهجورة منذ زمان.

الرعاة هاجروا إلى المدن وتطاولوا في البنيان.

الغزلان أبادها المغامرون ببنادق الخرطوش وسيارات اللاندروفر.

الفئران ابتلعتها الأفاعي. الطيور أقلعت إلى الشمال في هجرتها الجماعية.

هبّ القبلي.

أقبل الصيف.

تفتّت الرأس، ثم الجسد. اندثرت الترفاسة، وتناقلت ريح القبلي الهباء. تراكمت طبقات السكون وتكاثفت فوق الخلاء المدهش، المهجور. تحاور الجنّ في ظلمات جبل الحساونة. وفي الليل ضجّوا بضحكة مجلجلة تردّد صداها في العراء الأبدي.
قالت العرّافة العمياء:
– همهم الجنّ العليم بكل شيء خفي: الكنز يعود إلى مولاه كما يرجع كل شيء إلى أصله، الابن إلى الأب، والعبد إلى الربّ.

موسكو
(1989)

وطن الرّؤى السماويّة

«لقد كانت الصحراء دائماً وطن الرّؤى السماويّة»

روبرت موزيل
«الإنسان بدون مزايا»

1- السَّفَر

استمرّت الصحراء تتمدّد وتتباعد طوال السفَر. العراء الفسيح، القاسي، الأبدي، يلد في نهايته أفقاً لئيماً. والأفق يلد، بعد مسير، الأفق. وكلّما توغلا في الرحلة، كلّما ازداد الأفق خلوداً، وإصراراً على التوالد. في البرزخ الممدود بين العراء والأفق تدفّق السّراب، ومدّ لساناً لعوباً لا يتوقّف عن الغمز والتغنّج والإغواء. كأنّ العناصر الثلاثة تآمرت، في حلف خفيّ، وصمّمت أن تجعل من رحلتهما سفراً أبديّا. فطوال أيام وأيام من الامتداد والكشف والعُريّ، لم ترتفع قامة لرابية، ولم يفضح

الأفق خيالاً لرتمة أو طلحة أو شبح غزال، كما لم يتنازل الخلاء المكابر فينحني، راكعاً إلى أسفل، ليفضي إلى واد. مضى يتغطّى بسجّادٍ من الحصى، ويتكسّى بطبقة رقيقة من الحجارة حرقتها نار الشّمس الخالدة. فوق السّطح المكشوف، العنيد لم تنبت عشبة واحدة طوال الأيام الماضية.

في العُلا انحنت فوقهما سماء جرداء، صارمة، تتخلّلها، من حين لآخر، سحب عزلاء، تائهة. في النهار تستبدّ الشمس مهدّدة بعذاب يتمرّد على طبيعة ذلك الوقت المبكّر من فصل الربيع. وفي الليل تسود النجوم في عَناقيد كبيرة وتظلّ ترقص ابتهاجاً بغياب الشمس حتّى يدركها نور الصّباح.

في النهار يرحلون ركوباً على ظهر المهري. يجلس الأب على السّرج المنصوب أمام السّنام، في حين أعدّ له مقعداً آمناً في الفجّ الخلفي الذي يقسم الظهر ويجاور السّنام من وراء. يرحلان في الليل أيضاً عندما يطلع البدر، ولكنّ الأب يؤثر أن يقطع المسافة مشياً، فيقود المهري ويتركه جالساً في الفجّ يسمع السكون ويغالب النّعاس.

ولكنّ الأب لا يتسلّى بالغناء إلاّ إذا كان راكباً.

يتنهّد بفجيعة ثلاث مرّات متتالية. يتعلّق بالأفق العنيد زمناً. ترتخي الأعضاء المشدودة وتتراخى عن شدّ اللّجام. يتحرّر عنق الجمل فيمدّ رقبته إلى أمام ويباعد بين خطواته. ولكنّ العراء لا ينتهي، والأفق لا يستسلم، والسّراب لا يتوقّف عن الإغراء

والسخرية. لحظتها يرتفع الصوت الوحيد الذي يقهر العراء. ويركّع الأفق، ويدرك السّراب: ينطلق الصوت خافتاً، خجولاً، متمهلاً، واعداً بالفجيعة. يظلّ يعلو ويتمادى حتّى يتواصل في الموّال الشّجيّ الحزين: دي– يـ – يـ– دا – ا – ا – ا – ا – ه...

يتوقّف السّراب عن العدو. يتراجع العراء. يُقْبل الأفق. تقترب السّماء من الأرض، وسكت الكوكب الصحراوي ليتنصّت..

يستمرّ الموّال الأبوي الفاجع طويلاً.

وعندما يتوقّف يهرب العراء من العراء. يتوالد الأفق من الأفق. يركض السّراب ويتلاعب بلسان اللؤم والسّخرية. تبتعد السماء في الفضاء وتهرب الصحراء من الصحراء. وتلبس المتاهة قناع القساوة والصرامة.

تتواصل الرحلة ولا يبقى من الغناء إلاّ الفجيعة وحدها. بعد الأغنية يكتئب الأب طويلاً. يصوم عن الكلام زمناً قد يستمرّ حتّى نهاية المشوار في ذلك اليوم. يتجاهل أسئلته ويغيب في السكون. يظلّ ثابتاً فوق السّرج، مشدوداً إلى الأفق العنيد، غير عابئ بدعابات السّراب.

في اليوم العاشر تعب الطّفل وسأل الأب:

– أما زال الطريق طويلاً ؟

تباطأ الأب في الجواب:

– وهل أردت أن تبلغ واو بين يوم وليلة ؟

– هل هي بعيدة إلى هذا الحدّ ؟

– واو أبعد من كانو وأقرب من حبل الوريد.

– لا أفهم.

– هذا ما يقوله الدراويش، ولكن لابدّ أن تشقى في الحالتين.

– لا أفهم.

سكت الأب. شهق بالفجيعة ورفع صوته بأغنية أليمة.

أراد الصبيّ أن يجد المبرّر لتسرّعه فانتظر حتّى انتهى الأب من الموّال فقال كالمعتذر :

– أردت أن ألقى جدّي بأسرع وقت. هذا هو السّبب.

فتمتم الأب باقتضاب :

– أعرف.

ولكنّ الابن لم يتوقّف عن السؤال في ذلك المساء. قال :

– حدّثني عن جدّي !

تحدّث الأب :

– لم أره منذ زمن طويل جدّا.

في الأفق برز الشطر العلوي من قرص البدر. تابعه الطفل وهو يتمرّغ في برزخ العراء. وعندما اكتمل ورآه يتحرّر من يد الصحراء قال :

– حدّثني عن واو.

– واو وطن مفقود.

– مفقود ؟

– ولكن هذا لا يعني أنّها لا تفتح أبوابها لاستقبال الذين يجدّون في البحث عنها. إذا تعبت هربت منك وإذا صبرت وصلت.

– وأنت ؟ هل سبق لك ودخلت واو ؟

سكت الأب لحظة. قال :

– كيف أشرح لك ؟ واو وطن فريد بين الأوطان. ثمّة من يحملها في قلبه ويهاجر بها. وثمّة من ينفق عمره طلباً لها.

تنحنح بحدّة ثم أضاف :

– ولكن دعك من هذا. فأنا لم أشأ أن أذهب وأتركك وحيداً في الواحة. لأنني إذا دخلت إلى واو فمن الصّعب أن أخرج منها ثانية.

– لماذا ؟

– ماذا أقول لك ؟ لكلّ أرض مزايا. هذه مزيّة من مزاياها. ولكن قل لي...

سكت قبل أن يضيف :

– ألست سعيداً بأنني لم أتركك في الواحة وأذهب وحيداً إلى واو ؟

– طبعاً.

– ألم يتعبك السّفر ؟

– أبداً.

– أحسنت. راهنت دائماً أن تكون صبوراً. الرّجل لابدّ أن يتعلّم التّعب إذا أراد أن ينتمي إلى الصحراء.

– قلت لي ذلك كثيراً.
– هذا ما لن أملّ من تكراره.
– ولكنّك تحدّثني عن واو. جدّتي تقول إنّها وطن الجنّ.
– أهل الواحات لا يرون في الصحراء، إلاّ الجنّ، ويزعمون أنّ أهلها أنفسهم أشباح.
– جدّتي تقول ذلك أيضاً.
– لا تستمع لما تقول، يجدر بك أن تتباهى بالانتماء إلى الصحراء. هل أنت فخور بأنّك ابن الصحراء ؟

أجاب الولد بلا تردّد :
– طبعاً.
– أحسنت. هذا يعني أنّ واو ستفتح لنا أبوابها.
– ...
– هذا سيروق للحاجب. يقال إنه لا يفتح الأبواب إلاّ لعشّاق الصحراء.
– حقّا ؟ ظننت أنّ الباب يحرسه الثعبان دائماً.
– ثعبان أو حيّة أو ضبّ. القناع لا يهم. يروق له أن يلبس ثياب ثعبان.
– قلت لي مرّة إنّ الثعبان عدوّ. لأنّه طرد الجدّ من وطنه واو.
– عدوّ وصديق. عدوّ لأنّه شرّدنا، وصديق لأنّه يشفق علينا من التّيه ويفتح لنا أبواب واو في أية لحظة يشاء.

هرش الطّفل رأسه الذي يشقّه الشّعر كعرف الدّيك. سأل بعد تردّد :

– ماذا يفعل النّاس في واو ؟
– لا أدري. الصحراوي نسي منذ خرج من هناك. النسيان لعنة المشرّدين.
– هل هم سعداء ؟
– لا شكّ في ذلك. لو لم يكونوا سعداء لما قتلهم الحنين شوقاً للعودة.
– جدّتي تقول إنّ أهل الصحراء أشقياء وواو لا وجود لها.
– لا تستمع إلى جدّتك أبداً إذا أردت أن تنتمي إلى الصحراء. أهل الواحات يقولون ذلك لأنّهم عبيد.
– قالت لي عندما خرجنا : «تذكّر أنّ واو هي السّراب. أبوك ضائع ولا يعرف ماذا يريد». هكذا قالت.

سكت الأب. أنصت للسكون. متع البدر فوق الأرض قامة. تكلّم الأب :
– تقول ذلك لأنّها لا تريدك أن ترافقني إلى واو. جدّتك تريد أن تشدّك إلى الأرض لتصبح عبداً مثلها.
– لا أفهم.
– من الصعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراويًا. ولكن تذكّر أنّ كل من أمسك معزقة وخدش الأرض فهو عبد. كل من بنى كوخاً وسكن بجوار العين فهو عبد.
– لماذا يا أبي ؟
– من الصّعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراويّا. الإنسان في الصحراء لابدّ أن يكون إما نخلة مشدودة إلى الأرض

بالجذور، وإمّا ريح القبلي التي تهاجر دائماً. الفلاح هو النخلة، والصحراوي هو القبلي الذي لا يتوقف عن السفر. فأيّهما أنبل؟

– القبلي !

– أحسنت. أيّهما تختار ؟

– القبلي !

– أحسنت.

سكت الأب فسكت الابن. متع البدر أشباحاً أخرى فتوغّلت الصحراء في الجلال والسكون.

قال الأب بلهجة غامضة :

– ليس الفلاّح عبداً لأنّه يعشق الأرض، ولكن لأنّه يقبع في الكوخ منتظراً منها الإحسان !

هتف الطفل بدهشة :

– الإحسان ؟

– كل من انتظر عطيّة فهو عبد. العطيّة قيد حتّى لو كانت من الأرض.

– ...

– حياة الفلاّح كلّها انتظار للعطيّة. للخبز. للقمة المسمومة !

هتف الابن باستنكار :

– مسمومة ؟

فقال الأب بهدوء :

– كل لقمة تستعبد الرّجل فهي سمّ أسوأ من سمّ الحيّة.

– والصحراوي. ألا ينتظر الصحراوي عطيّة الأرض ؟

– أبداً. الصحراوي يتغطّى بالسماء المرشوشة بالنجوم، ويتوسّد العراء المفتوح. يتنقّل كالغزال، ولا يركع لمكان. إنّه طليق مثل الطير وليس رهينة تنتظر حلول موسم الحصاد في الكوخ.

من الشمال هبّ هواء البحري. شدّ اللّجام فتشكّى الجمل ألماً. ترجّل الأب بوثبة واحدة. قال وهو ينيخ الجمل :

– هنا سنبيت ليلتنا.

2- الزعيم

قبل السفر بشهور رحل إلى القبيلة وحاور الزّعيم.

وجدّه يتربّع على الكليم، يستظلّ من نار الشمس بحضيض الخباء الشرقي. ينتهك الموقد بالمسعر ويعدّ شاي العشيّة بنفسه. جالسه طويلاً. تحدّثا في كل شيء : الجفاف وأخبار السيول. المجاعة والتّجارة. الغزوات وغارات القبائل المعادية. النّبل والعار. الصحارى والواحات. البطولة والجبن. آنهي الأرض وواو السماء. الحرية والذلّ. الحياة والموت.

زحفت العتمة فبدأ :

– تحدّثنا منذ قليل عن قبح العبودية...

قطع الجملة فحدّجه الزعيم بنظرة استفهام. واصل :

– الحق أنّي لا أريد لابني أن يمتهن الفلاحة فتقع ذريتي، من بعدي، أسيرة الأرض.

بالمسعر رسم الزعيم رموزاً غامضة على الأرض. كشفت عيناه ابتسامة متسامحة. ابتسامة حكيم صبور عندما يروّض ولداً شقيّاً. رفع رأسه فجأة وقال باقتضاب :

– كلّنا إلى الأرض. حتّى لو طار العبد إلى السماء فإنه يرجع إلى الأرض. ليس ثمة مخلوقات أكثر حريّة من الطيور ورغم ذلك فإنها تموت على الأرض.

هتف كأنه انتظر هذا الاحتجاج :

– انتظر ! لا يحمل كلامي إدانة أو إهانة للأرض. ولكن هناك فرق أن تتنقّل، وتهاجر كالطائر في الصحراء الواسعة وبين أن تمزّق وجه الأمّ بالمحراث وترابط في الكوخ طوال الحياة لتتلقّى منها الإحسان.

ابتسم الزعيم مرّة أخرى فواصل المفاضلة بين الأرض والسماء :

– وحتى عندما يتعب كوز الطّين ويبيد وتقترب الساعة التي يتحرّر فيها عصفور النّور من وزره فإنّ الأرض لا تأخذ إلاّ كوم العظام. أما العصفور فيطير إلى واو.

– أنا لا أفهم لغة القادرية، ولكن عشق الصحراء لم يعلّمني احتقار الأرض مثلك.

– إنه ليس احتقاراً للأرض. ولكنه احتقار للعبودية. فالنخلة مكابرة، صبورة، متسامحة، ترميها بحجر فتردّه إليك تمراً رطباً، ولكنّ جذورها مشدودة إلى التراب. السرّ في الجذور.

هزّ الزعيم بالمسعر في وجهه :

– نعم. السرّ في الجذور.

– أردت أن أقول إنها جذور الذلّ.

– ولماذا لا تقول إنها جذور الحياة ؟ لولا هذه الجذور لما أطعمتك رطباً.

– آه لو كانت النخلة بلا جذور !

– لا شيء بلا ثمن. الجذور التي تسبح في الفضاء لا تعطي التّمر.

ترنّح كالمجذوب قبل أن يتمتم بنبرة فاجعة :

– ما أقسى الجذور التي تهبنا التّمر وتضع في أيدينا القيد ! ما أقسى الجذور التي تعطينا الحَياة مقابل أن ترانا مكبّلين بسلسلة طولها سبعين ذراعاً. ما أجمل النخلة لو بقيت سابحة في الفضاء بقامتها المكابرة، الحسناء.

سأل الزعيم ساخراً :

– وكيف ستملأ الشكوة الجوفاء التي تحملها بين السرّة والصدر؟

ولكنه مضى في شطحته :

– سأجوع، سأجوع مثل دراويش القادريّة.

– الجوع هو الذي سيجبرك على الاعتراف بالنخلة نزيلة الأرض.

– شيخ الطريقة يقول إنّ الجوع ينصر العصفور ويخلّصه من استعباد البدن. لقد جرّبت في الواحة وتهيأت أيضاً لأن أطير. ولكن شيخ الطريقة قطع صيامي وقال لي إنّ الأوان لم يحن بعد.

لأنّ المريد لابدّ أن يعبر قنطرة اسمها الحياة إذا أراد أن يأتي إلى الخلاص من أقصر طريق.

– لا أفهم في أسرار القادرية، ولكن اليقين أنّك لن تستطيع أن تقطع الجذور بالأرض ما دمت تحيا على الأرض. القيد إتاوة يدفعها كل حي ما دام على قيد الحياة.

– ولكن الصحراويين لا يدفعون هذه الإتاوة.

هنا ضحك الزعيم لأوّل مرة بالصّوت المسموع :

– لا يدفعون الإتاوة حقّا، ولكنهم لا يحيون أيضاً. من قال لك إن الصحراويين أحياء ؟!

– الدراويش يقولون إنهم أطياف والفلاّحون يقولون إنهم جنّ!

استمرّ الزعيم يبتسم بغموض. عمّت العتمة. زحف نحو الموقد ومدّه بالحطب.

تربّع وبدأ يعدّ شايا جديدا. تجهّم فجأة قبل أن يقول :

– دعنا الآن من شريعة الواحات وتعال معي إلى عقيدة الصحراء. أنت تعرف أنّ القبيلة لن تقبل ابن الأعراب حتّى لو أراد الزعيم ذلك.

استنكر القسوة :

– ولكنه ابني !

فمضى الزعيم بنفس البرود :

– الابن ابن أمّه. الابن يمشي وراء أمّه حتّى لو كان ابن الزعيم نفسه. هذه شريعة ورثناها عن الأسلاف، و لم يبتدعها الزّعيم.

قال بصوت كالتوسّل :

– ولكنه سيضيع في الواحة. سيصبح فلاّحاً. عبداً. هل يرضيك أن أسلّم ابني الوحيد للذلّ ؟

– لست أنا من اخترع الشريعة. والزّعيم يكف عن أن يكون زعيماً في تلك اللحظة الجنونية التي يخالف فيها تعاليم الأسلاف.

– ولكنّك تعرف أني مهاجر وحيد ومعلول، ولا أستطيع أن أصنع منه رجلاً صحراوياً إلا في القبيلة. ثم.. ثم لا تنسَ أنه يتيم الأم. وهو وحيد مثلي..

– التعاليم تقول إنّ الرجل يدفع ثمناً قاسياً إذا وافق هواه. أظنّ أنّ دراويش القادرية أيضاً يقولون شيئاً من هذا القبيل. أردت أن أقول إنّ الرجولة تقضي بأن نتحمّل ثمرة الهوى. وأنت تعرف متى ارتكبت الخطأ.

هيمن صمت : توجّع الحطب في النار وشحن الصمت بمزيد من التوتر.

قال :

– أعترف أنّ ذلك كان خطأ. ولكنه خطأ مبرّر. أقمت في الواحات طلباً للعلم والحق. والإنسان لن يظلّ بلا امرأة إلى الأبد حتّى لو أراد.

– سوف نختلف هنا. أنا أرى أن على الرجل ألاّ يتخذ امرأة إذا أراد ألاّ ينجب عبيداً.

– ولكن الصحراويين ينجبون ذريّة للحريّة.

هبّ الزعيم :

– ذريّة للخلاء. للفناء. ما هي الحرية إن لم تكن فناء ؟ ما هي الصحراء إن لم تكن فناء ؟ ألم نتفق منذ قليل أنّ الصحراوي هبّة ريح في الهواء، وهباء في الفناء ؟ ألم نتفق أنّ الصحراوي، لهذا السبب، لا يحيا ؟

سكت ثم أضاف بيقين :

– من جاء بذريّة من امرأة الأغراب فعليه أن يدفع الثمن بروح راضية.

– ما أقسى الثمن عندما يكون عبودية !

– أيّهما أقسى : العبودية أم الفناء ؟

أجابه يومها بلا تردّد :

– العبودية.

وكرّر :

– العبودية يا جلالة الزعيم.

تكلّم الزعيم بعد صمت :

– أعرف أنّ شيخ الطريقة زيّن لك الصحراء وشبّه لك الفناء نعيماً. يقال إنّ أتباع الطريقة القادرية يرون في الفناء نعيماً. بحثوا عن الفناء في السماوات إلى أن وجدوه على الأرض، في الصحراء. بعضهم يعشقون الصحراء أكثر من أهل الصحراء أنفسهم، هذا ما فتنك وغذّى فيك السفر.

– لم يغذّ فيّ النزوع إلى السفر غير الصحراء. في السفر دواء علّتي.

– لا دواء للعلّة عندما تكون في الصدر.

بدأ يخلط الشاي ويصنع الرّغوة وأضاف :

– ولا حماية للذريّة من العبوديّة غير قهر الهوى والزّهد في المرأة!

هتف موافقاً :

– صدقت. الاقتران أصل البلاء، ولكن لا تظنّ أنّ الرجل يرتكب هذه الحماقة بدافع الرغبة دائماً. رجال كثيرون يفعلون ذلك لا لشيء إلاّ لأنهم ورثوه عن آبائهم.

– والآباء يقولون إنّهم ورثوه عن الأجداد، والأجداد يقولون إنه وحي سماوي يحمي الحياة من الزوال.

– هذا الوحي السماوي الوحيد الذي على الإنسان أن يكفر به.

– أستغفر اللّه.

مدّ له الشاي في كوب خشبي. اقترب منه الزعيم وقال :

– حتّى لو خالفت الشريعة وقبلته في القبيلة فإنّه سيعيش منبوذاً. عبداً.

– أن يعيش عبداً في الصحراء أهون من أن يعيش فلاّحاً في الواحات.

– أنت تخطئ وتعتدي على الناموس الحكيم. إذ ما هي الأم إن لم تكن الأرض ؟ كل الثمار تنضج بمساعدة الأرض. وكل ثمرة هي جنين للأرض. اللّقاح يأتي به الريح طائراً في الهواء، ولكنّ البلح ينضج في النخلة المشدودة إلى الأرض بالجذور. دور

الرجل أيضاً عابر. فلماذا تلوي العصا في يد الناموس ولا تريد أن تتخلّى للأم عن جنينها الذي ولدته ؟

– ولكن أنت تعلم أنّ أمّه ماتت.

تضاحك الزعيم باستخفاف:

– وأنت تعلم أيضا أنّها حيّة فيه.

ثم اقترب منه مرة أخرى. مال نحوه برأسه حتّى سقط طرف عمامته على منكبه. قال :

– سأذيع لك سرّاً. أنا أريد أن أخفف عليك فاسمع سرّي.

سكت فجأة. تمهّل لحظة ثم أذاع السرّ :

– أنت لا تعلم أنّ لي ابنة من امرأة زنجية.

– لا !

– عقدت عليها في كانو منذ زمن بعيد. كنت أقوم برحلة تجارية وأنا في عمر الهوى والحماقات. راقت لي فتزوّجتها. أنجبت بنتاً. والبنت الآن في عصمة زنجي.

– لا !

– نعم. نعم. ولي حفيدة زنجية. هل تصدّق أنّ حفيدتي زنجية ؟ هذا هو الثمن الذي دفعته مقابل خطأ الهوى. مصيبتك أهون بكثير كما ترى.

– ولكن كيف وافقت أن تزوّج الفتاة لزنوج الأدغال ؟

– وماذا أفعل بها ؟ إنها ابنتهم. لم أرد أن أخالف شريعة الكوكب الصحراوي.

– شريعة قاسية !

– أنت ترى أنها قاسية وأنا أرى أنها حكيمة. فحتى لو خالفت وجئت بها إلى القبيلة فإنّ حظها لن يكون أفضل. لن يقبلها زوجة سوى زنجي. فآثرت أن أدفع أهون الأثمان وأدفن عاري هناك.

هيمن السكوت.

في النار توجّع الحطب.

3– الخــروج

عندما كان يخرج للمراعي وراء الجديان، يجلس فوق الرابية، يراقب الأفق المدهش، وينوح. استمرّت المناحة فوشى به الأقران للأب. في ليلة امتلكها البدر عاتبه بعد العشاء :

– لا تبحث عن شيء وراء الأفق. الأفق صديق السّراب. يتهامسان ويتآمران ويرتبان المكيدة. إنهما يعدّان لك مكيدة.

لم يرد فواصل العجوز :

– الأفق مثل «سخرك ايبراضن»[1] فاحترس !

راقبه طويلاً، تحت ضياء البدر، ولكنه لم ينطق، فتكلّم الأب :

– ألا تصدّقني ؟ اسأل العرّاف عن الأفق إن كنت لا تصدّقني.

---

(1) سخرك ايبراضن : طائر ملوّن يستدرج الصغار إلى الصحراء.

لم يذهب لمساءلة العرّاف، فجاء العرّاف بنفسه. زاره فوق الرابية بعد أن أنصت لمناحته وهو يتخفّى بين أشجار الرتم في الوادي. وقف فوق رأسه طويلا قبل أن يتقرفص ويتكلّم :

– كلّنا نعشق الأفق. كلّنا ننوح حنيناً لما وراء الصحراء.

سكت لحظة ثم سأل فجأة :

– هل تشتاق للمجهول مثلي ؟

هزّ رأسه بالإيجاب فسأل نبي الغيب :

– هل تقول الشّعر ؟

هزّ رأسه بالنّفي فاقترح العرّاف :

– يـجـدر بك أن تحاول. الشـعـر لـغـة المجهـول. الشـعـر صـوت الحوريات، تمتمة الجنيّات. شكوى القبلي. سرّ الترفاس وإيماءة الزهرة في شجرة الرتم. لا يستطيع الصحراوي أن يقهر السراب، المتآمر مع الأفق، بدون شعر.

سكت فتكلّم النبي :

– هل تجذب في أمسيات السّمر ؟

هزّ رأسه بالنفي فاقترح علاّم المجهول :

– الوجد نعمة أخرى. اسقط في الوجد وارقص مع النّغم. في هذا أيضا شفاء.

ولكنه لم يقل الشعر، و لم يذهب لميعاد الصبايا ليسمع النّغم ويقع في الوجد. آثر الخروج والالتحاق بالأفق.

كبر معه الحنين واشتدّ. في صباه قال له حكيم الرعاة :

– احترس. الصحراء كوكب فريد. من خرج منه ضاع. هل تعرف لماذا يضيع ؟

ألقى في فمه بحفنة من التبغ. قضم من الطرونة قطعة صغيرة وشرع يلوكها مع المضغة.

أضاف وهو يحكم الرّباط حول صرّة التّبغ :

– لأنّ حدود الصحراء هي الهاوية التي يتحدّث عنها الفقهاء، لا شيء وراء الصحراء سوى الهاوية، فاعلم واحترس !

ولكن نداء الخروج كان أقوى فلم يحترس.

خرج مع قافلة وزار الأفق. ابتسم في وجهه السراب وسلّمه لآفاق أخرى. وعده بآفاق أخرى. يتغنّج، ويتدلّل، ويطلع لسانه ساخراً. يبتعد كلّما اقترب منه كما يفعل «سخرك ايبراضن» في مناوراته ومداعباته وشقاوته وشيطنته. صدق الوالد : السّراب و«سخرك ايبراضن» قرينان. توأمان، خلقا لترتيب المكيدة نفسها.

• نزل الواحة.

التحق بالزاوية القادرية ليجرّب الخروج الثاني. الخروج الحقيقي. الخروج من الظلمات، من جحيم البدن. والالتحاق بنعيم المعرفة والروح. هنا تعلّم ضرورة الخروج. شيخ الطريقة أيضاً قال إنّ الخروج هو حجر الزاوية في الطريقة القادرية. فمن لم يخرج لم يجرّب، ومن لم يجرّب لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشق، ومن لم يذق طعم الشقاء لم يدخل باب الفردوس.

حدّثه كثيراً عن الحنين والمجهول والسراب والغناء والشعر والغناء. ولكنه أكّد أنّ كل شيء يبدأ بالخروج.

وكي يبدأ بتعلّم هذا السحر حبسه في حجرة ظلماء بالزاوية شهراً كاملاً. وعندما فتح له الباب وأذن له بالخروج قال له : «لن يخرج من غيهب النّفس من لم يتعلّم كيف يقف مع نفسه وجهاً لوجه». وقد اعترف للشيخ بعد زمن طويل أنّ تلك التجربة كانت أقسى امتحان في رحلته كلّها. وكان يبتسم بغموض وهو يسمع الخفاء في لغة الشيخ، فينتهر المريد الدّاخلي إليه : «اخرج !» ويصيح في المريد الذّاهب للخروج : «ادخل!». وهي لغة ذكّرته بأساليب العرّافين في المخالفة وتسمية الأشياء بعكسها. قرأ الشيخ أفكاره فقال له : «اعلم أنّ الدّاخل إليك لن يكون جليسك بحق ما لم يخرج من سجنه. من نفسه. واعلم أنّ الخارج منك إلى الدنيا لن يهتدي إلى الصراط ويعرف ماذا يريد ما لم يتحصّن بنفسه من السّوى».

بعد ثلاث سنوات من الوجد والدّرس والحبس رأى الشيخ أن الجمرة في قلبه لم تنطفئ فقال له :

– المخالطة من آداب المجاهدة أيضاً. ومن لم يخرج إلى الناس لن يخرج إلى باب الفردوس. فاخرج إليهم، وعاشرهم، واعرفهم، وعش الحياة أوّلاً.

خرج إلى الناس فكانت المرأة في انتظاره.

لم يكن يعلم أنّ الأنثى هي الشرط الأوّل للخروج، والزواج هو الإتاوة الأخرى التي يدفعها كل من أراد أن يعاشر الناس ويمارس الحياة.

حرث الأرض وامتهن الفلاحة. اجتهد في عمله ففاز بثقة صاحب الأرض. صادقه وزوّجه ابنته الوحيدة. جاهد نفسه في الأرض، وفي الناس سنوات أخرى. تعلّم معنى أن تزرع وتجلس في الكوخ منتظراً الإحسان من الأرض. وعرف أيضاً وجه الشّبه بين المرأة والأرض.

عادت الجمرة تتوهج فناح في سرّه. صمّم أن يحطّم القيد ولكنه اكتشف أن المرأة تشدّه إلى الأرض بسلسلة أطول من السبعين ذراعاً. أنجبت له الولد كي تستعبده بالنّسل كما حاولت الأرض أن تستعبده بالخبز. ولكنه اكتشف أيضاً أنّ الحنين يزداد، ووهج الجمرة يتضاعف ويشتدّ كلّما اعترضه قيد في طريق العبور والانطلاق. عاند وجاهد وذهب إلى الخلوة في أطراف الواحة وتلوّى ليالي كثيرة قبل أن ينتصر الوهج ويقتنع بقطع الجذور.

ذهب إلى القاضي وعاد بورقة الطلاق، بوثيقة الخلاص. بعث بها إلى المرأة مع أحد الفلاّحين وذهب إلى الزاوية ليجتمع بشيخ الطريقة. عبث الشيخ بلحيته الوقورة وقال بغموض :

– كيف وجدت الدنيا ؟

أجاب بقسوة :

– في أسوأ حال. أسوأ ممّا ظننت !

تكلّم الشيخ بنفس الغموض :

– هذا حال الدنيا. ولكنّ الخروج إليها يبقى شرطاً من الشروط.

ردّ بغضب :

– ولكنّه من أقسى الشروط.

قال الشيخ بتسامح :

– ماذا ظننت هل ظننت أنّ بإمكان المريد أن يطرق باب النعيم دون المرور بجحيم الناس ؟ هل ظننت أنّ الفوز بالجنة يسير إلى هذا الحدّ ؟

ثم أخرج مسبحة صنعت حبيباتها من الأبنوس الحبشي وأضاف بلغة الطريقة :

– ولكن الطريق أمامك ما زال طويلاً كي تفهم.

لم يستطع أن يضبط النّفس فسأل بدهشة :

– هل ما زال الطريق طويلاً حقّا يا فضيلة الشيخ ؟ ظننت أنّي...

ابتسم الشيخ. توقفت أصابعه عن دحرجة حبّات المسبحة. اتّسعت الابتسامة. انتفض منكباه الجليلان، غالب الضحك. بل إنّ الشيخ الجليل يضحك. ضحكة حقيقية. بصوت مسموع. بصوت مرتفع. لم يره أبداً وهو يضحك. لم يسمعه مخلوق وهو يضحك.. كانت الابتسامة لغته الوحيدة. ضحكته الوحيدة. أما الضحك في شريعته فهو تجديف. الضحك رجس من عمل الشيطان: فما الذي جعله ينتهك الحرم ويكركر بالضحك ؟

مسح دموعاً بكمّ جلبابه واستغفر وقرأ بعض الأدوار قبل أن يقول :

– أضحكتني. ما كان يجب أن تفعل ذلك. ولكنّك طفل. طفل كبير. ولكن الطفولة لا تضير الرّجل. بل إن كل الرّجال العظام هم أطفال كبار. ولكن اعلم أيضاً أنّ الطريق لم ينته بعد. بل لم يبدأ بعد، الطريق مازال طويلاً.

– ولكنّي تألمت كثيراً يا فضيلة الشيخ.

– وماذا تظن ؟ الألم هو الحياة. الألم شرط الميلاد.

– شرط الميلاد ؟

– يولد الإنسان للألم. ولا يبعث الإنسان إلاّ بالألم. لا يولد مرّة أخرى إذا لم يتألّم.

سكت ثم همهم لنفسه :

– الألم شرط الوصول. الويل لمن لم يتألّم.

– الويل لمن لم يتألّم ؟

ابتسم الشيخ مرة أخرى. قال :

– إذا لم يتألّم الإنسان فقد مات غافلاً.

– السّوى تقول العكس : من مات بلا ألم فقد عاش حياته سعيداً.

– لو كان السّوى يعرفون معنى الألم لما كانوا سوى. لا يليق بالمريد أن يحاجّ بلغة السّوى.

توقف الحوار. رفع الشيخ إليه نظرة مستفهمة فعرف المريد أنه قرأ أفكاره مرة أخرى. قال الشيخ :

– السّير أيضا طريقة من طرق المجاهدة، فحدّثني بم انتويت.

– حقّا ؟

– إذا غلبك الحنين فسِر إليه لأنه يدعوك.

– حقّا ؟

– هاجر إليه. سر في الأرض. امضِ. اعبر. ولا تتوقف حتّى يفتح لك الباب.

– حقّا ؟

ولكن الشيخ أغمض عينيه وغاب في الأوراد.

خرج من الواحة وسار في الصحراء سنوات.

استمرّت المسيرة منذ ذلك اليوم.

طاف الصحراء كلّها، ولكنه لم يتوقف عن السفر. يهجع في العراء. أو يبيت تحت شجرة بريّة ويهيم في الخلوة، حتّى إذا هتف الهاتف، وسمع النداء، هرع إلى الجمل وأسرجه وسلّم نفسه للأفق المتحالف مع السّراب. في ذلك الوقت شبّ الولد وماتت أمّه ملدوغة بعقرب. رأى أن ينقذ نسله من استعباد الأرض وأذى العباد، فذهب للتشاور مع الزعيم. هناك تلقّى صدمة أخرى. هاله أن يترك الولد عبداً في يد قبيلة لا ترى في أبناء المرأة الغريبة إلاّ عبيداً وأغراباً فهل يستدبل استعباد القبيلة باستعباد الفلاحة ويستجير من الرمضاء بالنار ؟ أليس استعباد الأرض أهون من استعباد الخلق ؟ ألن يكون بقاؤه بين يدي جدّته أرحم وأهون الخيارين ؟

طاف كثيراً. هاجر طويلاً قبل أن يهتدي إلى الخيار :

«ماذا لو رافقته إلى واو».

سمع النداء في حفيف القبلي، في هتاف الحنين الخفيّ، في استدعاء الأفق، وإغواء السراب اللعوب. في البداية تجاهله. استبعده باستنكار، ولكن النداء ارتفع. فهاجر. سافر في الأفق كما تعوّد في الماضي عندما تستبدّ به شهوة أو يستولي عليه هاجس. تراجع الخاطر في الأيام الأولى، ولكنه ما لبث أن وجد الطريق إليه حتّى في سفره. توقف وصمّم أن يبحث عن السبيل في المواجهة. عرف في هجرته مسلك واو. بحثه الطويل علّمه أنّ الخروج هو ثمن الدخول إلى واو. الأرض البكر لا تفتح أبوابها إلاّ لمن وجد في نفسه شجاعة الخروج من الصحراء. في أرض الرؤى والسكينة والخلاص الأبدي لا تعترف إلاّ بالشجعان الذين يشقّون صدورهم ويفتحون لها قلوبهم مقابل أن يدخلوا إليها، في الحرم الموعود. هناك سيضمن الخلاص لنفسه ولذريّته. لن تبقى وراءه نطفته مهدّدة بغول الاستعباد. لن يترك خلفه نسلاً والقيد مسلّط على رقبته من السيف. إذا أخذه معه إلى واو ضمن له السكينة و.. الخلاص الأبدي.

4- الترفاس

على سلطة السّراب تمرّد خيل وتبدّى. ظلّ يعوم في ألسنة العرف الفضيّ الذي يغمر الأفق ويتلوّى مع تموّجات السائل الشيطاني اللعوب حتّى قطعوا إليه مسافة أخرى. بدأت الأرض الحمراء تتبين في العلامة فسأل الولد مشيراً إلى الأفق :

– هل هي واحة من صنع السراب أيضاً ؟

ابتسم الأب :

– حاول أن يمحوها ويمزقها ليصنع منها واحة من واحاته الشيطانية، ولكنه لم يستطع لأننا قهرناه بالعناد.

– هل هي واحة حقيقية ؟

– إنها الرّابية الحمراء.

– هل اقتربنا من واو ؟

– أظنّ أنّ أرض واو سوف تبدأ خلف الرابية الحمراء.

– حقّا ؟

انتصر المرتفع على سلطة السرابُ. رفع قامة مكابرة في الأفق فاعتلته مِزَق من النار الفضيّة وتسلّقت ظهره في شقاوة. ومضى السائل الشقيّ يعارك حتّى عندما بلغا الحضيض ووصلا الرابية.

انتصف النهار. هبّ نسيم شمالي مبلّل بماء البحر البعيد. ترجّل الأب عن المهري وترك الصبيّ جالَساً خلف السّرج يتشبّث بوبر السنام.

قاد الجمل ماشياً. انحرف يميناً ليجتاز الرابية.

خلف الرابية الحمراء فاح الفردوس.

امتدّ سهل فسيح من الحضيض. في الحواف، المكسوّة بحجارة كثيفة سوداء، نما حزام من الحمّيضة الحمراء. في الأسفل، عبر المنحدرات المائية، التي شقّتها بنات الأرض في موسم المطر، تزاحم الفصيص. أفضت المنحدرات إلى رقعة فسيحة مكتظّة بالبابونج والجرجير والشيح ونباتات أخرى كثيرة

يجهل أسماءها حتّى الرّعاة. فتحت الرّقع سُبُلا إلى الوديان السفلية فاخضرّ السّدر وأزهر الرتم وتكاثفت الأحراش البرية. زقزقت الطيور، وتسكعت الغرانيق في السهل المفروش بالعشب، تضرب الأرض بمناقيرها القانية بحثاً عن الديدان، وتتباهى بقامتها المكابرة. عندما نزلا المنحدر رأى الابن شبحاً مدهشاً : انسلّ من الأحراش ووثب إلى حاشية السهل بقفزتين رشيقتين. وقف، في الجانب الآخر، مستنفراً. حفر الأرض الطينية بحافره الأيمن في حركة توحي بالتوتّر والارتياب. كائن رشيق. نحيل. طويل القامة. يعلوه زغب ذهبي اللون. وفي الأسفل، عند البطن، اكتسى اللّون بياضاً ناصعاً. رقبته مديدة، رقيقة، مكابرة، تنتهي برأس وديع وفاتن. فوق الرأس استقرّ قرنان صغيران، مرفوعان إلى أعلى. من الرأس أطلّت عينان مدهشتان كحلاوان، علتهما رموش طويلة كحيلة أيضاً.

ظلّ الحيوان يراقبهما بعينيه السرّيتين لحظات. ثم استدار وطار في الفضاء كالسهم. قفز من الهواء واختفى.

تابعه الابن بذهول، تطوّع الأب بالتفسير :

– إنّه الغزال. هل رأيت شاة أجمل من الغزال ؟

لم يجب الابن فواصل الأب :

– هذا مخلوق لن تراه إلاّ على أبواب واو.

فاح الرتم وتضوّع الهواء بأريج الزهور. تنفّس الابن بعمق حتّى شعر بالدوار. أغمض عينيه ليستعيد الغزال ويحفظه إلى

الأبد. ولكنّ الشبح المدهش فرّ من الخيال كما فرّ من الصحراء فسأل بلا وعي:

– ولكنّك قلت إنّ الثعبان يحرس الباب وليس الغزال ؟

أناخ الأب الجمل وأجاب مع ابتسامة حزينة :

– في مراعي واو دائما ترتع الغزلان، ولكننا لم نبلغ الحاجب بعد.

أمضيا ليلتهما في سهل الجنّة. وفي الصباح بدأ طلب الترفاس. في البداية بحثا معاً في السهل الكبير. تناسل العبير في الفضاء وصنع، مع الهواء، الأريجَ الفريد الذي لا يطمع الصحراوي أن يستنشقه إلاّ عند أعتاب واو. وكلّما تصاعد عطر الجنّة وغزا الموج أنفه، كلّما ترنّح الصبي وهزّه الوجد والدّوار. الوجد هو الذي استفزّ فيه الدّمع فلمعت مقلتاه بوميض بلل أخفاه عن أبيه. تنادت الطيور في الأحراش. ارتفع قرص الشمس قامة فوق خط الأفق. انبثق بينهما الطائر فجأة. انطلق من فرش العشب وركض أمامهما بساقيه النحيلتين الطويلتين. كان آسراً. صغير الحجم. ذهبي الريش. موسوماً بخطوط فضّية عند الجناحين. منقاره قانٍ، مستقيم. وقف على بعد خطوات وانتظر. ركض الصبي وراءه فجرى أمامه مسافة أخرى قصيرة. توقف وانتظر وصاح الأب :

– احترس ! إنه «سخرك ايبراضن» !

فأجاب الولد :

– هل «سخرك ايبراضن» وديع وجميل إلى هذا الحدّ

– السرّ في وداعته وجماله. كيف يستطيع أن يخطف الأولاد أمثالك إذا لم يكن جميلاً ووديعاً ؟

– هل سيقودني إلى المتاهة كما تروي جدّتي ؟

– سيقودك حتماً إذا استلسمت للإغواء ومشيت وراءه.

– هل يحرس باب واو أيضاً مثل الغزال والثعبان ؟

– نعم ؟ «سخرك ايبراضن» أيضاً من علامات واو.

– ألن يقودنا إلى المتاهة ؟

– لقد اتفقنا أننا لن نمشي وراءه.

رأى الأب تردّد الابن فاقترب منه وأمسك به من يده :

– يجدر بك أن تتوقف عن المشاهدة. المشاهدة تغري بالمطاردة. ولن ترجع عن متابعته ما لم تشح ببصرك عنه. إنه كالسراب. إنه سراب !

جرّه من يده وانحنيا فوق الأرض بحثاً عن الترفاس.

قال الأب :

– لو حالفنا الحظ وعثرنا على الترفاس فسوف تنسيك الطائر.

– هل ستنسيني الغزال أيضاً ؟

قال الأب بعد مهلة :

– نعم. أظنّ أنّ الترفاسة هي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن ينسيك حتّى الغزال.

– هل هي لذيذة إلى هذا الحدّ ؟

– لا أستطيع أن أصفها بلغة أهل الصحراء. ولكن «لذيذة» كلمة لا تصلح لوصف ثمرة الواو.

استمرّ التفتيش. الأب ينحني ويتفحّص الأرض بعناية. يتفقّد الفصيص المخضرّ ويعاين تشققات الأرض باهتمام الباحث المحترف. يقتفي الولد أثره ويتنقّل بجواره. يراقبه بفضول، ويحاول أن يحاكيه في التفتيش والطلب. قال :

– كيف تبدو الترفاسة ؟

أجاب الأب بلا اكتراث :

– جوهرة تلدها الأرض وتخرج من الطين سعياً وراء النور.

– وكيف تلد الأرض جوهرة ؟

– كل الجوهرات بنات الأرض.

– ولماذا تسعى إلى النور ؟

– لأنّها تحن إلى الأب. تريد أن تشاهد أباها الذي يسكن السماء.

– وهل يسكن أبوها السماء ؟

سكت الأب. ظلّ يخطو ببطء، منحنياً على العشب، يلوي يديه وراء ظهره. قال :

– ألم ترتو الأرض بحبّة المطر ؟ السماء وهبتها الحياة في قطرة المطر.

سأل الابن بإلحاح :

– ولكن لماذا تريد أن تلتحق بالسماء ؟

ابتسم الأب :

– كلّ الأشياء التي تولد في الأرض تسعى دائماً لأن تلتحق بالسماء. الإنسان أيضاً تلده الأرض ويسعى للالتحاق بالسماوات. كل الأشياء الأرضية تظنّ أنّ الأصل في السماء، في النور.

– جدّتي تقول إنّ في السماء لا يوجد شيء غير الفراغ والريح.

– لا تستمع لما تقوله جدّتك.

رفع رأسه وتوقف عن البحث. تفقّد الأرض بنظرة شاملة. قال :

– يحسن أن نفترق. الترفاس يحبّ الخلوة.

هتف الابن :

– الخلوة ؟

– الترفاسة ثمرة سرية. الترفاسة مثل الجنّ، تعتزل وتختلي بنفسها مثل الكنز. لا يعثر على الكنز إلاّ المعتزلة. واصل أنت البحث في السهل، وسأجرّب أنا البحث في المنحدرات.

اعترض الولد :

– ولكنّني لا أعرف لها شكلاً.

– ليس من الضروري أن تعرف لها شكلاً كي تجدها. إذا اطمأنت إليك فسوف تطلع لك من تحت الأرض. ألم أقل لك إنّها شبيهة بالجنّ ؟

– جنّ !

– ستجد شقوقاً في لحمة الأرض. قُلاع من الطين. تلك إشارة الكنز.

افترقا.

بقي الابن يفتّش في أرض السهل، وذهب الأب شمالاً لفحص الشعاب الصاعدة إلى الرابية الحمراء. استمرّ البحث حتّى العشية عندما صاح الأب بالنداء ولوّح بيده في الهواء إشارة البشارة. هرع إليه الابن فقاده من يده إلى موقع الكنز. انحنى الولد فوق كوم صغير من الطين في حاشية المنحدر. تشققت الأرض الحمراء وارتفع فوق الأرض نتوء دائري غامض، تخلّلته شقوق وثغرات، كما حمل على ظهره، في تمرّده على سلطة الأرض، حجارة وحبيبات حصى.. حاولت الأرض أن تستردّ جنينها فلاحقت الثمرة الخفيّة بأكداس التراب والطين، ولكنّ الحياة انتصرت في الكائن الخفي فمزّق القماط الأرضي في القمة ورفع رأسه ليرى الضوء. تبدّى الرأس في الجزء العلوي فكانت الحية في الانتظار. سبقت الإنسان مرة أخرى وقضمت، بالنّاب المسموم، الجزء العلوي من الرأس لتمنعه من الوصول إلى النور، إلى السماء، وفرّت بالعصارة، بالثمرة، بالكنز، بالخلود.

تابع الأب الأثر البشع. العلامة، المرقطة، القبيحة، على الأرض، إشارة العدو الخالد الذي خدع الجدّ الأوّل فسرق منه واو وطرده إلى المنفى ليعيش العبودية والفناء. الثعبان اللئيم سبقه إلى الكنز وأخذ البكارة. ولكنّ الثعبان جاء بالسرّ أيضاً. دسّ له في الترفاسة، في ثمرة الجنّات، تميمة ستفتح له أبواب الوطن الأوّل. أبواب واو.

مسح الأثر بنعله خفية عن الابن وقال بخشوع :

– ألا ترى أنها تشبه «إدبني»[1] ؟

جثا على ركبتيه بجوار الكنز الدّفين. قال بنفس الخشوع:

– إدبني يخفي رفات الأسلاف، ومثوى الترفاس يحجب السرّ. يحجب المفتاح الوحيد الذي يقود إلى واو.

هتف الصبيّ :

– هل الترفاس هي المفتاح الوحيد ؟

ولكنّ الأب دعاه، بيدين مرتجفتين، لممارسة شعائر الكشف، همس بقداسة :

– اقترب !

اقترب الابن خطوة. أمسك الأب بيده. غرقت اليد المتردّدة، الخجولة، في اليد الخشنة، الكبيرة، الراجفة أمام الجلال الذي يحسّه كل من شرع في نبش قبر من قبور الأسلاف. كل من أراد أن يزيح الغطاء عن الكنز المغمور منذ آلاف الأعوام. إنها الرعشة التي تنتاب المجذوب في لحظة الوجد التي ينتظر فيها أن يرى وجه اللّه. امتدّت يده، امتدّت يدان متحدتان في يد واحدة، وأزاحت الغطاء. تهاوت قطعة الطين، ولكنّها لم تتهشّم. ظلّت متماسكة، صامدة، برغم جفاف الأرض وتبخّر النداوة في الطّين. تبدّى الوجه الخفيّ. انكشف الحجاب عن

(1) إدبني : قبور الأسلاف المستديرة، ينام عليها الطوارق فتنبئهم بالمستقبل وتخبرهم بأحوال المسافرين. (راجع بهذا الشأن هيرودوت «التاريخ»).

رؤيا حقيقية. لم يلمع الرأس في الضوء بالبياض، ولكنه اكتأب باللون المعتم وسلّط نوره الجليل إلى الداخل، إلى الخفاء، إلى المجهول المتقوقع في مكان ما في الجوف، في العمق، في الباطن، في نفسه، في الحدّ الآخر الذي يتلامس مع السرّ، ويستمدّ وهجه وغموضه وجلاله من اللّه.

الترفاسة كانت من الصنف المعتم الذي يميل، في لونه، إلى الاحمرار.

قداسة اللحظة انتقلت إلى الابن اليافع فهتف بصوت مخنوق :

– إنها حمراء. ظننت أنها ستكون بيضاء.

ظلّ الأب يتأمّل القمة النفيسة. الرأس الخفيّ الساعي للالتحام باللّه. الجنين المتمرّد على سلطة الأرض. التوّاق للتحرّر من كوز الطين والخروج إلى خلاء الحرية. توقّف عن متابعة الكشف. تمتم بخشوع :

– لون الماء من لون الإناء[1].

– لا أفهم.

– حمراء، معتمة بلون الأرض الطينية الحمراء، ولكنها ستكون بيضاء لو عثرنا عليها هناك في رمل السهل.

(1) العبارة للشيخ الجنيد. وقد أولاها محي الدين ابن عربي اهتماماً خاصّاً. وكرّس لها دراسة في «فصوص الحكم».

أزاح قطعة أخرى بنفس اليد المزدوجة، الراجفة المتوترة بالشوق والعشق والحنين لاكتشاف الكائن المجهول. هنا تبدّت العلامة، إشارة الغناء التي تركها ناب الثعبان في جسد المولود الخفيّ. طابع السرّ الأزلي. لعنة الخطيئة الأولى، ومفتاح الإنسان إلى التيه والمنفى وصراط الزّوال.

لمعت عينا الأب بالبلل. غالب شجناً مفاجئاً. تمايل يميناً ويساراً قبل أن يضبط النفس من جديد ويعود لنبش الكنز.

انتهت مراسم الكشف.

في المساء بدأت شعائر الخلاص.

5– الـوطـن

أشعل الأب ناراً، وجلس الابن يداعب الترفاسة بين يديه، يتأمّلها طويلاً، ثم يرفعها إلى أنفه. يستنشق الشذى الخفيّ ويترنّح بعينين دامعتين مردّدا :

– اللّـ– ا– ا– آه...

يتابعه الولد بابتسامة غامضة، يحرّك النار بالمسعر ويغذيها، بين الحين والآخر، بالحطب. تأمّل العراء الجليل وقال بتباهٍ :

– أنت الآن في أرضك. على أبواب واو.

توقّف الولد عن استنشاق الثمرة. اعترض دون أن يتوقّف عن تفحّص الترفاسة.

– ولكنّني لا أرى جدّي.

اختفت ابتسامة الأب. تمتم بكآبة :
– سوف تراه قريباً.

مدّ يده وتناول الثمرة من الابن. قلّبها بين يديه. تفحّص النقوش السرية التي كتبتها الأرض على بدن الجنين وقال في نفسه : «إنها التمائم التي تضعها الأم في رقبة الوليد كي تعصمه من أخطار الرحلة». أزاح الجمر بالمسعر جانباً وهيّأ لها مكاناً في رماد النار. دسّها في أحساء الرمل الملتهب وجلس يتنصّت لمرثيتها وهي تتوجع في الرمضاء. حاول الابن أن يلقي بسؤال فأسكته بنظرة صارمة، أنصت للعويل الفاجع. حاول أن يميّز الأصوات ويقرأ الدّلالة في رموز الضجيج الأليم :
– فسـ..سـ..س..س....

ثم تحوّلت النسنسة إلى صفير. الصفير ارتفع في نحيب كئيب. والنّحيب صعد في نواح حقيقي. استجاب سكون الصحراء لفجيعة الثمرة المقدّسة. فناحت الجنيّات، ولطمت الحوريات الخدود، وهدّد الأفق بالظلمات. ووعدت الصحراء ببكائية طويلة. بدأت الثمرة السماوية تنزف.

رشح السائل القاني من القلب. وسمع الأب النّعي الفاجع. نزلت من مقلته دمعة كبيرة، ولكنّ الابن، الأسير، المشدود إلى الترفاس والوطن، لم يلحظ ضعف الوالد.

تنصّت الأب فسمع لغة المناحة. سرّ الميلاد وفجيعة الحياة. فرح الجنين بالوجود، ومعاناة المسيرة التي ينفقها في الألم والتّيه والمنفى. المسافة الفاصلة بين الميلاد ومملكة النسيان هي

الكابوس. أغنية الفرح لا تبدأ إلاّ بعد الخروج. السكينة لا تتنزّل إلاّ بعد اجتياز المسافة الأرضية، وعبور الكابوس إلى أرض النسيان مرة أخرى. في لحظة العبور يفقد الشقاء البشري معناه فتفتح واو أبوابها. فلا تبكِ وأنت تتأهّب لدخول واو. ولا تندم على رحلة العبور، لأنّ البقاء في ذاكرة الغيب أهون من النزول إلى صحراء الذاكرة، ويوم تقفل واو وراءك أبوابها وتستقبلك عارياً أفضل من اليوم الذي خرجت فيه منها مفوشاً مكابراً ملعوناً بالمنفى والضياع.

أكملت الثمرة السرية موالها. أخرجها من رمضاء النار موسومة بالنزيف وسياط الجحيم. اختفت تمائم الأم واكتوت بقشرة العذاب. ولكن ندبة الرأس لم تتضرّر. الندبة الجليلة التي مسّها الناب المسموم. في الندبة يكمن السرّ. الندبة هي المفتاح.

وضعها على لوح حجريّ صغير. تركها حتّى بردت. توقّف الزيف. شقّها بالسكين إلى نصفين. تعمّد أن يترك الجزء العلوي المحفور بالنّاب. قسّم النصف السفلي إلى قطعتين. ارتفعت الرائحة. تناقل هواء الصحراء الشّذى السرّي. الأريج السماوي الذي تتخذه الثمرة فخّا للإيقاع بالمعاندين الذين يرفضون أن يذهبوا إلى واو إلاّ مكبّلين بالسلاسل.

تناول الابن قطعته. راقبه وهو يقضمها. ثم وهو يلوكها. ثم وهو يغمض عينيه ويتمايل مجذوباً. من عينيه سالت خيوط الدّموع. فتحهما وأغمضهما دون أن يتوقّف عن المضغ

والجذب والبكاء.

قال الأب وهو يتناول نصيبه :

– كنت أعرف أنك ستبكي.

تمتم الولد دون أن يمسح دموعه :

– هذا لا يصدّق !

– أنا أيضاً بكيت عندما أكلت الترفاس أوّل مرّة.

– هذا لا يصدّق !

– اجذب. وابك. فعندما يقف الإنسان على باب واو يستطيع أن يبكي، لأنّ الخجل لن يعود له معنى.

استمرّ الابن يجذب ويبكي. استمرّ يبكي حتّى بعد أن توقّف عن المضغ وبلع اللقمة السحرية.

سأل الأب :

– هل ذقت أشهى من هذا ؟

هزّ الولد رأسه بالنفي. تمتم مترنّحاً :

– أبداً.

هنا اقترب الأب من القطعة التي تحمل الندبة. النصف المهيب المطبوع بناب الخلود. تهيّأ للوداع. شطره نصفين. تنهّد بعمق. ظلّ يتأمّل قطرات النزيف التي تركتها الثمرة الجريحة. ذبح الحجر وجرّ عليه السكين ثلاث مرات. توقف وقدّم القطعة للابن.

هنا ارتعشت اليد حتّى كادت القطعة أن تسقط . تلك لم تكن رعشة ولكنها انتفاضة.

تابعه وهو يقضم نصيبه. في البداية أغمض الصبي عينيه وعاد يترنح من الوجد والانتشاء ثم بدأ يتراخى ويغيب دون أن يكفّ عن الجذب.

بدأت شعائر الوداع.

سقط إلى الوراء. لامس ظهره الأرض. من شفتيه تفصّد زبد ناصع.

تمتم بصوت واهن، خفي :

– أبي، لا تتركني.

اقترب الأب زحفاً على ركبتيه. أمسك بمعصم الابن، انحنى فوق البدن المسجّى قال :

– لا تخف سوف نذهب معا، سنترافق إلى الأبدا.

ولكن الغلام فتح عينيه فجأة فلم ير الأب فيهما سوى البياض. تحامل على نفسه كي يتكلّم :

– جدّتي قالت إنك ستفعل هذا.

قفز الأب إلى الحجر. خطف قطعته المطبوعة بندبة الوداع. ألقى بها في فمه. بلعها دون مضغ. بعد قليل أحسّ بالخدر قفز الأب إلى الحجر. خطف قطعته المطبوعة بندبة الوداع. ألقى بها في فمه بلعها دون مضغ. بعد قليل أحسّ بالخَدْرِ والسكينة والصفاء. تمتم :

– لا تستمع لما تقوله جدّتك

تساءل الابن بصوت الوداع :

– لماذا فعلت ذلك ؟

همهم الأب :

– وكيف تريد أن تذهب إلى الوطن ؟

علا هدير الدفوف. رأى نصل السكين يرتفع في الهواء ويلمع تحت شعاع القمر. سمع صرخة الشيخ: «لا أرى سعادة الإنسان أكثر من أن يُفْنَى عن نفسها[1]. ولن يفوز بالنعيم إلا من وجد الشجاعة ليخرج للناس قلبه». استجاب المريد بآهة طويلة، فاجعة قبل أن يهوي على الصدر بالنسل. تمدّد النصل. بلغ النبع. نبع النجاة، انقطعت آهة الوجد الفاجعة وتحوّلت من «اللّـ– ا – ا– ا – ا – ه» إلى : «آ– آ– آ– آ– آ– ه» انقطعت كي تتواصل، ربما في الغناء، في الخلود. ترنّح الكوكب الصحراوي لأول مرة. انكفأ الأب على جسد الابن. استمرّ يمسك بيدي الوليد. سقط الرأس على الرأس. غاب جسد الابن في جسد الأب. توحّد الجسمان في بدن واحد لصيق بالأرض. أفلت الطائر من القفص وطارت شعلة النور. بقي كوز الطين هامداً متّحداً، مستسلماً للتُّراب. في العراء الحزين الخالد، اكتمل نزول العتمة.

موسكو

1991/6/5 م

(1) النصف الأوّل للجملة لفريد الدين العطّار النيسابوري «منطق الطير».

مسلك السّراب

القيلولة.

امتـدّت. تمدّدت. تمادت في الامتـداد. تـواصلت في الأفق. لم يعد ثمّة أفق، فتواصلت في الفراغ المفضأ الممسوح بزرقة خفيفة، فاجعة. فتدفّق فوقها سائل بحري، شيطاني، فاكتسبت الدائرة لون السماء الكامل. وحّدها الامتداد، فناء التواصل المفاجئ، بالشطر الآخر، بالقرين الفحل، الذي يسحقها منذ الأزل بجسده الوثني الأزرق، لتعانقه، محمومة، وتلتحم بالنصف الأعلى. وجدت نفسها تكتسب لون المعشوق، وطيشه، وقساوته، التي لا تبلغ الذروة إلاّ مع حلول القيلولة. مدّ اللعين الآخر، القواد، المدعو سراباً، لسانه، لسان السخرية والقدر والألعاب، كاشفاً عن نوايا خفية للاستدراج والاستدعاء والإغواء، إغواء التائهين البلهاء إلى صراط الفناء. في ذلك اليوم أصبحت حتّى الواحات التي اخترعها السراب وبناها في الأفق مصيدةً للعابرين، أتقن الثعلب القديم إنجازها زيادةً في

الاحتياط وإمعاناً في إتقان الفخ. فخ اللامكان، المجهول، حيث لا ظلّ، ولا واحة، ولا نجاة.

تموج بالبريق وتغنج. صعد المروج المكشوفة ونزل الوديان الفارغة ليملأها بالزئبق ويسقيها بسيوله الفضية اللئيمة، فإذا تقاعس العطشان، أو تجاسر التائه على الإبطاء في الاقتفاء، توقف عند الرابية وانتظر. يغمز بعين ويغري بالتسكع جيئةً وذهاباً كمتمنّعة راغبة، مجدّداً دعوته، حاثّاً ضحيته على الاستجابة للنداء الأنثوي.

تتمادى الشمس المكابرة، وتتجبّر أيضاً. تضاعف من جهودها في حرق الأحياء والأموات : يشتعل النبات الميّت، يستغيث الشجر اليابس، وتصرخ الحجارة، وتتوسّل الرحمة المستحيلة، فلا يزيد التوسّل الكوكب المتوحّش إلاّ استفزازاً، فتتضاعف شحنة العذاب انتقاماً وإرهاباً.

القيلولة.

اعتصما بسدرة وحيدة في العدم. استند طويل القامة، نحيل البنية، إلى جذعها شمالاً، واستند القصير، الممتلئ، إلى الساق جنوباً. مدّا أرجلهما غير آبهين بمسامير الشوك، تعلّقا بالأفق القاسي، المغمور بفيض المخادع الخالد، ثم طفقا يلهثان.

أخيراً تكلّم البدين :

– قلت لك منذ البداية إنّ الخروج عن طريق «دنبابة» مجازفة. من خرج من الطريق المرسوم اقترف حماقة وسلّم أمره للمخادع الشيطان. هذه شريعة الصحراء منذ الأزل.

قال النحيل بسذاجة طفولية :

– لا يؤدي إلى «عوينة ونين» طريق «دنبابة» وحده. أردت أن نصل إليها من الأرض الشمالية المجهولة. لا تحن للصحارى المجهولة ؟

عاد البدين :

– من اختار الحياة في الصحراء عليه أن يلتزم بشريعتها. هذا ما يقوله الشيوخ أيضاً.

فعاند النحيل بنفس الطفولة :

– لم أختر الحياة في الصحراء.

– لم تخترك هي أيضاً.

– إذا لم أخترها و لم تخترني فكيف الخروج من الورطة ؟ ماذا يقول الشيوخ في هذه الخصومة ؟

أطلق هسيساً مكبوتاً، ضحكةً صبيانية خبيثة. فقال البدين :

– لا حلّ للخصومات إلاّ بالتنازل من الطرفين. ألم نتعلّم من الخصومات القبلية ؟ ولكن الخروج من الطريق الذي رسمته القوافل يبقى خيانةً للعهد القديم.

سرح النحيل مع حيل المخادع الخالد في الأفق. تكلّم فحلّت التعاسة محلّ الطفولة في نبرته :

– ولكن ماذا أفعل بالمجهول الذي ينادي ؟ بالسرّ الذي لا يريد أن يتوقّف عن استدعائي واستهوائي ؟ ماذا تساوي الصحراء إذا لم

نستجب لدعوتها ونذهب، مع السراب، للوقوف على المسافات الخفيّة ؟ والمعشوقة لن تستجيب، الصحراء ترفض أن تتعرّى بدون نذور. المجهول لا يزيح القناع بدون خروج من الطريق الذي رسمته القوافل.

عمّ السكون. أقبل الذباب. ذبابتان. مرسلتان من المجهول. من أين يأتي الذباب في الصحراء ؟ ينزل ضيفاً على المسافر بمجرّد أن يحطّ في المكان كأنّه يتولّد من الفناء.

قال البدين :

– أتفق معك في شيء واحد : الطريق المرسوم دائماً مستباح ولا خير فيه. يهرب من أمامه العشب ويختفي الترفاس. الترفاس يهرب من كلّ المساحات التي تعبرها القوافل. فهل الإنسان مخيف إلى هذا الحدّ ؟

سكت مهلة ثم استدرك :

– أفهم عندما يتعلّق الأمر بالغزلان والوديان، ولكن أن يفر من وجهه حتّى العشب والترفاس فهذا محيّر بعض الشيء. أم أنك ترى رأياً آخر ؟

لم يجب النحيل فأكمل البدين :

– ومع ذلك فإنّ ثمن الخروج أقسى. وها نحن نبدأ في دفع الثمن.

عقّب النحيل ساخراً :

– وهل توقفنا عن دفع الثمن منذ زحفنا ونطقنا وعرفنا ؟ سنظلّ ندفع خرجنا أم لم نخرج.

– ولكنّ الدفع بالتقسيط أهون. أيسر من أن تُجبر على دفع كلّ شيء مرّةً واحدة.

تمتم النحيل :

– ربما كان ذلك أريح..

اعترض البدين :

– العطش قاهر. دفع الثمن بالعطش وحشي، حيواني، مثل الانتحار.

قال النحيل وهو ينهض واقفاً :

– تبقى البركة في الحركة. الأرض المجهولة لا تحبّ السكون.

اعترض البدين ببرود :

– ها أنت تخطئ مرّة أخرى. وصية الشيوخ للتائه أن يلزم السكون. نجاته في البقاء بالمكان.

– هل تصلح وصايا الشيوخ لكلّ زمان ومكان ؟

البدين تجاهل السؤال اللئيم وقدّم إيضاحه الخاص :

– الحركة للتائه تسكّع ميؤوس. يصرف الجهد ويستنزف الماء المخزون. هذا لا يجهله حتّى الأطفال.

قال النحيل وهو يتهيّأ لمواصلة السفر :

– هذا يصلح لمن نفد منه الماء وهو يسير في الطريق المرسوم، ولكنه حكم بالموت بالنسبة لمن جازف بالخروج. علينا أن نتولى أمرنا بأنفسنا لأنّ السابلة لا يعبرون الصحراء المجهولة إلاّ إذا كانوا ضالّين مثلنا. ونحن لن نتحمّل الأمر إذا لم نتحرّك. هيا بنا !

اعترض البدين بتوسّل :

– انتظر. هناك سرّ آخر لابدّ من بحثه أوّلاً. هل نسيت أننا في قبضة المخادع الأبدي ؟ سيلعب بنا. هذه فرصته. يروق له أن يستغلّ هذه المآزق أبشع استغلال. إنه غدّار !

تهكّم النحيل :

– وهل سيكون أغدر من أيّ شيء آخر ؟ إذا لم يقم هو بتولي «هذا» الأمر فسينوجد من يستعير دوره لتنفيذ المشيئة.

– أنت تملك الجواب لكلّ سؤال. أعترف الآن أنّ هذا ما كان يتعبني فيك منذ الطفولة. هذا لا يليق.

– ألا ترى أنّ من المتأخّر الآن أن أغيّر من نفسي ؟

– لِمَ لا ؟ الشيوخ يجزمون أنّ تغيير الطبع هو الأمر الوحيد الذي لا يفوت أوانه.

– ومع ذلك يبقى أصعب من المرور تحت رقبة الجمل في غفلة منه !

تفقّد النحيل الأفق. وجده يعوم في سيول المخادع. تجمّد الهواء. اقترب كوكب النار أشباراً أخرى من الجسد الصحراوي العاري. طنطن الصمت بموّاله الحزين. سأل بروح الطفولة :

– هل نذهب ؟

أجاب البدين بروح طفولية أيضاً :

– في مثل هذه الأحوال كنّا نحتكم إلى القرعة في الطفولة.

وافقه النحيل وهو يجلس على رؤوس أصابعه :

– نعم. القرعة. التفت إلى الوراء.

ولّى البدين وجهه صوب الجذع. تناول النحيل عوداً يابساً من السدر. كسره إلى نصفين غير متساويين. بسطهما في كفّه وصاح برفيقه أن يلتفت ويختار. تأمّلهما البدين لحظةً، تفحّص زميله بنظرة شكّ قبل أن يضع يده على العود الأطول. تبادلا نظرةً صامتةً، ثم أوضح النحيل بحزن :

– الآلهة وقفت في صفّك. كسبت الجولة الأولى. أمامنا ثلاث جولات.

جاء دور النحيل كي يشيح بوجهه. وعندما أذن له الرفيق اختار نفس العود. ابتسم البدين وأعلن :

– واحدة بواحدة. الآلهة لا تتخلّى عنك أيضاً.

استمرّت القرعة.

انتهت بالتعادل.

راقبا حركة المخادع في الأفق. يتموّج ويتغنّج. يقترب ويهرب. يتلوّى ويطلع لسانه. اقترح النحيل وهو لا يزال يقف فوق رأس البدين :

– لم يبق أمامنا إلاّ المصارعة.

هتف البدين باستنكار :

– لا !

قال النحيل ببرود :

– كنّا نفعل ذلك في الطفولة أيضاً عندما نتعادل في القرعة.

اعترض البدين :
– انتظر. كنّا نفعل ذلك حقّا ولكن ليس في مثل هذا الموقف.
هل تقدّر كم علينا أن نستنزف من ماء ؟
– لا أرى طريقاً آخر.
– لا !

سكت النحيل. أحكم لثامه حول وجهه. قال :
– سأذهب.

لم يجب البدين. أخفى عينيه وراء اللثام وارتفع صدره بتنهيدة عميقة. ردّد النحيل :
– لم يبق لي إلاّ أن أذهب وحدي.

طنّت ذبابة. نفس الذبابة التي منّ بها الفناء.

تحرّك النحيل. مشى متباطئاً، يدحرج الحجارة بنعله القديم، مطأطئاً. توقّف فجأةً. التفت وراءه. ظلّ الرفيق يسند رأسه إلى ساق الشجرة ساكناً، يسدل قناعه على عينيه. تردّد لحظات. ثم التفت ومشى وراء السراب بخطوات واسعة. ولا يدري كم مضى من الزمن، ولا أيّ مسافة قطع عندما سمع النداء :
– هيـ..يـ..يه. ارجع. قبلت المبارزة. هل ظننت أننا نستطيع أن نفترق بسهولة ؟

تقابلا في منتصف الطريق. قال النحيل :
– نعم. نحن لم نفترق منذ الطفولة.

فاحتجّ البدين :
– ولكن لا تظنّ أنني تنازلت عن البقاء. مازلت أظنّ أنّ النجاة في السكون.

ابتسم النحيل و لم يعقب.

عادا إلى السدرة معاً. فكّر البدين بصوت مسموع :
– ربما كان من الأفضل أن نرجئ المصارعة حتّى العشية.

اعترض النحيل :
– وهل للظمآن عشية ؟ هل يطيق العطشان انتظاراً ؟

شمّرا على ساعديهما. تشابكا. التحما. بدأ العراك. استمرّ طويلاً. نزف منهما عرق غزير. أغلى عرق نزف منهما طوال حياتهما المشتركة. قطرة منه أنفس من قطرة الدم. ولكنّ الصراع، المجازفة الثانية بعد مجازفة الخروج من طريق القوافل، لم تسفر إلاّ عن تعادل. لم يستطع أيّ منهما أن يلقي الآخر أرضاً.

انطرحا تحت السدرة يلهثان، يحاولان أن يستدعيا اللّعاب الهارب مع حبّات العرق النفيس. اشتكى البدين :
– قلبي جفّ. بدأ يتيبّس. قلت لك إنّ النزال في وضعنا انتحار.

قال النحيل بقساوة :
– القدر هو الذي أراد لنا أن نفترق. لا فائدة من اعتراض المصير.

البدين لم يجب. تابعا أنفاسهما المتتابعة. عاد النحيل :

– لماذا تستنكر الفراق ؟ الفراق ينتظر كل الناس. وكوننا لم نفترق في الماضي فهذا لا يعني أننا لن نفترق أبداً.

استمرّا ينزفان سائلاً أغلى من الدم. سائل النداوة والحياة.

نطق البدين ببشارة :

– يخيّل لي أنّ ميزان النهار قد اختلّ، ونسمة بحرية ستهب من الشمال.

ولكنّ النحيل أجهز على البشارة بمرثية :

– لا يكون الصحراويّ صحراويّا إذا لم يتعرّض لخطر الموت عطشاً.

أراد البدين أن يواجه المرثية فغنى. روّض لحناً شجنياً ولكنّ النبرة طغت عليها الكآبة فأخفق في إنقاذ الموقف.

نهض النحيل. قال بروح الطفولة :

– سأذهب.

لم يجبه البدين. لم يغيّر من وضع الاستلقاء. تابع الفراغ.

تحرّك النحيل.

قطع مسافةً. توقّف. التفت. صاح :

– هل قال الشيوخ أنّ السراب مخادع ؟ أنا أقول إنه يلهو. يلعب. يستهوي، لأنه يعشق الدعابة. غنجه يخفي وعداً، ووراء قناعه اللمّاع يوجد دائماً أمل. لهوه بريء، صدّقني !

لم يستجب البدين للنداء. استمرّ يراقب الفراغ، مستلقياً في ظلّ السدرة.

عاد يصيح :

– الدرويش يقول إنّ لون الماء من لون الإناء، فلماذا لا نفترض حسن النية ونسلّم بأنّ لونه من لون الماء بدل رجمه بالتهم والألقاب ؟

ضاع النداء الثاني في سكون الصحراء. تقدّم نحو الشجرة خطوتين وقال بصوت مكسور :

– ألن ترافقني ؟

صمت.

– هل نفترق حقّا ؟

مع كل صيحة يزداد الصمت طغياناً وسلطاناً وجلالاً.

يئس. التفت إلى الوراء وتحرّك في الاتجاه المعاكس.

تابعه البدين حتّى تسلّمه المخادع. لعب به وقتاً، رفعه ثم حطّه، مزّقه وفصل رأسه عن كتفيه. جزّأه إلى قطع شفافة، رهيفة، خيالية، قبل أن يبتلعه ويخفيه في حدود المجهول، في حدوده السرية. فأين رفيق السفر ؟ أين صديق الطفولة ؟ ماذا ستفعل يا مخادع، يا صانع المكيدة، بجسم لم يحمل إلاّ الطفولة، و لم يحلم إلاّ بالأسفار والأشعار؟ هل تجرؤ، يا متآمر، يا أناني، أن تنتزعه وتتحايل، كي تأخذه إلى الأبد ؟ في الطرف الآخر: وراء الأفق، بدأ الآخر، المعاند الذي لم يتوقف يوماً، و لم تتوقف طفولته الأزلية عن تحريضه للمضي إلى الأمام، فشاء، في ذلك اليوم، أيضاً، أن ينفذ وصيتها القديمة، ويمضي إلى الأمام. يطارد المخادع،

يفتّش عن سر وراءه. يطلب القمر خلف الساهور. يبحث عن النار تحت ستار الدخان. الماء وراء سحابة البخار. وإلاّ من أين لهذه الغلالة السحرية أن تأتي إذا لم يتخبأ في مكان ما، خلفها، غدير كبير تخلّف من سيل موسمي، أو تجمّع إثر مطرة غزيرة من سحب عابرة ؟ كيف تستطيع النار أن تتشبّه بنقيضها الماء ؟ كيف تسمح الصحراء أن تلعب القوى الخفية بشرعها وتقلب نظامها وتسنّ لها منطقاً دخيلاً، غريباً ؟ كيف تجيز هذا المسلك اللئيم الذي يهدّد بالخلل وقلب كلّ الموازين ؟

أين حكمتك يا صحراءنا العجوز ؟

ولكن من قال إن هذا السلوك شذوذ ؟ من يجزم أنه عدوان وتخريب لطبيعة الصحراء ؟ ألا يمكن أن يكون دعوة ؟ ألا يقول المستهتر : تعال، اتبعني وسوف أقودك إلى الغدير، أو البئر ؟ ألا يكون مسخراً بدوره من العجوز لتنفيذ مشيئة أخرى، مناقضة ؟ ألا يفصح مسلكه عن تحريض على الذهاب إلى الأمام ؟ ألا يبشّر أنصار البقاء والاسترخاء بالقصاص والفاجعة ؟ أيّ سرّ في تلاعب اللّعوب ؟ لماذا لا تريد أن تخبرني، يا صعلوك، أين خبّأت الماء ؟ أين خبّأت الماء ؟ أين ؟

تتبعه حتّى المساء.

ملاحقة اليوم الأوّل لم تسفر عن الفوز.

قطع مسافة ليلاً، وتابع المشوار في اليوم التالي. كان يترصّده، يناغيه، يناجيه، مثل مدلّه مسلوب يلاحق

المعشوقة اللّعوب التي تتملّص وتتخلّص وتتحوّل، مبتعدةً، مع كلّ نداء.

ثم بدأ ينهار ويفقد التوازن. ترنّح وتبدّت الأشياء في العتمة. حتّى السراب احتجب وكفّ عن اللعب. ولكنّ القبلي تراجع وتغيّر مسار الريح.

ولو لم يهب البحري من الشمال لسقط. تحامل وواصل. صعد الرابية مستعيناً بيديه. هجع في غيبوبته. ما لبث أن غفا من الغيبوبة، وربما من الحلم، رأى نفسه ينهل من غدير فضّي، بلون السراب، فلا يرتوي. بل كلّما شرب أكثر كلّما اشتدّ به الظمأ. ولكنه لم يتوقف عن الشرب. استيقظ مع بروز الشعاعات الأولى، ولكنّ النهار لم يبشّر بالصهد. استطاع البحري أن ينعش الخلاء.

ولكنّ ذلك لم يمنع قلبه من التحجّر، كما لم يبلّل له ريقاً. ظلّ هامداً، مجهداً، مهلهلاً. في النهاية فتح عينيه. فتحهما على الجانب الآخر، المجهول، من الرابية الجبلية، فعاد وأغمضهما. يقيناً أنّ الحلم يتواصل. الغيبوبة مستمرة. دعكهما بيديه. وانتزع جسده من الحجارة. كانت البحيرة تستلقي في الحضيض، أسفل الرابية، يلعب النسيم الشمالي الرحيم بصفحة مائها الذي تعتّم وتكدّر أثناء الجريان، فتراقص بمرح تحت الشعاعات البكر. فهم في لحظة سر البحري. أدرك أنّ النسيم كان الإشارة التي جاءت بخبر أمطار هطلت في الجبال الزرق فجرى الماء وجاءت السيول

لتصنع له المفاجأة. الغدير. النجاة. نزل المنحدر. سقط. تدحرج. سلخته الحجارة واقتطعت لحماً من بدنه. ولكنّه لم يحسّ. لم يعِ. لم يعقل. حتّى دسّ رأسه في المستنقع البشوش. مستنقع الحياة.

حمد الآلهة وشكر السراب. وفَى بالوعد، وأهداه الغدير.

ولكنّه ما لبث أن فهم أنّ الفوز لم يكن كاملاً. نسي الزمزمية عند الشجرة فاستحال عليه التزوّد بالماء. ظلّ أسيراً بجوار المستنقع. يرابط حول الغدير ويدور كوحش محبوس، في حين تتمدّد حوله صحراء إلى كلّ الجهات، وتمتدّ بلا نهاية.

فهل هي مكيدة أخرى من مكائده الشريرة ؟

في قيلولة اليوم التالي راقبه، عبر المدى، وهو يتغامز ويتلامز ويطلع له لساناً ساخراً.

الدار البيضاء

1991/2/28

النخلة تصلّي لأجل قاتلها

- 1 -

تذكّر عندما جاء الممسوس بالكتلة العجيبة منذ سنوات.

أقبل مع العشيّة. يجلس داخل مطيّة نزقة تتدحرج على الأرض كعجاجة الجنّ. توقفت عند القدم، وسكتت عن الهدير والولولة. خرج من جوفها ممسوسان. عرفت أحدهما، ولكنّ الآخر كان مجهولاً. هرعا إلى مؤخرة المطيّة وأخرجا الكتلة العجيبة. صندوق بجسم أسود برزت منه الأحشاء ! كأنّ اليد الممسوسة امتدّت إلى باطنه وأخرجت أمعاءه لتلويها على بدنه البرّاني. أمعاء دقيقة، مصارين غليظة، ملتوية، عروق ناتئة، أوردة رقيقة، و.. قلب كبير، خاوٍ. وضعا الجسم المقلوب على البئر. مكثا حتّى الليل لتثبيته على الفوهة. في الصباح بكّرا بالمجيء. دلدل الممسوس المجهول ساقاً طويلاً مصقولاً ومجوّفاً في قاع البئر ووصله بالجسم البشع الجاثم فوق الفوهة. ثم، بعد وقت قصير،

بدأت الكتلة تهدر وتولول، وفوجئت بالماء الحار، بدم الأرض، ينزف، ويتدفق في الفراغ، فتمصّه الشمس وتتلقّاه الرملة الظمأى، ويتبخّر في الهواء.

منذ ذلك التاريخ البعيد لم يتوقف الممسوس الجديد، الذي جلبه الممسوسان البشريان، عن الجلبة والهدير و.. إهدار الماء في الصحراء.

في الأيام الأولى ظنّت أنّ هذا العمل نزوة جديدة من النّزوات المدهشة الكثيرة التي اعتادتها من عشيرة الممسوسين. لعبة. دمية يتسلّون بها ردحاً من الزمن ثم تتعرّض للتحطيم والرّمي كما يفعلون مع كلّ الأشياء. ولكن الهدير استمرّ. والممسوس السيّد، الذي يدّعي ملكية الأرض، وملكيتها هي أيضاً، حرص، على غير عادته، على الدمية القبيحة، وتولاّها بالرعاية. راقبته وهو يتفقدها مع مطلع كل صباح. يتفحّص الأحشاء الذميمة الملوية على جسمها الأسود. يأتي بزيت خاثر ويدهن الأطراف البشعة. يمسحها بقطعة قماش. بل إنها رأته مرّات، ويا للعجب، كيف يمزّق قطعاً من لثامه المقدّس ليزيل عن جسدها طبقات الغبار وحبات الرمل. وهو عمل أثار دهشتها من مخلوق يعاف حتّى أولاده، و لم تره يوماً يمدّ يده لمداعبتهم أو يتنازل ليعطيهم حتّى ابتسامة. ولا تعرف لماذا أثار فيها هذا الحنان إحساساً غامضاً بالخطر.

و لم يطل انتظار الخطر.

فبعد أن سيطرت على نفسها وعوّدتها على احتمال الدّمْدَمَة والهدير المستمر بدأت تحسّ بهروب الماء في الأرض. بل إنّها عاشت لحظة بلحظة كيف يتراجع ويتضاءل ويشح؟ وكلّما علت زغاريد الكتلة الممسوسة فوق الفوهة، كلّما ذعر السائل ويئس. كلّما امتصّت من الجوف وهدرت في العراء، كلّما فرّ الماء وتوغّل في سابع أرض.

بدأت تكتشف سرّ الكتلة الممسوسة، سرّ الدمية الحمقاء.

- 2 -

سنّت خطّة، وتابعت المحنة على الجبهتين: البرّانية والباطنية. راقبت الاستنزاف، وأشرفت على الماء، وهو يجري. تابعته من موقعها السماوي، برأسها المفلفل، المتهدّل كشعور الصبايا. كما تحسّست السائل، دم الأرض، ماء الحياة، بعروقها الجوانية التي اخترقت الطبقات السطحية وعبرت إلى الباطن البعيد، منذ سنوات طويلة. وعرفت أنّ النزيف المهدور يستمدّ رصيده من الينبوع السفلي. كلّما اتسعت رقعة العراء المروية بالدم الباطني كلّما تضاءل الماء في المنبع وتراجع وقلّ. وكلّما ازداد هدير الممسوسة المجنونة فوق الفوهة كلّما تضاعف تدفُّق السلسبيل وراح يتلاشى ويذوب في الصحراء الرملية الجدباء.

تضاعفت دهشتها من أفعال الممسوسين وأرادت أن تفهم معنى اللعبة الجديدة. رفضت أن تنصت للوسواس الذي تعوّدت أن تسمعه دائماً يهمس لها بأنّ كل ما يفعله هذا المخلوق باطل، لأنّه هو نفسه باطل. صدّقت في الماضي أنّ أفعاله باطلة ووافقت الوسواس أيضاً أنّ المخلوق نفسه باطل استنتاجاً من تجارب عاشتها في الواحة، ولكنّها رفضت أن تصدّق، هذه المرة، أنّ الحماقة يمكن أن تبلغ بالمخلوق الممسوس حدّا يجعله يصنع باطله بنفسه، فيحفر مثواه بيده.

في الشهور الأولى التي أعقبت استجلاب الكتلة، رأته يشقى في العراء. يشوّه وجه الأم بالمحراث، ويمزّق وجهها الجميل، الصّبور، الطيّب، بسكّة موحشة، شيطانية. نثر بذوراً وغرس شجراً عقيماً على هيئة سياج. وظلّ يروي المساحات الهائلة بالدم النقيّ، البكر، النفيس، شهوراً. ولكنّ البذر لم يطلع والشجر أيضاً مات. استدعى حكيماً في الحقول والحرث وحياة النبات فسمعته يدلي بالتعاليم :

– هذه رقعة من فئة السّبخة. عليك بتجريب الناحية الأخرى. الرمليّة. لا تبخل على الأرض بالماء والزبل والحرث. الأرض تحبّ التشطيب والماء والزبل !

بدأ رحلة أخرى في مسيرة الشقاء والباطل. يستيقظ مع القبس الأوّل ويشرع في شقّ الأرض بالفأس وتبديل قنوات الدم ليوجّه مجرى النزيف إلى الناحية الأخرى من الوادي. الناحية الرملية.

هنا كانت تلال التبر الظمأى منذ مائة ألف عام. تنتظر الكنز بجشع المعذّبين بعطش مائة ألف عام. وكلّما زوّدها بلسان

من نزيف الأرض النفيس اختفى في غمضة وطالبت بالمزيد والمزيد. احتاج الممسوس البائس أن يجبر كتلته الوحشية على العمل بلا توقف، واحتاج منه ذلك أن يضاعف العناية بها، ويهدهدها، ويمسّدها، ويدلّلها، ويمسح الغبار والعرق عن جبينها طوال الوقت. ولكنّ الصحراء لم ترتو، واليوم، الذي حلم فيه المخلوق أن يسلخ وجه الأمّ ويحفر فيه الأخاديد، مازال بعيداً.

– 3 –

زرع وغرس ولكنه لم يحصد و لم يجن ثماراً. طلع لُعَاع متباعد هنا وهناك. لم تينع الشّتلات و لم تمت أيضاً. بقي كلّ شيء هكذا شاحباً، بائساً، معلّقاً بين الحياة والموت لسبب مجهول. مضى موسم الحصاد دون أن يحصد. يئس وأهمل وترك. ولكنّ تدفّق الكنز الأرضي لم يتوقف. ونسي أن سرّ الحياة الذي أطلقه في الصحراء ليروي مروج التّبر الرملية العطشى كان قد منعه عنها، هي، من حيث لا يدري.

– 4 –

هذه ليست المرّة الأولى التي ذاقت فيها طعم الظمأ.

في السنوات الأولى. عندما غرسها الجدّ الرحيم، وهي مازالت فسيلاً، هبّ القبلي. لفح أعرافها بالصهد وحرق

جدائلها الطالعة بغبار كالسياط. في ذلك اليوم عرفت حيل الماء في باطن الأمّ. كانت عروقها قد قطعت مسافة في مسيرتها الأبدية للالتقاء به، ووصلت حدّ النّداوة. استعارت الحياة من النّدى واكتفت بالتوقّف في البرزخ. وما إن هبّ القبلي الممسوس حتّى أحسّت بالسائل السرّي الحكيم يتململ ويتراجع في الرحم. تلقّت الإشارة ولكنّها كانت أشاء[1] فلم تفهم معنى الايماء. وصل العدوّ الجنوبي الأزلي وشرع يصفعها. ولولت. طيّر جدائلها الخضراء في الهواء. استغاثت بصوت لم يفهمه أحد. شحبت. غزا الإصفرار جدائلها السبطة، المسترسلة، في يوم واحد، في حين استمرّ السائل السرّي في رحلته الباطنية، ساحباً من تحتها البساط. في تلك اللحظة بدأت المخاطبات مع الرّيح. استعطفته :

– تمهّل. آذيتني. نزعت شعري. تكاد تكسر ظهري. الرحمة !

تكلّم القبلي العجوز بلغة الحكماء الصحراويين القدماء :

– هييه ! ماذا تعرفين أيتها الصغيرة عن الرحمة ؟ ماذا تعرفين عن الحياة وعن القبلي العجوز ؟ ألم تسألي جدّاتك من العجائز ؟

(1) الأشاء : صغار النخل.

بكت. ولولت. استمرّ :

– اعلمي يا طفلتي أنّ القبلي أيضاً لا يهاجر بدون سبب. اعلمي أنّ القبلي لا يكسر ساق نخلة في طريقه من باب التسلية.

– ولكنني لا أفهم. أنت تؤذيني حقّا.

– سيمضي وقت طويل حتّى تفهمي. ستجري في باطن الأرض مياه كثيرة لتأخذي منها النصيب اللازم الذي سيجعلك تفهمين أشياء كثيرة في النهاية. ستعرفين أنّ الحياة مركّبة من الذّكر والأنثى. وإذا لم يلتقيا فلن تثمر النخلة ولن تستمرّ الحياة.

– لا أفهم.

– سيمضي وقت طويل قبل أن تفهمي أنّ القبلي العجوز هو رسول يحمل للنخلات البعيدة هبات الذكور، ذرّات اللّقاح. ألا تريدين أن تفرحي بعراجين البلح عندما تكبرين وتحتملين الحمل ؟

– وكيف لا أريد ؟ أنا أنثى !

– عليك أن تحتملي هبوب القبلي إذن.

– ولكنني عطشانة. سأموت قبل أن أفرح بالعراجين. لقد أفزع قدومك حتّى الماء في عروقي.

– لا شيء في الحياة بلا ثمن يا طفلتي. مَنْ أراد أن يتلقّى اللّقاح ويجني في المواسم العراجين الثقيلة عليه أن يصبر كثيراً ويتحمّل الصّهد وأذى الغبار. اعذريني. لقد تأخّرت. إذا لم أسرع وأجتح

فسأتأخّر عن غابات النخيل في الغابات البعيدة. لا أنفي أنني حطّمت في طريقي جذوعاً كثيرة حتّى أصل إلى المكان في الميعاد. لست أنا من خلق المسافات في الصحراء.

احتجّت بعقلها الطفولي. عقل الأشاء اليانع الذي دخل الحلبة المجهولة حديثاً وكان عليه أن يقف سنوات طويلة في الواحة متفرّجاً، متأمّلاً، متألّماً، حتّى يفهم اللّغز:

ولكن ما جدوى أن تلقّح نخلة إذا كنت تصرع في طريقك أخرى؟

هزّ القبلي العجوز رأسه على طريقة الحكماء ودَمْدَم بذلك الصوت الشجني المكتوم الذي لا يتقنه في الصحراء إلاّ العجائز والشعراء:

– هييه. سيمضي وقت طويل يا طفلتي حتّى تفهمي أنّ طبيعة الأشياء هي التي تقول ذلك. لا يلقّح القبلي نخلة إلاّ إذا صرع في طريقه أخرى. لا يولد مخلوق إلاّ إذا تنحّى له مخلوق آخر عن مكانه. سامحيني. عليّ أن أبلغ «آدار» قبل حلول المساء. وعليّ أن أبلّغ الرسالة لغابات النخيل في غدامس بعد ظهر الغدّ. إحنِ رأسك قليلاً ودعيني أمرّ!

عضّ بأسنانه على تلابيبه. شمّر عن ساعديه. زفر بعمق و.. مرّ.

مرّ فوق رأسها، يجرّ الرّمل والغبار والصّهد.

وبرغم أنّها كادت تموت عطشاً في تلك التجربة، إلاّ أنها كانت، من بين كل الفسائل المجاورة، أوّل مَنْ حمل بالعراجين في موسم ذلك العام.

– 5 –

طاردت الماء الهارب في الأعماق السفلى.

مضى الأخطبوط الممسوس يدندن ويطنطن فوق الفتحة المستديرة. يسحب الحياة من الباطن فتطلع روح الأرض وراءه. تجري في الفراغ، تغيب تحت ركام السّبخة والملح والرمل، تشربها مروج التّبر بجشع مائة ألف عام، وتتبخّر في الهواء كالهباء. كالفناء.

يروق للممسوس الشقيّ أن يأتي إلى حقل الملح، يتسكّع في السّبخة الرجراجة، يلوّث قدميه بلا معنى ويعود إلى الكوخ لقضاء هجعة القيلولة. يروق له أحياناً أخرى أن يتسلّى بالاغتسال في الجابية. يغمر وجهه وأطرافه وينهر الأطفال عندما يقتربون منه محاولين تقليده.

ولكنّ الزرع لم ينبت.

تقهقر الماء وبدأت المحنة.

شاهدت آثار الشّحوب على أحراش الأشاء الناشئة المجاورة للفوهة. رأت كيف اقترب الممسوس مرّة وتفحّص

أعرافاً دبّ في أطرافها الجفاف واليباب. وزحف الاصفرار سريعاً إلى الرأس، ليأخذ طريقه من هناك إلى القلب.

ماتت أولاً الفسائل التي بلغت من العمر حَوْلاً وحولين. وتواصل الجفاف في الأحراش. ثم...

جاء دورها.

لم تتوقّع أن تلحقها اللّعنة بهذه السرعة، وقد وقفت تشاهد تحوّلات الزمان في الواحة أزيد من نصف قرن. وأكثر ما أفزعها أنّها لم تشعر يوماً أنّها يمكن أن تزول. نعم. المدهش في الرحلة أنها ظنّت نفسها خالدة، وبرغم أنها كثيراً ما أنصتت للسكون الجليل وتمتّعت بالصحراء الأبدية إلاّ أنّها ظلّت تنتظر، كل يوم، متى سيأتي اليوم الذي ستعيش فيه. لم تفطن للّعبة، وسرحت في غيبوبة ألهتها عن الماء وأنستها الحياة الزائلة. نسيت أنّ الزوال آتٍ، والفناء حقّ، والنخلة الحكيمة هي مَنْ تلذّذت بالماء وشربت منه قدر ما تستطيع. لم تصدّق أيضاً أنّ هذه الثروة، هذا الكنز المطمور في بطن الأمّ، يمكن أن يهرب ويزول.

الآن، فقط، بدأت تفيق من الغيبوبة، وهي تحتضر وتتحسّر وتقاوم حرارة النزع الأخير.

- 6 -

أقبل الشيخ وحاوره عند الجذع. أنصتت فبدأ الحكيم:

– أنت لن تفلح في الأرض لأنّ قلبك مرهون في مكان آخر بعيد. لا تحاول!

قال الممسوس بيأس التعساء:

– وهل أستطيع أن أخلق نفسي من جديد وأتنكّر للصحراء؟

– استنزفت القربة وأضعت الماء. ألا ترى كيف هبط مستوى الماء؟ انظر إلى النخل. إنّه يحتضر. سوف يموت.

– الأرض السّبخة لا تصلح للفلاحة.

– بل أنت مَنْ لا يصلح للفلاحة.

– أنْ يتطاول الصحراوي ويمدّ يده للحرث والزرع فهذا من علامات قيام الساعة!

– صدقت. ها نحن نشهدها تقوم في الواحة على يديك. قريباً لن نجد ماء للشرب. اخرج. آن لك أن تخرج.

– إلى أين؟

– ألم تقل إنّك تركب قلبك في الصحراء؟ عُدْ إلى هناك ودع الفلاحة للفلاّح.

– ولكن أنت تعلم أني لم أترك البرّ طوعاً، إنها جدباء، لعنة نزلت عليها.

– وأنت لعنة نزلت على الواحة. قتلت النخل وستموت بالعطش.

– هذه أرضي. ابتعتها من حلالي. من ثمن بعائري. و لم أكن يوماً ضيفاً على أحد.

– لعن اللّه المال مقابل الماء. ليس الفلاّح وحده مَنْ يركع ويلثم التراب عندما يجيء ذكر الماء، ولكنّ الصحراوي يفعل ذلك من باب أَوْلى.

– لا حيلة لي في هروب الماء.

– جئت بآلتك الشيطانية فبلعت من الأرض آخر قطرة.

– لا حيلة...

– اللّعنة...

– 7 –

شهدت المبايعة أيضاً.

السانية كانت مهملة، زحفت عليها الرملة المعاندة، قبل وصول البدوي. ورثها ولد شقي، مهذار، عن أب فاضل، ناضل بشجاعة ليزرعها ويسقيها ويبقيها على قيد الحياة. وما إن مات حتّى أفلت الولد الولهان بالنساء. فأتيح لها أن تتفرّج مرّات على غرامياته مع الفلاّحات الصغيرات، بل إنه دعا إلى جذعها مرّة مطلّقة تباوية قضت معه ليلة صيفية كاملة. ولما كان من المستحيل الإبقاء على وَلَه من هذا النوع في طيّ السرّ في واحة فقد اضطرّ الشقيّ أن يهاجر إلى الشمال. وحتى عندما باع الأرض فإنه لم يكلّف نفسه عناء الحضور شخصيّاً. بل أوكل قريباً له لإنجاز المبايعة.

ولا تستطيع أن تعرف مَنْ هو الشيطان الذي دسّ في رأس البدوي فكرة ابتياع تلك الكتلة الممسوسة السوداء التي جعلت منه هو نفسه، فيما بعد، كائناً ممسوساً. وهي الصفقة الوحيدة التي فوجئت بها وتمّت من وراء ظهرها.

– 8 –

استجمعت كلّ ما تبقى فيها من حياة، استدعت آخر قطرة نداوة من أبعد عرق في الأرض المتيبّسة، لتؤدّي عبادة الصبح. آخر صلاة، راقبت الفجر البكر حتّى انشقّ الأفق عن أوّل شعاع شمسي. لم تعد الشمس الآن جلاّداً قاسياً. ففي لحظة الوداع، لحظة الفناء والانحلال، تستوي الأشياء، وتصبح الشمس نفسها قِبْلَة. يصبح الخصم طرفاً وديعاً تتهيّأ للالتقاء بها لتكون، مع القرص، العدوّ، جزءاً من كلّ واحد.

هبّت نسمة شمالية أخيرة. نسمة بحرية مثقلة بالرطوبة والمطر. امتصّت منها النّداوة النفيسة كلّها. ولكنّها تبخّرت عند طلوع أوّل موجة من أشعة الشمس المكابرة.

شاهدت الممسوس البائس يعدّ جمله ويتأهّب للهجرة. تابعته وهو يتحرّك ويدخل الحرم الرملي الرهيب. وكما ألفت أن تلقي بالرّطب في وجه مَنْ يرجمها بحجارة فإنها صلّت من أجله واقفة، مرفوعة الرأس، وطلبت له الغفران من الأرض والسماء.

- 9 -

ظلّ القدّ المديد، الأملس، يقف طويلاً في الواحة. ولكنّ القبلي العجوز ما لبث أن أطاح به في إحدى مهمّاته العاجلة، فزحفت الرملة وسدّت فم البئر بتلّة رملية عنيدة.

توسّعت حدود الصحراء، وكسبت موقعاً جديداً في سفرها الخالد.

الدار البيضاء
1991/2/13

آمغار [1]

«...معروف كشخصيّة كونيّة. مطّلع على السرّ. مرتدٍ جلد ظبي أسود، مع ذقن طويلة. يسافر من المحيط الشرقي إلى المحيط الشمالي ويخلق العالم».

مرسيا إلياد
«تاريخ الأديان والعقائد»
المجلّد الأوّل

- 1 -

كان علامة محفورة على صدر الصخر. إشارة مجسَّمة بـ«تافتست» في كهف نحتته الآلهة في جبل الصلصال. كان وشماً مخطوطاً بروح الأسلاف. إيماءة خفيّة مجبولة بلهفة أهل الصحراء على الحياة والبقاء. تميمة منحوتة على لحمة الحجر،

(1) آمغار : الأب، الجدّ، كبير القوم : زعيم القبيلة. الشيخ (بلغة الطوارق).

تقيهم شرّ الانقراض والفناء. أعجوبة خرجت من متاهة السكون والزوال لتقيم في محراب الزمان، لتتبدَّل معه في خلوده، وسيرورته، وغدره، وباطله. وجد نفسه ينفصل عن لحمة الحجر، يدبُّ على قوائم. كائن يسعى. يهرع إلى الجبل السماوي المستحيل ليلتقط أبناء القبيلة من القمّة، ويعود بهم إلى قمم تادرارت. يلقيهم في كهوف الأسلاف ليعودوا إلى الحياة ويُبعثوا أولاداً من جديد. ينزلهم من سماوات «إيدينان» المجهول. يعيدهم إلى الحضيض. إلى الأرض. إلى التراب، قبل أن ينتقلوا إلى أرحام الأمّهات، ويتواصلوا في النّسل الذي يحمي القبيلة الصحراويّة الشقيّة من غول الفناء.

.. لأنّ الآلهة شاءت ألاّ يتحوَّل المخلوق السماوي، الهائم مع الغيب فوق إيدينان، إلى إنسان، قبل أن يتنقَّل ويتبدَّل ويتقلَّب في الأرض كما يتنقّل ويتبدّل ويتقلّب الزمان المكابر في مداراته السرية، وهو يجهل هذه المدارات. الآلهة التي أرسلته لم تشأ أن تكشف له حجاب التحوّلات. وجد نفسه مخلوقاً انفصل عن لحمة الجبل. يجري منذ بدء الحياة ليأتي بالمخلوقات الأرضية عندما تفقد الأوزار التي تشدُّها إلى الصحراء، إلى الأرض، فتتبخّر، وتتحرّر، وتنطلق مع الهباء والهواء وذرّات الغبار، لتنضمّ إلى الغمام المجهول المتجوِّل دوماً فوق الفوهة السريّة على رأس جبل المستحيل. كان يعرف أنه عجوز قديم، يقوم بدور الرسول الذي لا يعرف شيئاً غير البلاغ.

ولا أحد في الصحراء يعرف متى بدأ آمغار رسالته الخالدة، ولا أحد يعرف متى تنتهي أيضاً.

- 2 -

وجد آمغار رأسه متوَّجاً بعمودين قاسيين منحوتين من الصلد كي لا ينسى أصله الجبلي. ولكنه اكتشف، مع الزمان، أنّ الرسول يحتاج إلى سلاح للدفاع عن النفس، فاستخدمها للنطح وردع المخلوقات العدوانية.

اكتشف مهمّة أخرى للعمودين المكابرين عقب مطاردة قاسية من الرعاة الأشقياء. فاجؤوه يرتع في وادٍ عميق مع انشطار الأفق بنور القبس البكر. لا يعرف كيف عرف الأشياء سرّه فحاذروا أن يأتوه من جهة الريح البحري الذي يتحرّك مع الفجر، وتركوه يبدأ صلاة الاستسقاء. يمّم شطر الشمال وتنسَّم الماء في الهواء الشمالي الرطيب. فالأعشاب الجافة لم تزده إلاّ ظمأ، والسماء لم تجد بقطرة مطر منذ أعوام، فجفَّت المياه في شقوق الصخور، ولم يبق إلاّ أن يؤدّي الشعائر القديمة التي ورثها عن الأسلاف: وقف ليتزوَّد بالماء من النسيم البحري، ويشرب النّدى من فم الرسول الشمالي.

في هذه اللّحظة الجليلة، المشحونة بالخشوع والتسليم والابتهال، هاجمه الأشقياء من الوراء، وألقوا بالوهق على العمودين. قفز إلى العَرَاء وطار نحو الجبل. نعم. الجبل هو معبد

الودّان، وحَرَمُ الصحراء. في كهوفه تولد المخلوقات، وفي قمّته تصعد إلى السماء. الجبل : مسقط رأس آمغار وحصنه الحصين. الجبل: العمود المقدّس الذي حفظ وصايا الأسلاف من الانقراض، ونقل للأجيال أغاني الشجن ومواويل الحزن وأساطير التكوين. الجبل : في حضنه يتلاقى أهل الصحراء بأهل الخفاء، يستعيدون الماضي المجيد عندما كانوا قبيلة واحدة لم يفرّقها الجشع، و لم يشتّت أبناءها العدوان. الجبل : صومعة تغنّت بها الصبايا، ونظمت في صبرها شاعرات القبيلة أنبل القصائد. الجبل : عماد الكون الصحراوي المكابر، ونصب الآلهة ومعقلهم العظيم.

وصل حضيض الجبل. بدأ يصعد السفح والوهق مُعلّق برقبته. في طرف الوهق استمات أحد الرعاة وتشبّث بالقيد بالأسنان واليدين. ولكنْ انتظرْ ! سوف أصل حمى مولاي، وأعتصم بحبله. عندها أرِني بطولتك، وأرِني قوة حبلك !

وصل أوّل صخرة. قفزها مستعيناً بعموديه الهائلين، وتخطّاها إلى الناحية الأخرى. أحسّ بخفّة مفاجئة. كأنّ مولاه العظيم أزاح عن كاهله صخرة عظيمة. التفت من وراء العين، فرأى أنّ الشقيّ، الذي جرّه طوال المسافة، قد تخلّف وراء الصخرة. لم يَهْرَع باقي الرعاة لمساعدته، ولكنّهم طاروا وراء الطريدة. طاردوه هو وتسلّقوا الجبل من الجانبين. ولكن انتظروا أيها الأشقياء ! سأريكم ماذا يستطيع «آمغار» العجوز

أن يفعل عندما يمثل بين يدي مولاه. تقافز فوق الصخور. تنقّل بين حجارة أشرس من مخالب الوحوش. بدأ الأشقياء يلهثون. رماه أحدهم بسهم فأجارته منه صخرة حطّها مولاه كي تكون له درعاً. بدؤوا يستغيثون ويتصايحون. أحدهم تدحرج عبر السفح بعد أن داس على حجر انهار امتثالاً لأمر مولاه. أدرك القمّة الأولى. استدار كي يتفقّد ساحة العراك. وجد شقيّاً ممسوساً يقف فوق رأسه ويهمّ أن يطعنه بالرمح. التفت فرأى الهاوية في الظلمات. سمع صوت مولاه يأمره : «اقفزْ على رأسك. على قرنيك المستعارين من لحمة الصخر وسترى أنّ في الموت الحياة».

امتثل لأمر مولاه. سقط على رأسه في الهاوية. سافر في رحلة السرّ الغامضة. قابل كلّ الأسلاف الذين سبقوه. رآهم وهم ينحتونه في سورة الحجر. في بدن الجبل العظيم. سخروا من فجيعته وخوفه من الموت وقالوا له : إنّ في الموت الحياة، والحياة ما هي إلاّ موت. سمع العرّاف يقول : «اذهبْ. عُدْ إلى هناك. وتنفّس. ومارِس الشقاء الذي يسمّيه أهل الباطل حياة. وعُدْ لنا بعد عمر طويل وحدّثنا عن رحلة تبدأ في الخلاء وتنتهي في الخلاء». ثم تشاور العرّاف المهيب مع السحرة واستوقفه قائلاً: «انتظرْ. فلقد وجدنا لك عرضاً يجعل معنى لما تسمّونه حياة. أعطيك الخلود بإذن الآلهة مقابل أن تأتيني بكلّ مَنْ انقطع به الحبل من الأحفاد. أنت رسولي إليهم، ورسولهم لي في مأواي. ولكن احترس، فالوصيّة تتبع كلّ أمرٍ مقدّس: إيّاك من المكابرة،

ومن نظرة الاستعلاء. فالاستعلاء يحرق التميمة ويجعل منك مرسولاً بدل الرسول. فاترك الاستعلاء للآلهة وآتني بالأحفاد».
ثم.. د.. د.. د.. م.. م.. م.. م...

غاب العرّاف، واختفى طابور الأسلاف، وسمع صوت ارتطام قرنيه الجبارين بالصخرة، في هاوية الجبل. في الرحلة تخلَّص من الوهق المعلَّق في العمودين، ووجد نفسه أبعد ما يكون عن أيدي الأشقياء، وعن غول الخطر. تفقَّد سلاحه فأدهشه أنّ القرنين لم يصبهما الأذى. تلفّت حوله وبدأ يصعد السفح ليخرج من الهوّة.

ولكن هيهات أن ينسى شعائر الرحلة السريّة مَنْ عبر برزخ الهاوية. وعاد إلى الملكوت الصحراوي من جديد.

- 3 -

في المرّة الأولى ذهب في الهاوية إلى المجهول، وعرف وظيفة القرنين، وبهما عاد إلى الصحراء مسلّحاً بوصايا الأسلاف.

وفي الجولة الثانية عرف أنّ العشب دائماً شرك.

انفصل عن القطعان واعتزل في شقوق الجبال. هام وحيداً. اعتصم بظلمات الكهوف. أعاد قراءة الوصايا المزبورة على الجدران الصخريّة. فكّر في عدوان أهل الشقاء، وراجع في

قلبه آيات الخطر مستعيناً على الهوى بالصيام. استعاد رحلة المعراج التي استغرقت من عمر الوجود غمضة. وقطع فيها مسافة شاهد فيها منابع الزمان في الأزل، وطاف بها كلّ الأركان والأكوان. في غمضة عرف قدراً كان أقرب له من حبل الوريد فعاد بمجرّد أن طوى العرّاف كتاب السرّ والخلود، فنطح الصخرة في الهاوية، ليجد أنّه قد وُلد من جديد.

قرأ في صومعة الاعتكاف نصوص الكتاب السرّي، وتمثَّل نبوءة العرَّاف الذي طوَّق رقبته بتمائم الرّسل، ليؤدّي الرسالة الأبدية.

قتل الهوى بالصبا، تطهَّر من الرِّجس بالاعتصام. نزل إلى الأرض كي يقيم أوده، ونسي أنّ مَنْ خرج من زحمة القطيع، عليه أن يدبِّر أمره، ويصنع من نفسه ربّا على مصيره.

- 4 -

على باب العشب رابط له الأشقياء بالمكيدة.

وهل يستطيع أشقياء الأرض أن يرابطوا على فخّ آخر غير العشب ؟ هل يستطيع المخلوق الأرضي المسبوك بالطّين، المجبول على النّهم، أن يراهن على شرك أقوى من اللقمة التي تقيم الجوف الشيطاني ؟

ولكنّه لم يقدر أن يقنع نفسه بهذه الحقيقة الكريهة في ذلك العهد المبكّر.

كان حذراً دائماً. ولا يستطيع أن يقول : إنّه تخلّى عن هذه الحكمة التي رضعها في حليب الأم والتقطها من سلوك الأسلاف، ولكنّ حيل الإنسان غلبت، دوماً، حذر أذكى المخلوقات، بما في ذلك الودّان.

نزل السّهل في الظلمة. بعد منتصف الليل بكثير. قُبيل الفجر الأوّل بقليل. تشمّم التراب، شرب من نداوة النسيم الشمالي، فسكر من رحيق البحريّ مستعيناً بالهواء الندي عن الظمأ الأبدي، مستنشقاً أنفاس الفردوس السماوي البعيد. فيبقى النسيم الفجري البكر بلسماً للظمأ الأزلي، عزاء في القيظ الصحراوي الخالد. و.. تميمة أخيرة للحياة.

ولكن هل يطعم النسيم عشباً ؟

لا ليس بالنسيم وحده يحيا الودّان، حتّى لو كان النسيم مستعاراً من فراديس الشمال.

– 5 –

بحث في أنفاس الماء عن الرائحة، رائحة المخلوقات المسوسة التي لا تنام إلاّ إذا اقترفت أذى. لا تهجع للسلم، ولا ترضى أن تريح الرأس الشيطاني على صدر الأم الأولى، على صدر الأرض الصبور، إلاّ إذا قطفت زهرة رتم، أو حزّت رأس

نخلة وسكرت بقلبها، أو أجهضت غزالة بريئة تركض في البريّة، أو.. أو تعاونت في قتل ودّان يعتصم بالجبل، ولا يريد من الخلق إلاّ العزلة والمنفى والنسيان. ولكن هيهات، فالمخلوق الممسوس لن يهدأ إلاّ إذا ملأ الجوف بلحم ذوي القربى، لأنه لا يستطيع أن ينام طالما كان الشبع هو القرين الأوّل للنعاس والخمول والاسترخاء.

بلوى أخرى سلَّطها القدر على رأس الودّان هدّدته دائماً بالانقراض، لو لم يهرع الأسلاف لإنقاذه بحصن اسمه : حاسة الشمّ. لقد تفقّد كلّ الأراضي المجاورة بخطمه قبل أن يجرؤ على الاقتراب من عشبة الوادي.

– 6 –

قاده قدره إلى الطعم الأبدي المدسوس في الطعام. اقتطف فروة الحلفاء وطفق يمضغ بحذر. يطحن العشبة الحريرية لحظة، ثم يتوقف فجأة لدبيب المخلوقات. صمت. سكون مقدّس. تعب. حتّى الجنّ توقفوا عن محاوراتهم الليلية في الكهوف ومشارف الوديان. تعب حتّى التّعب وهجع للاسترخاء ولكنه لم يطمئن. كيف يطمئنّ مَنْ ورث ألف ألف وصيّة سلفيّة تبدأ كلها بـ«إذا..» وتنتهي بتحذير أصبح شريعة بسبب التكرار : «..فاحترس من المخلوقات التي لا تنام، ولا تكفُّ عن اقتراف الأذى».

- 7 -

ولكنّ حاسة السمع حصن آخر ضدّ حركة المخلوقات.
فإذا كان يستطيع أن يرى العدوّ، بخطمه في نفحة الهواء الذي يشربه على مسافة أيام، فإنّه يستطيع أيضاً أن يبصر الخطر بالأذن على مسافة أيام أُخَرْ.

ولكن مَنْ يستطيع أن ينافس المخلوق الغامض في اختراع المكائد ؟

رأى الأثر المشبوه تحت شجرةُ الحلفاء قبلَ أن يبتلع اللقمة الأولى. هل هو أثر عشبة بريّة جرجرها الريح، أم طلاسم سحرية رسمتها يد المخلوق الممسوس بعرجون نخلة ؟ وحتى إذا كانت العشبة البرية بريئة من صنع الأثر الخفي، فإنّ الرموز الغامضة رُسِمَت ببراعة حتّى لا يتقنها إلاّ السّحرة من فئة المخلوق الممسوس.

حاول أن يتبيّن الخطوط في الظلمة. تقدَّم ليقرأ رموز المجهول. ونسي وصيّة الأسلاف التي تحذّر من الفضول، وتنهى عن التمادي في المعرفة. لأنّ ما يسيء كامن في الغيب، والنبوءة تنطق بلسان الخطر، ولولا الفضول الشيطاني لما تلقّى المخلوق المقدَّس لعنة الشقاء، فطُرد من فردوس النعيم ليجد نفسه وقد تحوّل من ملاك سماوي رحيم إلى إبليس أرضي رجيم.

تقدَّم خطوة أخرى فوقع في الفخ.

- 8 -

جرجر الشرك واعتصم بالجبل. ركن إلى الصخور واحتمى بالعزلة. استعان على الأذى بالمنفى، وتخلّص من الشرك بالصوم. خسر العالم حقّا، ولكنّه أدرك أنّ هذه الخسارة هي الشرط الأوّل الذي يتكبّده كل مَنْ شاء أن يعرف خالقه ويكسب نفسه.

- 9 -

ثم باشر المهمّة، وبدأ المسيرة السريّة.

طاف الخلوات، وتنقَّل بين ربوع القبائل. يجمّع الأخيار الذين تحرّروا من قمقم البدن، ويعود بهم إلى مغاور الظلمات، كي يَمْثِلوا أمام الكاهن الخفيّ. هناك يخضعون للحساب. يعلّمهم لغة الولادة كي يفهموا أخيراً أنّ الكابوس سيبقى، قدر الإنسان ما ظلَّ يبحث عن الخلاص خارج نفسه.

- 10 -

.. إلى أن قدَّر المقدِّر وأرسله إلى جبل الجنون كي يعود بحفيد الأجيال إلى أرض السكينة لتنظر له الجبال أمر الولادة عندما يَمْثِلُ للمساءلة بين يدي الكاهن الأعظم.

في طريق العودة اعترضه الدرويش، وحاوره بلسان أهل السرّ. و لم يكن صعباً عليه أن يخاطبه بنفس اللّغة ويخبره بالسرّ بلسان أهل السرّ.

- 11 -

ولكن المخلوقات الشقيّة التي لم تقنع يوماً بالهزيمة، اعترضته في سفوح القمم، وطاردته عبر العراء المفروش بحجارة أقسى من ألسنة السكاكين.

كان متعباً.

أنهكته الرحلة الأبدية، وناء تحت عبء الأمانة الأزلية. ولكن شرائع النبل الصحراوي تقضي أن يعترف بأنّ كل هذه الهموم لم تكن السبب الذي مكّن منه الأعداء، ليجد نفسه وقد أُصيب بالرمح القاتل في النحر. نعم. فليعترف الآن بأنّ الاستعلاء هو السبب.

فليعترف أنّه خالف وصيّة العرّاف السرّي ورفع رأسه إلى السماء مكابراً. نعم. ضربة القدر القاصمة لا تنزل إلاّ في غفلة الزهو وتيه المكابرة.

وهي وصيّة ورثها عن الأسلاف أيضاً، ووجدها أخيراً مخطوطة على جدار المغارة، و لم يفعل عرّاف الهاوية إلاّ أن ذكّره بها وأعادها على سمعه في معراجه القديم.

فبعد أن نجا من أيديهم، واستطاع أن يتحصَّن بالصخور الإلهية، شعر بزهو النّصر، وغمرته الرغبة الشيطانية في أن يتباهى بالتفوّق، وغلبه طَبْعُ الودَّان الفاني، فتوقّف عن الركض في القمة، والتفت إلى الأشقياء ليسحقهم بنظرة الاحتقار التقليدية. لم يدر أنه تشبَّه بالآلهة، ونسي المهمّة الرسولية الخالدة، وغلب فيه طَبْعُ المخلوق الوضيع الفاني، تطبُّعَ المخلوق السماوي الخالد، فنال الجزاء في الحال، وهوى من قمة الجبل المستحيل إلى حضيض الأرض، ليقع بين يدي الأشقياء.

بدأت دورة أخرى من دوائر القصاص.

- 12 -

جاؤوا به إلى «واو».

هناك انتظرته مفاجأة أخرى.

فما أن مَثَل أمامه «آخموك» الفائز بلقب «إيمستنغ» حتّى عرف ولَدَه القديم. ابنه الذي حمله على ظهره وعبر به الصحاري كي يمثل في حضرة الكاهن، ويحفظ سيرة الولادة ويختم على ذاكرته بالنسيان قبل أن يحين الوقت ويعود إلى الصحراء من جديد. ويبدو أنّ ذاكرة هذا الابن العجيب كانت أقوى من النسيان، فتمرَّدت على القانون السرّي وتذكَّرت الأب. لقد اضطرَّ أن يخبره بكلّ شيء في نظرة واحدة. ففهم ابن الحجر لغة الجدّ الحجري وانهار بالحمَّى قبل أن يُبلّغ السلطان

بالرجاء. ولكن آخموك المسكين لم يدرك أنّ آمغار لا ينزل السهل، ويقف أمام الحفيد، إلاَّ إذا أخذ معه الأمانة إلى الجبل. لأنّ الأمانة هي القربان الوحيد الذي سيكفِّر به آمغار عن إثم الكبرياء الذي صرعه. وشريعة الأسلاف هي التي تقول: إنّ على آمغار أن يضحّي بابنه إذا شاء أن يكفّر عن السيّئة، ويكسب رضوان الآلهة.

لأنّه الوحيد، في النهاية، الذي يعلم أنّ في نجاته حياة الصحراء، وفي اختفائه زوال القبيلة وفناء الأجيال.

ليماسول – موسكو

1991

الفخّ

- 1 -

– اخنوخن. أنت قتلت أمّي !

سمع الاتّهام بوضوح. وسمع صداه يتردّد في القمم الخفيّة، البعيدة، العارية. توقّف وأصاخ السّمع. ثم بحث في الجبال المجاورة فلم يقع بصره على مخلوق. مشى بضع خطوات أخرى. تكرّر النداء :

– اخنوخن. أنت قتلت أمّي !

ألقى الصوت المجهول بالاتهام فوق رأسه. رفع رأسه إلى أعلى فوجد فم الكهف في مواجهته. ظلمة كئيبة، موحشة، تصلح لإقامة أهل الخفاء. وقف في المواجهة لحظات، ثم استدار ومضى. خيّل له أنه سمع أقداماً تدحرج حجارة خلف ظهره، ولكنه مضى دون أن يلتفت. انتظر أن يتكرّر الاتهام، ولكنّ السكون الجليل عاد إلى تاسيلي. فكّر في الاتهام. أين ومتى قتل.

لا يذكر أنّه قتل أحداً حتّى في المنام فمن أين جاء المجهول بهذا الاتهام القبيح ؟

ليس الهتاف، ولا النداء مدهشاً بالنسبة لرجل مثله عاش حياته كلّها في وطن الجنّ والأشباح تاسيلي، ولكنّ اللغز هو في الاتهام البشع. فهل تعلّم أهل الخفاء المزاح أيضاً ؟

بلغ السفح. بدأ يصعد. انتصف النهار. مسح العرق عن جبينه بذراعه. ألقى بحزمة الحطب في مدخل الكهف. أنصت مرة أخرى. ارتفع لحن السكون الخالد. انتزعت الصحراء المبادرة واستعادت سكينتها الأبدية. شمس منتصف النهار تجبر حتّى الجنّ على الانسحاب.

- 2 -

تفقّد الخدوش في ذراعيه. تناول حفنة من الرمل وذرّها فوق الجراح. نهش الملح اللحم فتأوّه. ابتسم وهو يتابع شقاوة الملوحة وهي تتتبّع آثار الحطب، تأكل اللحم، وتلعق الدّم.

تسكّع في المدخل. استطلع الحضيض فرأى كيف يتمادى السّراب ويمدّ أعرافاً من اللّهب على الرّوابي البعيدة، صانعاً، مع السكون، الجلال الخفيّ.

نزّ العرق. عاد يمسح الجبين بكمّ الجلباب. تفقّد الخدوش. كانت ذراعاه موسومتين بخطوط صنعها الرمل تشبه القُلاع الذي تخطّه عروق الأشجار البريّة فوق وجه الرمل. عند طوق

التراب الذي تقيمه الريح حول الجذوع. ملوحة الرمل امتصّت النزيف وأوقفت تدفّق الدّم. جراح المعصمين قدر الحطّاب. لا يذهب لاستجلاب الحطب دون أن يعود بجروح في المعصمين. وكانت أمّه ترشّ الرمل على يديه وتقول بتسليم : «ماذا تظن؟ الحطب يريد نصيبه أيضاً. الحطب لابدّ أن يأكل نصيبه أيضاً. لابدّ أن يأكل قبل أن يؤكل، لابدّ أن ينتقم قبل أن يؤكل، لابدّ أن ينتقم قبل أن تحرقه بالنّار». تقول ذلك بلهجة جادّة وكئيبة إلى حدّ يجعله يشعر بالشفقة والنّدم. يشفق على الحطب المسكين الذي سيُحرق بالنّار، ويندم لأنّه تسبّب في وقوع الجريمة. في البداية كان يضحك من لغتها ويسخر من قدرة الحطب على المناورة والمقاومة والانتقام فيسأل الأم : «وهل تستطيع حطبة يابسة أن ترغب في النّصيب يا أمّي ؟ هل يقدر عود ميّت أن يعارك ويدافع عن نفسه؟» فتجيب بنفس اللّهجة الجادّة، الكئيبة، الغامضة : «وماذا تظنّ ؟ كل شيء في الصحراء يتألّم ويفرح. حتّى الأرض الخرساء. حتّى الحجارة. حتّى ذرّات الرمل. ألا تستمع إلى ذرّات الرمل في السهل عندما تقرع الطبول وتردّد الألحان في الليالي ؟ إنها تفعل ذلك احتفالاً بالنسيم الشمالي، وفرحاً بالخلاص من حرّ النهار. انظر كم تبدو يائسة وشقيّة في منتصف النهار. إنها تفتح صدرها وتتعذّب في صمت. إنها تستسلم للقدر ولا تشكو أبداً. ولكنّ التسليم بالقدر في النهار لا يمنعها من أن تفرح وتغني وترقص بالليل». وكانت تبدأ بشعائرها. تزمّ شفتيها، وتحدّق في الخلاء الموحش، الفسيح، الممدود في مواجهة الجبال، كأنّها تنظر

في الفراغ، ثم تبدأ في التمايل، مع شكوة الحليب، يميناً ويساراً. تستمرّ هذه الصلاة زمناً طويلاً، تمتدّ حتّى القيلولة أحياناً. عندما كان صغيراً ظنّ أنّ مخض الحليب وتكوّن الزبد هو الذي يستدعي هذا الزمن الطويل الذي تنفقه العجوز في الشعائر اليومية، ولكنه فهم، فيما بعد، أنّ تحصيل الزبد لا يستغرق ربع هذا الوقت. ومضى زمن أطول حتّى فهم السرّ. فهم أنّ صلاة العجائز الحقيقية تبدأ بعد نهاية الصلاة. العبادة الحقيقية هي التي تصاحب الإيقاع الرّتيب الذي يحدثه اندفاع الحليب في الشكوة إلى الجانب الأيمن، ثم إلى الجانب الأيسر، حسب حركة الأمّ إلى الجهتين. وقد لاحظ أنّها لا تحرّك يديها فقط، ولكنها تتحرّك بكل جسمها. تميل بالجزء العلوي حتّى تكاد تلامس الأرض، ثم تميل إلى الناحية المعاكسة حتّى تكاد تتوسّد الشكوة. كأنّها ترقص. كأنّها تمارس الجذب الذي يتقنه الرجال عندما يقعون في الوجد. الرجال الذين تستفزّهم الألحان وتوقظ فيهم قوى الجن؟ والشّبه بينها وبين المجذوبين لا يقتصر على الحركة والترنّح يميناً وشمالاً فحسب، ولكن في حالة الغيبوبة أيضاً. فهي، إذا بدأت العمل، لا ترى، ولا تسمع، ولا تفهم، ولا تنطق، ولا ترد على سؤال. تظلّ واجمة، كئيبة، جليلة، كأنّها تصلّي. عندما تكبّر للصلاة أيضاً لا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تردّ على سؤال.

في ذلك اليوم عندما حدّثته عن عذاب الأشياء في الصحراء راقب موقد النار. أنصت للأنين في أعواد الحطب.

تأمّلها وهي تحترق في ألسنة النار ورأى كيف ينزّ منها سائل معتم كالدّم. قال في نفسه: «إنها تنزف! إنها تنزف!». كان الأنين موجعاً والنزيف يتواصل بلا توقف. مدّ يده وأخرج عوداً نازفاً من الموقد. تحسّس السائل فوجده لزجاً، قانياً، حارّاً. نزيف حقيقي. دم حقيقي. أحسّ بالغثيان. امتنع عن الطعام في ذلك اليوم. وفي الليل حاول أن يتصيّد الفرح في ذرّات الرمل الحزينة. أنصت طويلاً. نامت الأم. ارتفع شخيرها في الناحية الأخرى من العراء، ولكنه واصل السّهر. ارتفع القمر. تسلّى بمراقبة القرص السرّي الغامض. و.. فجأة سمع نشيداً. موّالاً. أغنية حقيقية. فاجعة. تقترب وتبتعد، يصاحبها ضجيج خفيّ. بعد قليل تبدّى الضجيج واتّضح في قرع منتظم، حزين، للطبول. كان فرحاً حزيناً.

تابع القرص السرّي، وأنصت للفرح الحزين. فلم يشعر كيف فزّت من مقلتيه المفتوحتين دموع حارّة، كبيرة.

- 3 -

يروي الرعاة الحكماء أنّ الصحراوي لابدّ أن يموت بالأسباب الثلاثة: الظمأ، السيل، الأمراض الخفيّة. ويؤكّدون أنّ من لم يمت بالأسباب الثلاثة نال عمراً طويلاً. وتقول عجائز تاسيلي أنّ هذه حكمة لا تخصّ الرعاة، ولكنّها وجدت مزبورة

في جدران الكهوف حيث حفرها الأسلاف الأوائل نقلا عن «آنهي» المفقود.

الأب مات بالسبب الأوّل قبل أن يعي معنى الموت والحياة. والأم ماتت بالسبب الثالث. وهي ميتة أجمع أهل تاسيلي أنّها أجمل ميتة يمكن لصحراوي أن يطمع بها. نهض في الصباح فوجدها ما تزال نائمة، مكوّمة في مدخل الكهف كقطعة قماش بالية. تسند رأسها الصغير بمعصمها وتيمّم شطر القبيلة. ناحية الشرق. كانت الشمس تناضل للخروج من الأسر وتتحفّز لتعذيب الصحراء بأشعة النار. أدهشه أن يرى قرن الشمس ولا يجدها تترنّح فوق الشكوة في طقوس وجدها اليومي. أرجع السبب للسهر ورجع عن نيّته في إزعاجها. قرر أن يتركها تتمتّع بالأحلام حتّى يعود من تفقد الإبل. ماذا يحدث في تاسيلي لو أشرقت الشمس وعجوز بائسة، متعبة، ما تزال نائمة ؟ تعمّد ألاّ يوقظها. ابتسم وهو يتناول وعاء الحليب وينزل إلى النوق في الوادي. تذكّر ما تردّده دائماً من أنّ طلوع الشمس على امرأة نائمة أمر يفوق حلول الوباء شؤماً. الأرض التي تشرق فيها الشمس والنساء نائمات لن ترى الخير أبداً. لن تسقط فيها قطرة مطر، ولن تشقّها السيول. فكيف ستبرّر غفوتها ؟ ماذا ستقول لأشعة الشمس عندما تطلع على رأسها وتضبطها متلبّسة بالنوم ؟ أي شؤم ستراه تاسيلي وهي التي لم تر سوى الشؤم منذ عشرة آلاف عام ؟ أيّ شؤم يمكن أن يجرّه شروق الشمس فوق رأس أنثى نائمة على تاسيلي التي عانت من العطش والمجاعة

والأوبئة وقساوة الشموس ؟ أيّ مصاب آخر يمكن أن يفاجئ به القدر تاسيلي التي ذاقت على يديه كلّ المفاجآت ؟

عاد بالحليب من الوادي فوجدها ما تزال تتوسّد معصمها الهزيل. نفّذت الشمس وعيدها وسلّطت على وجهها أشعة نحاسية واعدة بالحريق. انعكست دفقة من الضوء في عينها اليمنى التي اكتشف فجأة أنها بقيت نصف مفتوحة. لا يعرف لماذا أحسّ بالقلق. ربما لأنّ السبب يرجع إلى هذا التعبير المبهم الذي أثاره فيه انعكاس ضوء الشروق في بياض المقلة. تعبير رآه في مقلة الشاة الذبيحة. تعبير الفجيعة. اقترب خطوات. تحسّس يدها فوجدها باردة، كسولة، مثل قطعة حطب. أراد أن ينطق باسمها. أن.. لم يستطع. تصاعد القلق. ركع بجوارها وهزّها بكلتا يديه. اختلّ توازن الجسد الهزيل ومال إلى الوراء. هجعت على الظهر، وارتفع رأسها إلى السماء. تفتّح الجفنان عن كل المقلة اليمنى. رأى التعبير الخفي واضحاً الآن. استسلام، ووداعة، وتساؤل أكثر طفولة.

فهم ما حدث.

أدرك أنّ لدى القدر دائماً شؤماً آخر يخبئه حتّى تحين اللحظة المناسبة. أدرك أنّ لدى القدر مفاجآت يستطيع أن ينال به حتّى تاسيلي التي عرفت كل المفاجآت. مفاجآت يناله بها حتّى هو الأعزل، المعزول، المقطوع من صخرة في كهوف تاسيلي.

- 4 -

أشعل النّار في الحطب وتربّع في ظل فوهة الكهف. أعدّ وعاء الشاي وانتظر أن يخمد اللّهب. رفع رأسه إلى السقف وتلهّى بمشاهدة الجموع التي أتقن الأسلاف حفرها في الصخر. رسوم ملوّنة لرجال مردة يرتدون أقنعة، يطاردون حيوانات اختفت من الصحراء. و.. أشباح. تفنّن الأجداد وأبدعوا في حفر خيالات الجنّ على الحجر. أوّل تعرّفه على هذه المخلوقات كان على صخور الكهوف. في الصّغر، عندما طارد الجديان الشقيّة في الكهوف وبين شقوق الجبال اكتشف مغارات كثيرة موسومة بهذه الأشباح والعمالة والغيلان. ولكنّ الأم ما لبثت أن كشفت له السرّ. قالت يوماً بعد أن انتهت من وجد الصباح : «لا تستعذ منهم ولا تلعنهم فهم ليسوا سوى أهلك أيضاً». احتجّ «أهلي ؟ الجنّ أهلي ؟». رمقته باستنكار. قالت بغموض العجائز : «ولِمَ تستنكر ؟ كلّ سكان الصحراء أهلك. بل هم السكان الأصليون الذين سبقونا إلى الصحراء. ألا يسمّيهم الحكماء «كيل أسوف» ؟». سكت يومها وفكّر طوال الأيام التالية في صلة القرابة بأهل الخفاء. كان يتنقل بين المغارات ويزيح الأتربة والأملاح والطين عن وجوههم المحفورة في الحجارة ويستعيد ما قالته العجوز. عاد في إحدى الليالي وسألها : «ولكن لماذا يخيفوننا إذا كانوا أجداداً ؟» وكان الجواب على شفتيها جاهزاً دائماً : «الجنّ لا يخيفون أحداً. لا يخاف الجنّ إلا مخلوق

شرّير. لا أنكر أنهم مرحون وميّالون للمداعبات في بعض الأحيان، ولكنهم لا يؤذون إلاّ الأشرار». يذكر ليلتها جيداً كيف سألها : «ومن هم الأشرار يا أمي؟» هنا سكتت، فساد سكون الصحراء السرّي. ظنّ أنها لن تتكلم فتهيأ لأن يعيد السؤال. في النهاية أجابت : «الأشرار هم الذين يقتلون الودّان ويبيعونه لتجّار القوافل. الأشرار هم الذين يصطادون أنثى الودّان وهي حبلى. الأشرار هم الذين يقطعون أعراف الشجر وهو أخضر. الأشرار هم الذين يشوّهون وجوه الأسلاف المنقوشة على الصخور، ويخرّبون خطوط الأوّلين ويزيلون وصاياهم، أو يسلخونها من أصلها ويبيعونها للأغراب. الأشرار. الأشرار، يا ولدي، كثيرون هذه الأيام». سكتت فعاد السكون السرّي إلى الهيمنة. ارتفع القمر وفكّر. فكّر وفكّر، ثم سأل : «وإذا كان الصياد جوعاناً، ألا يبيح له ذلك أن يصطاد أنثى الودّان حتّى لو كانت حبلى ؟». قالت بوضوح انطبع في ذاكرته إلى اليوم، إلى الأبد : «لا يا بني. لا. لا شيء يبيح صيد أنثى الودّان. لا شيء. حتّى الجوع» عاد يعاند : «ولكن ألا يستطيع المهاجر أن يقتطع عوداً أخضر إذا كان البرد قاسياً ؟». أجابت : «لا يستطيع. البرد لا يبرّر قطع الشجر الأخضر مهما كان قاسياً. لا يجب على المهاجر أن يتدفأ بالشجر الأخضر كما لا يجوز له أن يأكل اللحم الحي. هل يجوز للإنسان أن يأكل لحم أخيه الإنسان ؟». حاججها : «وهل يجوز مقارنة لحم الإنسان بأعواد الشجر ؟ هل الشجرة إنسان ؟». أجابت بيقين : «شجر. حيوان. إنسان.

نحن من صنع هذه الألقاب الغبيّة. وما تسمّيه شجراً مخلوق مسا لم لا ينطق ولا يتكلّم ولا يبادر بسوء، ولكن هذا لا يعني أنه ليس أذكى مني ومنك ومن أي إنسان». و..سكتت. انتظر أن تكمل، ولكنّ السكوت استمرّ. التفت. رأى، على ضوء القمر، دمعة كبيرة تتلألأ في أهداب عينها اليمنى.

– 5 –

أنصت لتوجّع الحطب في النار. أنين أليم مكتوم. لحن الحزن والشكوى. أغنية الانفصال عن جسد الأم الأخضر. الأم تقول إنّ هذا التوجّع هو لغات تنطق بها الأغصان الخضراء وتشكو بها الإنسان إلى الخالق. التوجّع يعقبه النزيف. رأى غصن الطلح ينزف دماً قانياً. دماً موجعاً أيضاً. فكّر أن الحطّاب لابدّ أن يقترف الإثم وينتزع عوداً أخضر. أعواد كثيرة تبدو من الخارج يابسة، ميّتة، في حين تخفي تحت طبقة اللّحاء حياة حقيقية، وعندما تلقي بها في النّار تبكي وتشكو وتتوجّع. إنها مثل الضبّ الذبيح. يبدو ميّتاً بعد أن نزف وفقد الدّم، ولكنه يقفز من الموقد بمجرد أن تلقيه في النار، ويجري في العراء. فكيف يستطيع الحطّاب أن يميّز العود الأخضر من العود اليابس؟ كيف يستطيع الصيّاد أن يعرف أنّ شاة الودّان التي تتقافز بين الصخور كالشّبح أنها أنثى تحمل جنيناً ؟

الأم قالت إنّ الحكماء الذين يحبّون الصحراء يعرفون. الحكماء الذين يعشقون تاسيلي ويحرصون أن يفكّوا الرموز

على الحجارة، ويبكون على «آنهي» الضائع، ويلثمون أجسام الأسلاف في جدران الكهوف يعرفون، لأنّهم لا يعقلون الطلح أو الودّان، أو وصايا الأوّلين بعقولهم، وإنما يحسّونها ويتحسّسونها بأبدانهم. سألها في ذلك اليوم : «وكيف يمكن لابن تاسيلي أن يكون حكيماً مثلهم ؟» فكان جوابها جاهزاً : «لن يكون ابن تاسيلي حكيماً ما لم يحب تاسيلي. لن تحسّ بالحياة الخبيئة في العود اليابس إلاّ إذا أحببت الطّلح. لن تحسّ أنّ الشبح هو أنثى الودّان إلاّ إذا أحببت الودّان. ولن تحفظ حكمة الأسلاف وتعرف سرّ وصايا الأوّلين إلاّ إذا أحببت نقشهم في الحجر وأثرهم في الصخور. ولن تحبّ تاسيلي إن لم تبك حبّا على تاسيلي. لأنّ تاسيلي كانت في يوم من الأيام جزء مدهش من السماء. تعايش فيها الجنّ والإنس والودّان والضبّ والطّلح والأثل في فردوس تجري في وديانه سيول خالدة. ولكن الإنسان هو الذي بدأ. الإنسان هو الذي خان العهد ورفع يده على أخيه الإنسان. ثم كاد للجنّ، واصطاد الودّان، وذبح الضبّ، وقطّع أوصال الطّلح والأثل فقعقعت السماء بالغضب وتزلزلت الأرض، وانفصلت تاسيلي عن السماوات. جفّت الينابيع الخالدة. ووجد الإنسان نفسه وحيداً في العراء. فابك. ابك على تاسيلي وتوسّل أن تعود جزءاً من السماء. واعلم أنها لن تعود إلى السماء ما لم تتوقف أنت عن صيد أنثى الودّان الحبلى، وتتراجع عن قطع الحطب الأخضر. و.. ابك أيضاً. لا تتوقّف عن البكاء. الإنسان الذي يحبّ لا يجب أن يكفّ عن البكاء».

كانت تبكي. ووجد نفسه يبكي أيضاً. وعرف لماذا تبكي دائماً وتفز عيونها بالدمع، كلما جاء ذكر الحيوانات الصغيرة، أو الأشياء الخفيّة، أو الأسلاف، أو الماضي البعيد للصحراء. و.. أيضاً، عندما تسمع همهمات الجنّ في الكهوف، أو تكتشف عوداً أخضر ينزف في النّار، لحظتها تقهرها العبرة، وتشارك الأشياء في البكاء.

– 6 –

في الليل زاره الجنّي لأوّل مرة.

نزل من الوادي ليقضي الليل بجوار الجمال. نام في العراء المشرف على الوديان الشمالية واستيقظ على حركة الاستنفار في الإبل. كانت قلقة، متوترة، ترفع رقابها في العتمة وتتلفّت في عصبيّة. و لم يقرأ الإشارة في الوقت المناسب لأنّه نسي وصيّة الأم القائلة إنّ للجمال قدرة خفيّة على الإحساس بوجود أهل الخفاء. فإذا ساورها القلق ودبّ فيها الاستنفار فاعرف أنّ كائناً خفيّاً قد أقبل.

أحسّ بقشعريرة. وكانت القشعريرة هي الإشارة الثانية التي تجاهلها أيضاً قبل أن يتلقى ركلة قاسية على عجيزته اليمنى. هبّ واقفاً فتلقّى صفعة أقسى على خده الأيسر. تحسس الخد فهوى الجنّي على منكبه الأيمن بهراوة ثقيلة. وقع على الأرض، وركع على ركبتيه، محاولاً أن يتّقي الضربات بيديه وذراعيه. تواصلت الضربات. تأوّه. توجّع. تلوّى على الأرض. صاح بصوت وحشي ردّدته الجبال: «كفى! كفى! هذا يكفي!».

توقّف العدوان.

سمع خطواته وهو ينصرف. انكفأ على وجهه وطفق يلهث. بدنه كلّه يتوجّع، يحترق بحرارة كالحمّى. زحف إلى المتاع وتجرّع الماء من الزمزمية. استلقى على قفاه وندّت عنه آهة فاجعة. قال في نفسه: «ما أقسى يده! ما أشرس يده!». وفهم لماذا يخاف الرعاة من الجنّ، ومن سيرة الجن، ومن انتقام الجن. حبس أنفاسه وأنصت. عاد السكون الخالد يبتلع كلّ شيء في الصحراء. الجمال هدأت واطمأنّت. بركت بعض الرؤوس وشرعت تجترّ بسكينة واطمئنان. أيقن أنّ الشبح ابتعد. واستغرب التزامه الصمت طوال انهماكه في تنفيذ العقاب.

لم يتكلم. لم يتّهم. لم ينطق بالوعيد. لم يعد عليه تهمة النهار: «اخنوخن. أنت قتلت أمّي!». أم أنّ الجني الذي اعتدى عليه هو مخلوق آخر؟ جنّي من قبيلة أخرى؟ ولكن لماذا لم يهاجمه جنّ قبل اليوم؟ لماذا لم يتعرضوا له بسوء طوال السنوات الماضية؟ وهل يعتدي جنّ على إنس بلا سبب؟ الأم تؤكّد أنّ ذلك مستحيل. تقول إنهم مسالمون ولا يحتكمون إلى العدوان إلاّ ردّا على عدوان، ولا يؤذون إلاّ مخلوقا شرّيراً. فمتى ارتكب الشرّ؟ أين ومتى قتل أمّه؟ أين ومتى قتل أمّا؟

و.. فجأة، وكما يفعل الإلهام، انكشف الغموض. انكشف بوحي سماوي وانبثق في الذاكرة كالضوء: صنع فخّا ونصبه للودّان منذ ثلاثة أيّام في وادي «أميهرو»! تضاعفت نار

الحمّى. تحوّلت أوجاع البدن إلى قلق خفي تكتّل في قفص الصدر وخنقه بالعبرة. بدأ يرتجف.

- 7 -

في الفجر وضع السرج فوق ظهر الجمل وسافر إلى وادي «أميهرو».

وصل مع القيلولة. هدّدت الشمس بعذاب النار. وأطلقت السراب يسرح في الخلاء. ترجّل عن المهري. ترك الجمل يرتع في أشجار الوادي. تتبّع آثاره عندما جاء منذ أيام وقرّر أن يتسلّى بصنع الفخّ. ولا يعرف الآن سبباً لهذا العمل غير التسلية. فالودّان فازت في أواخر الشتاء بالسيول. النوق توالدت مضيفة إلى قطيعه إثنى عشر حواراً. وحمل له الرعاة بشارة أخرى من المراعي وقالوا له إنّ ماشيته تكاثرت وتكاد تتضاعف بالجديان. تاسيلي تفيض بالحليب والسّمن والزّبد والأجبان هذا العام. مؤونة السنة الماضية من الحبوب والتمور لم تنفد من المطامير. فماذا دفعه لصنع الفخّ غير الملل والتسلية ؟

وما يثير دهشته الآن ليس صنع الفخّ وحده، ولكن الثمن الذي دفعه في صنع الفخّ. أطاح بشجرة كاملة حتّى يتمكّن من تركيب لعبته المشؤومة. فقد العقل، وأضاع الذاكرة، وخالف أوّل وصية نطقت بها العجوز. وجد الوادي يجري بالسيل. والنوق تتوالد، والبشائر تتوالى فتكاسل وركن إلى الاسترخاء.

سَهَا فزلّ وحاكى الأشرار. وإلاّ من ينسى وصايا الأم، ويخالف تعاليم الأسلاف لمجرّد أنّ الخير فاض في تاسيلي وعمّ ؟ من يغفل عن تقلّبات الصحراء. ويستسلم للاسترخاء دون أن يقرأ حساب يوم يشيح فيه النعيم بوجهه فتعمّ المجاعة والأوبئة والجفاف ؟ من تغريه وفرة الخير ويصنع فخّا للصيد بدل أن ينحر شاة قرباناً للأسلاف وشكراً للآلهة هو الشرّير !

- 8 -

وقف فوق الحفرة فدقّ قلبه بشدّة.

كانت الحفرة خاوية.

أطبق فم الشرك على الشاة، ولكنها استطاعت أن تخرج من الهاوية وتجرجر المصيدة إلى الجبل. اقتفى الأثر. على بعد خطوات خلّف الحيوان بعراً. تناول بعره وهرسها بين أصابعه. بدأت تجف وتتيبّس. البعرة تعود إلى يومين أو ثلاثة أيام. الأرجح أنها ثلاثة أيام. الحيوان وقع. نزل من الجبل ووقع في الشرك في نفس اليوم الذي نصب فيه «لعبته». في مساء نفس اليوم. قطعان الودّان لا تنزل لترعى في السهول إلاّ في الليل. تنزل في قطعان عادة. وتعود لتعتصم بالقمم قبل انبثاق قبس الفجر. ولكن هذه الشاة لم تكن عضواً في قطيع. ربما انفصلت عن القطيع في الوادي المجاور وقررت أن تجرّب حظّها وحيدة. الودّان المسكين لا يعرف العزلة. لا يعرف أنّ المجازفة تبدأ لحظة اختيار العزلة.

الخطر في العزلة. والحرية في العزلة أيضاً. الخطر والحرية إذن رفيقان. قرينان. توأمان. وهذه هي الحيلة الوحيدة، الحكمة الوحيدة التي لم يسمعها من الأم، و لم يتعلّمها من الأسلاف، و لم يقرأها في رموز الكهوف. هذا هو المبدأ الوحيد الذي تعلّمه بنفسه في الصحراء. المعتزل قوي حقّا لأنه لا يستطيع أن يعتمد على أحد يهرع لإنقاذه عندما يقع في ورطة. عندما يقع في الخطر. عندما يهاجمه ضبع. أو يلتف حول رقبته ثعبان. أو يغويه السّراب ويرميه بعيداً عن صراط القوافل، فيجد نفسه أسير غول اسمه : الظمأ.

ولكن هل يستطيع القطيع أن يفعل شيئاً ؟ هل يفيد التواجد بين الجماعة حسب شريعة الصحراء ؟ لا. لا يفيد ولا ينفع. بل يؤذي أكثر ممّا يفيد. لأنّ الأذى إنما يأتي، أغلب الأحيان، من الجماعة. العضو في قبيلة، أو قطيع، يسترخي معتمداً على الجماعة، وما أن تحلّ لحظة الامتحان ويحتاج لمساعدة أعضاء القطيع يكتشف أنهم أضعف من أن يساعدوا حتّى أنفسهم. يكتشف أنهم إنما كانوا، طوال الوقت، ينتظرون يد المساعدة منه هو لا أن يقوموا هم بتقديمها له. يكتشف أنّه غريق يتعلّق بقشّة. يكتشف أنه مخدوع. والمصاب إن لم يجرّب الانتماء إلى الجماعة، القطيع، لن يستطيع أن يختصر الطريق ويتولّى أمر نفسه بنفسه.

وشاة الودّان التي اختارت أن تنفصل عن القطيع وتبحث عن الكلأ في وادي «أميهرو» بدل الوادي المجاور، هي عضو

شجاع قرّر أن يصنع مصيره ويتولّى أمر نفسه بنفسه. وما وقوعها في الفخّ إلاّ شهادة على هذه الشجاعة، وبرهان على مسؤولية الاختيار.

- 9 -

مضى وراء الأثر. الشاة تعارك الشّرك، وتستميت في الوصول إلى الجبل قبل ميلاد القبس. أثر الصراع يتّضح كلّما عبرت الشاة ألسنة الرمال التي تشطر الوادي المفروش بطبقة رقيقة من الحصى، تتبعثر فوقه الحجارة الرمادية المحروقة بالشمس. ويبدو أنها تجد صعوبة شديدة في جرّ الفخ. ضاق عنق الوادي، وبدأ يتشعّب كلّما صعد إلى أعلى واقترب من الجبل. اشتدّت كثافة الحجارة الرمادية الكئيبة وساعدت في ضياع الأثر. مشى مسافة عبر الوادي الذي انحرف يميناً، ولكنه عاد على عقبيه. تذكّر أنّ مسيرة الودّان تتجه نحو حصنه الأبدي. نحو الجبل. قطع الوادي صعد المرتفع. المرتفع قاده إلى السفح الموحش، المتوحّش، القاسي، المفروش بالحجارة العدوانية. ولكن القبلي انتصر، بعد مسافة، وقصم ظهر الجبل بلسان رملي عنيد. هناك، على الفراش الذهبي اللّميس، عثر على الأثر مرة أخرى. على الرمل عثر على قطرات دم يابس. واصلت المسيرة إلى أعلى. نحو قمم الصلصال والمستحيل. بدأ يستعين بيديه في الصعود. تحاشى الوعورة وصخور الصلصال فانعطف يميناً، نحو جيد الجبل. استمرّ يتسلّق الكتل الحجرية الجليلة مستعيناً بيديه، يتسلّى بقراءة رموز «تيفيناغ» المحفورة على الأحجار حتّى انتزعه

من غفوته نعيق غراب. رفع رأسه فرأى الشاة معلّقة بين قمتين عـاليتين، متقاربتين في الرؤوس، متباعدتين في الأسفل، عند قاعدتيهما المنصوبتين على شعفة الجبل. الفخّ استقرّ في حجارة القمتين في الفجوة الفاصلة بينهما بسبب حجمه، فهوت الشاة إلى الهاوية، وظلّت معلّقة من قائمتيها الخلفيتين ورأسها يتدلّى إلى الأسفل. على رأسها يحوم غربان. و.. على بطنها الممتلئ استقرّ عقاب نهم، ينقر البطن. بل.. يا ربّي. استطاع الوحش الجارح أن يبقر البطن حتّى برز رأس الجدي وتدلّى من أحشاء الأنثى، من البطن تدلّت أيضاً خيوط المخاط والدّم. في عيني الأم الفارغة رأى الفجيعة. كانت الشاة نتوجاً.

انحنى وشرع يتقيأ بصوت عال كأنه يريد أن يتقيأ أمعاءه.

سمع الصوت ينطق بوعيد القدر، من فم القدر :

– اخنوخن ! أنت قتلت أمّي !

- 10 -

لم يحدث أن وقع سوء تفاهم بينه وبين أهل الخفاء قبل اليوم، بل إن علاقته بهم، فاقت علاقته بالرعاة انسجاماً طوال السنوات الماضية.

طبيعي أيضاً أنّ العلاقة لم تبدأ بين يوم وليلة، ولكنّها كبرت معه وتطوّرت مع نموّه، وتوطّدت مع اكتشافه لتاسيلي ورموز تاسيلي الأخرى. تكوّنت مع الفهم الطويل، القاسي، لأسرار الحجارة، ووصايا الأجداد المخطوطة على جدران

الكهوف. ثم بدأت لغة الأم تضيء له الظلمات. ظلمات الأشياء والكهوف وما خفي على عقله الصغير من سلوك أهل الخفاء والظلمات. وكانت لا تكلّ من تكرار أسطورتها عن الرّباط المقدّس الذي يجعل من كل كائنات الصحراء إخوة ينتمون إلى الأصل الواحد. وطبيعي أن يمضي وقت ليس بالقصير حتّى يفهم عمق العلاقة وقداسة الأخوّة. اكتشف الأسرار بعد أن وقف على قدميه ودبّ بين الوديان والصخور. رأى الجنّ على جدران الكهوف، ثم سمعهم كثيراً. وهم يتراطنون ويهمهمون بلغتهم الغامضة، ومضى وقت أطول قبل أن يقابلهم في الوديان متنكرين في ثياب الرّحل وتجّار القوافل. عندما قابلهم أوّل مرة في وادي «أميهرو» وهو يرعى الجديان، عاد وحدّث الأم بما حدث. قال لها إنّ ضيوفاً نزلوا الوادي وأعطوه حفنة تمر وقطعة كبيرة من خبز الشعير. أكل الخبز، ولكنه أخرج لها حبّات التمر من جيبه. تأمّلت حبّات التمر وظلّت تبتسم في غموض. لم تخبره في المرة الأولى بهويّتهم. جاءها بعد شهور وأخبرها كيف قضى القيلولة في نجع كبير نزل السهل المجاور. سقوه ماء وأعطوه قطعة قماش جديدة. ابتسمت بنفس الغموض ثم قررت أن تفاتحه في أمرهم. قالت : «أنت كبرت، ويجب أن تعرف أننا ضيوف بؤساء على أهل الصحراء الحقيقيين. هل تعرف من هم أهل الصحراء الحقيقيون ؟». لم يجبها. أثاره التعبير الصارم الذي سيطر على وجهها فظلّ يرمقها بفضول. أضافت : «أهل الصحراء الحقيقيون هم الجنّ. إنهم قبيلة كبيرة وقوية وطيّبة مثلنا. إنهم أطيب منّا. ولكنهم لا يتساهلون أبداً مع الأشرار. إذا

ارتكبت في حقّهم شرّا نلت الشرّ مضاعفاً. وإذا فعلت خيراً نلت على يديهم خيراً مضاعفاً. ألم يعطوك القماش ؟ ألم يستضيفوك بالتمر والخبز منذ شهور ؟ إنهم أخيار فاحرص على صداقتك بهم». سكت طويلاً ثم قال «ولكنهم لا يبدون مثل الجن. إنّهم بشر لا يختلفون عنّا في شيء». قالت : «ومن أخبرك أنهم يختلفون عنّا ؟ إنّ لهم وجوهاً كثيرة. ولو أرادوا بك سوءاً لطلعوا لك في هيئة غيلان. ولكنهم خرجوا بوجوه بشعة. إنهم حكماء يا ولدي». في تلك اللحظة انتبه لخيال يقف فوق رأس أمّه. رفع عينيه فرأى رجلاً طويل القامة. يرتدي لباساً شفافاً فضفاضاً، ملفعاً بعمامة بيضاء أيضاً. يبتسم له ويهزّ رأسه علامة الموافقة.

ابتسم أيضا وهزّ رأسه موافقاً.

– 11 –

في نفس الليلة، بعد العشاء، روت له تاريخ القرابة التي تربط أهل الصحراء بأهل الخفاء. هجعت في عراء المدخل وطلبت منه أن يعدّ الشاي. شهد الأفق ميلاد البدر فبدأت روايتها : «في الزمان القديم لم تكن الصحراء مسكونة إلاّ بهم. الجن هم أهلها الأوائل. ثم جاءت قبيلة الإنس، ونزل أجدادنا ضيوفاً عند أجدادهم. وجدوا الصحراء آمنة ومسالمة وصالحة للسكن فطاب لهم المقام. تقدّموا إلى السكان الأصليين وطلبوا السماح لهم بالإقامة في الفردوس الصحراوي. قبل الجنّ إيواء أجدادنا شرط الالتزام بميثاق. أتدري ما هو الميثاق ؟»

سكتت لحظة ثم واصلت : «الميثاق يقضي أن يوافق أهلنا ألاّ يسفكوا دماً، وألاّ يصطادوا أنثى نتوجاً تحمل جنيناً، ولا ينزعوا عشبة من جذورها، ولا يقطعوا غصناً من شجرة خضراء. قبل الضيوف حكم المضيف ووافقوا على الالتزام بالميثاق. استقرّوا وتزاوجوا مع قبائل الجنّ وعاشوا في الصحراء الكبرى الآمنة في سلام. ولكنّ هبوب القبلي سبّب الجفاف وعمّم المجاعة فقام الإنسان إلى أنثى الودّان وقتلها وهي نتوج في شهرها الرابع. ونزع العشب من أصله وأكل جذوره. قام إلى الأشجار الخضراء وكسر أغصانها اليانعة. وتشاجر إنسي مع جنّي حول الحسناء فكمن له الإنسي في الظلمة وقام إليه وقتله. خان الإنسان العهد وصنع بينه وبين أهل الصحراء الأصليين عداوة مازالت قائمة إلى اليوم. انسحب الجنّ إلى الخفاء والظلمات وتركوا الصحراء للإنسان. فلا تنس، يا بني، أنّ الجنّ هم إخوتك في الدّم. واذكر، دائماً، أننا أوّل من خان العهد وبدأ بالعدوان».

قدّم لها كوب الشاي فرأى في عينها اليمنى دمعة كبيرة تومض تحت ضوء البدر.

– 12 –

عاد إلى الإبل.

هجع على الرابية. راود النوم. ولكن الأرض انقضّ. هيمن السكون الخالد ولكن صوت النهار قرع رأسه :

«اخنوخن ! أنت قتلت أمّي !». وشبح الشاة المعلّقة من قائمتيها الخلفيتين في الفراغ لا يفارق عينيه. وأسوأ ما في المشهد ليس وضع الشاة المدلاّة في الهاوية، ولا هجمة الطيور الجارحة على الجثة المعلّقة، ولكن في شيء آخر لن يستطيع أن ينساه، وسيبقى مطبوعاً في ذاكرته إلى الأبد. ليس في شيء واحد وإنما في شيئين اثنين : البطن المبقورة وقد تدلّى منها رأس الجنين الميّت الملفوف في قماط من المخاط والدّم، وفي النظرة الغريبة، الفاجعة، التي رآها في عين الشاة. نظرة مستسلمة للمصير. ولكنها تخاطب شيئاً خفيّاً وراء المصير. ترفع أمرها للجن والصحراء والقدر. تشكو بفجيعة ممزوجة بتسليم حكيم.

عاد بدنه يفزّ بالقشعريرة. بالغثيان. بالحمّى. تقيّأ من جديد. تقيأ بوحشيّة أفزعت الإبل.

استمرّ المشهد. تمادى. تبدّى. حرق قلبه. قالت له الفجيعة في عين الشاة : «أنت السبب !». واستعاد صوت النهار : «اخنوخن ! أنت قتلت أمي !». تذكّر الآن أنّ صوت اليوم كان حزيناً، يائساً، فاجعاً أيضاً. صوت كأنه أنين مريض، أو هذيان محموم. الصوت ضاعف من بشاعة المشهد، وزاد الفاجعة فجيعة. صوت اليوم جعله يحسّ أنه آثم، قاتل، شرّير. اليوم خالف وصيّة الأم ووجد نفسه عضواً في عشيرة الأشرار. اليوم خان العهد، وحنث بالوعد، وفتح على نفسه باب العداوة مع سكان الصحراء الأصليين.

- 13 -

في النهار، عندما هجع تحت طلحة لقضاء القيلولة، هتف الصوت فوق رأسه :

– أخنوخن ! أنت قتلت أمّي

كرّر الاتهام ثلاث مرّات بصوت واضح، صارم، يتوعّد بالحساب.

وبالفعل، جاء الليل، ولم يتأخّر الحساب. وكما حدث، في المرة الماضية، فإنّ الإبل أوّل من أحسّ بوصوله. أجفلت ودبّت فيها حركة قلق. وقفت وهي تتلفت حولها كأنها تراقب المخلوق الخفي. لم يحاوره. لم يكرر تهمة النهار. لم يضيّع وقته في مخاطبته. وجّه له ركلة قاسية أسفل السرّة جعلته يتلوّى طويلا. ثم انهال عليه بالهراوة. كان مخلوقاً مدرّباً، حريصاً أن ينال المواضع الموجعة في البدن متحاشياً، أيضاً، المواضع الخطرة التي قد يسبب نيلها بالكسور. كان مخلوقاً إنسانياً أكثر من الإنس.

- 14 -

استمرّ العذاب الليلي ثلاثة أيام متتالية.

يجيئه في النهار ويقرأ على رأسه التهمة، ويعود لينفّذ العقاب في الليل.

هذا النظام أدهش أخنوخن. فما معنى الإصرار على المخاطبة في النهار وجعل الليل أرضاً للقصاص ؟ هل تقضي

شريعتهم بإدانة الخطاة في النهار وتنفيذ الأحكام بهم في الليل ؟ وهل صاحب الصوت هو نفسه جلاّد الليالي ؟. هو لا يشكّ أن لكل عشيرة في الصحراء شريعتها. لم يستعر هذا اليقين من تعاليم الأم. ولكنه اكتشفه بعلاقته بكائنات الصحراء.

للنمل طريقته، وللسراب مسلكه، وللطيور نظامها، وللوحش أخلاقها، وللسكون العظيم تقاليده. فكيف لا يكون لشعب أعظم، وقبائل أعرق وأنبل مثل الجن شرائع خاصّة ؟ وأن يجهل معنى الشريعة، معنى نظام هذا العقاب، فهذا لا يعني أنهم لا يخفون وراء ذلك سرّا أو حكمة. وهو يشكّ أيضاً أن يكون صاحب صوت النهار هو نفسه جلاّده الليلي. الصوت النهاري بائس، يائس، فجيع، وجلاّد الليل عنيف، قاسٍ، عدواني، لا تنقصه الثقة بالنفس. صوت النهار هو القاضي، ورسول الليل هو الجلاّد.

- 15 -

استمرّ القصاص ليليّا.

فاض أخنوخن بالألم. ليست آلام الجسد هي التي أخرجته عن طوره تلك الليلة، ولكن شيء آخر. ألم آخر. الألم الناجم عن الإحساس بالإثم. الألم الناتج عن الإحساس بخيانة العهد، ومخالفة وصايا الأم، وقيامه بقتل أم. قتل أمّا لمجرّد التسلية. لو فعل ذلك لأنه جاع كبقية الأشرار لوجد لنفسه مبرّراً ما. لو

قتل بطريق الخطأ لوجد حجّة تقع الأم في قبرها وتطفئ في صدرها نار الألم.

ولكنه لم يجد لجريمته مبرّراً واحداً سوى الشّبع.

الآن عرف سرّ كراهية أهل الصحراء للشّبع.

الشّبع هو الشيطان الذي يصنع الشرّ. إذا شبع الإنسان فلا يُرجى منه خير. إذا شبع الإنسان تفرّغ للمكائد، وبادر بالظلم، وأبدع في اختراع الشر. إذا شبع الإنسان بشّع كل شيء وحوّل حتّى التسلية البريئة إلى جريمة.

هو أيضاً سار في هذا الطريق.

شبع، فاسترخى، فتسلّى، فارتكب جريمة.

ما الذي سينزع من صدره الندم الآن ؟ ما الذي سينزع من صدره الجمرة ؟ كيف سيكفّر عن خيانة العهد ؟ كيف سيمسح من عيني الأم - الشاة فجيعتها ؟ كيف سيمسح الدمعة المعلقة الآن في عين الأم اليمنى وهي تهجع في قبرها ؟ كيف سيمسح الدم ؟ كيف ؟ كيف ؟

- 16 -

ركلات الجلاّد الليلي لا تكفي.

ركلات الجلاّد الليلي تذكّره بجريمته وتزيد من شقائه. هراوة الجلاّد لم تعد تؤلم. فشل حتّى الجن في أن يغسلوا قلبه من

الألم، أو يطهّروا روحه من المرارة. بل إن القصاص الليلي ضاعف من ألمه، ومن إحساسه بقبح جريمته. وكلّما بدأت شعائر القصاص، وبدأ الجلاّد في تنفيذ الطقوس الليلية تصاعد العذاب وصعد إلى حلقه. وفي ليلة من الليالي فاض به العذاب فوجد نفسه يصيح بلا وعي في وجه الجلاّد :

– هل تسمع ؟ أنا لم أقتل أمّك وحدها. هل تسمع ؟ أنا، أنا قتلت أمي أيضاً. هل تسمع ؟ هل تفهم ؟

واصل الجلاّد عمله فهتف دون أن يحاول اتّقاء الضربات:

– هل تظنّ أنّ عقابك يفيد ؟ هل تظنّ أن عصاتك تؤلمني ؟ ها. ها. ها. أنت تضيّع وقتك وجهدك. جسدي مات و لم يعد يحسّ بالضرب. أريدك أن تخترع عقاباً أسوأ من الهراوة. ما هو العقاب الذي يليق بمخلوق قتل أمه ؟ قل لي : ما هو أسوأ عقاب يستطيع أن يخترعه الجن للقصاص من قاتل الأم ؟ ها. ها. ها!

توقف الجلاّد فجأة.

ناح أخنوخن وتوسّل بصوت باك :

– اقتلني ! هل تستطيع أن تقتلني ؟ الموت هو القصاص الوحيد.

انهار على الأرض. قبّل التراب، وناح بصوت طفولي عالٍ.

لم يعقّب الجنّي. و لم ينصر. الجلاّد لا يتكلّم أبداً. الجلاّد أخرس. الجلاّد رسول جاء للبلاغ المبين. الجلاّد يناقش ولا يدلي برأي. الجلاّد وسيلة لتنفيذ الحكم.

رفع أخنوخن رأسه. أحسّ بوجود الجلاّد ببدنه. بدأ يكتسب خاصيّة الجمال في الإحساس بحضور الجن. صرخ أخنوخن :

– أجبني. لماذا تتخبّأ وراء الحجار كالنساء ولا تجيب ؟ كلّمني ! صارعني ! لماذا لا تظهر ؟ لماذا لا تتبدّى وتظهر وتصارعني كما يفعل الرجل مع الرجل ؟ أرني وجهك !

وقف على قدميه. لم يجب الجلاّد. تراجع أخنوخن مرة أخرى :

– ولمن ما فائدة المصارعة ؟ هل تستطيع المصارعة أن تخلّصني من الألم ؟ لماذا لا تخبرني بسرّ الألم إن كنت جنّيا حقّا ؟ لماذا لا تخترع دواء آخر غير الضرب الغبيّ ؟ لماذا لا تسخّر قدرتك الجنيّة لاختراع ألم أكبر يقدر أن يبتلع ألمي ؟ افعل شيئاً أقوى من الجلد إن كنت جنّياً حقيقيا !

انحلّت عقدة لثامه فتدلّى على الأرض وبقي طرفه الآخر ملفوفاً حول الرقبة. تمشّى في العراء دون وعي. لم ينتبه لسقوط اللثام. لم يلحظ حالة الاستنفار الشديد في قطيع الإبل. لم ير. لم يسمع. لم يحسّ بشيء غير الألم. لم ير غير النظرة الفاجعة في مقلة الأم، و لم يسمع غير نعيق الغربان فوق الجثة. لم يحسّ بشيء غير الألم. عاد إلى الموقع في حركة وحشية. وجّه خطابه للجن :

– هيا نبكي. دعنا نبكي أمّنا. لماذا لا تشاركني البكاء على الأم ؟ إنها أمي أيضاً !

وجد أخنوخن نفسه يركع ويبكي بصوت فاجع :

– آ.. آ.. آ.. آ.. ع.. ع.. ع.. ع.. ع...

تردّد الصوت الغريب في القمم كأنّ قبائل الجنّ كلّها تردّد معه النواح :

– آ.. آ.. آ.. ع.. ع.. ع.. ع.. ع...

ولكنّ أخنوخن لم يتوقف عن بكائيته الفاجعة.

– 17 –

الظهور.

التبدّي.

الخروج من حجاب الظلمات، من القمقم المدفون في المغارات.

الخفاء مزيّة خصّتهم بها الصحراء ليدافعوا بها عن أنفسهم من شرّ الإنس، ولا يتبدّون إلاّ إذا أنسوا للإنسي. الأمّ قالت له في الطفولة : «لا يتبدّون لك في الصغر خوفاً عليك. ولا يتبدّون لك في الكبر خوفاً منك. يتحاشون أن يُفزعوك طفلاً، ويخشون شرّك وأنت رجل. فلا تكن رجلاً شرّيراً إذا أردت أن تكسب صداقتهم». يومها سألها قبل أن تبدأ في شعائر الوجد الصباحي مع الشكوة : «وماذا أفعل حتّى لا أكون رجلاً شرّيراً ؟ ماذا أفعل حتّى أكسب صداقتهم !». قالت وهي تستعدّ للطقوس وتتهيّأ

للغياب معهم في الملكوت : «ألا تكون رجلاً شرّيراً يكفي ألاّ تقتلع الأعشاب من جذورها، وألاّ تكسر الأشجار الخضراء، وألاّ تفسد تعاليم الأجداد على الصخور، وألاّ تفكّر في صيد أنثى الودّان وهي تحمل في بطنها جنيناً. هذا يكفي كي تكسب صداقتهم. واعلم أنهم إن صادقوك فلن يخونوك أبداً. إنّهم أوفى من عاهد في الصحراء، فلا تخنهم أبداً». ثم اقتربت منه وحذّرته: «وحتى تكبر وتكون عند حسن ظنّهم إيّاك أن ترمي الحجارة في الظلمات حتّى لا تصيب أحدهم بسوء. إيّاك أن تحدق في المرآة اللعينة حتّى لا تقع عيناك على أحدهم عن غير قصد من جانبهم. اصبر وانتظر ظهورهم. سوف يتبدّون لك بأنفسهم حين يحين الميعاد».

انتظر الخروج.

خروج وراء الجديان إلى المراعي، ولكنّهم لم يخرجوا إليه. سمعهم كثيراً وهم يهمهمون في المغارات، ويتمتمون بلغة لم يتبيّنها أبداً. ولكنهم لم يتبدّوا. حاول مراراً أن يفاجئهم في الكهوف، أو عند حضيض الجبال، ولكنهم ينسحبون إلى الخفاء ويأخذون لغتهم معهم بمجرّد أن يحسّوا به وهو يقترب من مجالسهم. في مرّة فاجأهم فتناهروا وتنادوا للسكوت. تحوّل الكلام إلى همس وسمع وقع أقدامهم وهي ترتطم بالحجارة أثناء انسحابهم. وفي إحدى الأمسيات، بعد المغيب بقليل، سمع غناء شجنيّا حزيناً في السفح. نسي أن يكون جيران أهل تاسيلي في الوجود، وظنّ أنّ أحد الرعاة أراد أن يتسلّى بموّال المساء. ترك

الجديان في الوادي وصعد السّفح. عند مقابر الأسلاف غزت أنفه رائحة الشاي والدخان. استعان بيديه في الصعود حتّى بلغ صخرة كبيرة. خلف الصخرة، في الجانب المقابل للقمم العالية، وجد موقد النار. ولكن لا أثر للراعي، ولا للشاي. أنصت طويلاً فلم يسمع شيئاً. وقف يراقب السفح فنزلت عليه وصيّة الأم كالوحي. ابتسم ونزل إلى الوادي. استمرّوا يتخفون ويهربون من وجهه إلى أن شبّ ورأت الأم أنه أصبح أهلاً لأن تسلّمه الجمال. بعثت بوصيّة إلى الرعاة في «تادرارت». أعدّت له زاداً من التمر ودقيق الشعير وقربة ماء وودّعته في أوّل رحلة يقوم بها في الصحارى البعيدة. الرحلة التي عليه أن يبرهن بها أنّه ودّع الطفولة والصبينة مع الجديان ودخل مرحلة الرجولة. سافر إلى «مساك صطفت» التي جاء منها الرعاة بأنباء السيول منذ شهرين.

هناك اكتشف أنّ الفوز بالرجولة ليس أمراً سهلاً، ورعي الإبل ليس أيسر من رعي الجديان كما حدّثه الرعاة. ربما كان أيسر حقّاً، ولكنّ الاسترخاء نصب له فخاً. وجد أنّ الجمال وديعة المسلك، بالمقارنة مع الجديان الشقيّة، ولا تستدعي اليقظة طالما يستطيع ألاّ يخاف عليها من الذئاب كما هو الحال مع الجديان. نسي أنّ اليقظة قدر الصحراوي. إذ من أين له أن يعلم أنّ اليقظة هي الشرط الأوّل للرجولة التي جاء من تاسيلي كي يقدّم فيها امتحاناً أمام الصحراء. اطمأنّ إلى العقال في سيقان الجمال، ولم يعرف أنّ الجمل المقيّد بعقال يمشي مسافات أبعد من الجمل الطليق. الجمل المقيّد يمشي إلى الأمام ليل نهار ولا

يتوقف عن الحركة، لأنه يشعر بالقيد فيحاول أن يتحرّر من القيد بالتنقل، بالحركة، بالسّعي المستمر إلى الأمام. يصبح القيد له هاجساً، وجعاً، سيفاً مسلّطاً على الرقبة، فيحاول أن يقهره بالسعي، يجاهد بقطع المسافات في سبيل الخلاص. يعبر الصحراء لينال، في العبور، الحرية. لم يعرف أخنوخن حتّى ذلك الوقت أنّ الجمل المقيّد يغفل حتّى عن الكلأ الذي جاء من أجله. يخترق الوديان الخضراء دون أن يتوقّف. يدخل السهول المفروشة بالعشب ليعبرها إلى العراء. إنّه لا يرى سوى الأفق. لأنّ حريته في المضي إلى الأمام، وخلاصه في الأفق. ولكنّ الأفق لا ينتهي إلاّ ليبدأ أفق آخر. فيجد الجمل نفسه وقد قطع مسافة خرافية بين يوم وليلة، لأنّ الجمل لا يسعى، وإنّما هو في سباق جنوني مع الأفق. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يفهم أخنوخن أنّ الرجل الحقيقي هو الذي يترك جماله ترعى في المراتع طليقة. لأنها لن تحتاج، في ذلك الحال، لأن تسابق الأفق كي تتحرّر من القيد. الوصول إلى هذه القناعة كلّفه ثمناً غالياً.

قيّد الجمال الثلاثة وكذلك الناقة، ولم يترك، في ذلك اليوم، إلاّ الثنيّ. وهذا خطأ آخر في عرف الرعاة الحكماء. فالثنيّ الطليق يستفزّ الجمال السجينة ويضاعف شقاءها بالقيد. وإذا تضاعف شقاء الجمال بالقيد فإنّ هذا سيجعلها تضاعف هروبها من نفسها ظنّاً منها أنّها تهرب من قيدها.

خرج ليتفقّدها في اليوم الثاني من هروبها، وارتكب خطأ ثانياً كان أسوأ من كلّ الأخطاء. ترك قربة الماء ظنّاً منه أنّ الإبل

لن تبتعد كثيراً مطمئناً نفسه بأنّها لن تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وهي مكبّلة بالقيد.

مشى يوماً. مشى يوماً آخر. لم يدرك الإبل. فأدركه الظمأ.

ترنّح واحتجبت الشمس وراء ظلمات الظمأ. انهار في عشية اليوم الثاني وسقط على الأرض. لم يعرف كم ظلّ في الغيبوبة.

أفاق بين يدي قبيلة صحراوية رحيمة. طاف حوله الرجال واعتنت به النساء. سقوه حساء لم يذق في حياته مثيلاً له. وشرب ماءً سلسبيلاً لم يشرب أعذب منه، وأكل طعاماً لم يأكل ألذّ منه. في الصباح أحسّ بالشفاء فوجد أنّهم جاؤوا له بجماله أيضاً. شيّعه شيخ مهيب خمّن أنّه زعيم القبيلة، أهدى له رسناً جلديّاً مزيّناً بثلاث حلقات نحاسية، وقدّم له نصيحة لا تناسب إلاّ الزعيم الحكيم. قال : «الرجل النبيل لا يقيّد جمله أبداً». ثم صافحه ومضى. بعد ثلاثة أيام من عودته اكتشف أنّ الحلقات الثلاث، المثبّتة في طرف الرّسن، كانت ذهبيّة !

ليس هو من اكتشف الذهب في الرّسن، ولكنّ الفضل في ذلك يرجع إلى أحد الرّعاة العابرين. نزل في ضيافته وهو في طريقه إلى وادي «ابرهوه»، أعدّ له خبز الملاّل في الرمل، وأوقد النار لتحضير الشاي. في ذلك الوقت كان الضيف يعبث بالرّسن ويتسلّى بالحلقات النحاسية. وفجأة سمع أخنوخن ضيفه يقول:

«عمل عجيب. عمل مدهش. هل تلقّيت هذا العمل النفيس هدية من زعيم الجنّ ؟». التفت أخنوخن فوجد الضيف يقلّب الحلقات المعلّقة في الرّسن بفضول الخبراء.

قال الراعي : «انظر إلى الزخارف. إنّها عمل يفوق رسم الكهوف في الإتقان. يفوق نقوش الحجارة في القدم». اقترب أخنوخن وسأل بدهشة : «ولكنني لا أفهم». حدّجه الراعي، تحت ضوء النار، بغموض. قال : «هذه أندر أنواع الذهب. هل تلقّيته هدية من زعيم ؟». سرد عليه أخنوخن قصّة الرّسن، فهزّ الراعي رأسه بجلال وردّد : «ألم أقل إنه هدية من زعيم الجن ؟ من يستطيع أن يمتلك ذهباً بهذا القدم، بهذا الإتقان في النقش غيرهم ؟». سأل أخنوخن ببلاهة : «هل تظنّ أنّ الجنّ هم الذين أنقذوني ؟». راقبه الراعي زمناً. هزّ رأسه وقال بيقين : «وهل تشكّ في ذلك».

- 18 -

فشل في أن يوقف البكاء.

تلوّى في العراء. يشهق بصوت غير إنساني، بصوت حيواني، محاولاً أن يطهّر صدره من الوجع، ويلفظ، مع الصوت الوحشي، الألم. بكى كطفل تيتّم. بل إنّه لم يبك بهذه الفجيعة حتّى عندما سافرت الأم إلى المجهول، وتركت له جسدها الهزيل كي يواريه الحجارة ويطعمه للتراب. تيتّمه اليوم أقسى من تيتّمه

لما فقد الأم. فَقَدَ الأب قبلها ولكنه لم يحسّ بضياع اليتامى. ربما لأنّ ذلك حدث قبل أن يعي معنى الضياع والعزلة والحياة. وفقد الأم، ولكنّها تركت له الصحراء. أو تركته أمانة في عنق الصحراء. عُهدة في يد الصحراء. خان العهد فتنكّرت له الصحراء. أمّه الثانية، أمّه بالتبنّي. قتل الأم الأولى. الأم التي جعلته يحسّ بصلة القرابة بينه وبين الصحراء. بينه وبين كائنات الصحراء. بينه وبين الجنّ. بينه وبين الودّان. بينه وبين شجرة الطلح. بينه وبين طائر الوقواق. أحسّ أنّه لا يبكي عزلته، ولا تيتّمه، ولا فقدان الأب والأم، ولا الأم النّتوج بأخيه اللذين قتلهما معاً حبّاً في التّسلية، وإنما.. يبكي غضبة الصحراء. يبكي ضياعه الأبدي.

لم يعرف كم مضى من الوقت. لم يعرف متى انصرف جلاّده الليلي. و لم يعرف متى تسلّل القبس السرّي وشق الأفق بخيط شحيح من ضوء مدبراً مؤامرة فصل السماء عن جسد معشوقته الخالدة: الصحراء.

نهض. ترنّح خطوات. سقط مرة أخرى. زحف على يديه وركبتيه. شقّ الوادي زاحفاً. صعد المرتفع المزروع بمقابر الأسلاف. تنقّل بين الأكوام المستديرة زاحفاً. اهتدى إلى قبرها. القبر الذي شيّده منذ سنوات ونسي حتّى أن يسقيه بالماء بين الحين والآخر. انكفأ فوق القبر ولثم الحجارة. احتضن الحجارة. وشعر كيف يتدفّق الدمع الحار على التي احتضنت بحر النهار.

لم يعرف الحكمة القاسية التي تقول إنّ القبر الذي تتساهل بريّه بالماء سيأتي يوم تضطرّ فيه أن ترويه بالدموع.

- 19 -

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يعود صوت النهار وتليه زيارة الجلاّد في الليل. استسلم لقدره وترك الجلاّد يمارس عمله. انهال عليه بالهراوة حتّى أحسّ بالغثيان. انكفأ على بطنه وشرع يتقيأ. ما أدهشه أنّ الشعور بالإهانة هو ما أيقظ فيه الغثيان وليس الألم. في الصحراء لا يضرب بهذه القساوة حتّى العبد المعاند، حتّى الحمار الكافر. في تاسيلي لا يضرب الرّجل رجلاً حتّى بقشة، حتّى بعود أخضر. فهم الآن حكمة الجنّ. فَهِمَ الآن أنّهم يريدون إهانته. إذلاله. الذلّ هو ما يليق بمخلوق يصنع فخّا لاصطياد أمٍّ لمجرّد أنّه شبعان و لم يبق له عمل آخر إلاّ أن يتسلّى. الإذلال هو ما يليق بالصحراوي إذا اختار، بلا سبب، أن ينضمّ لعشيرة الأشرار. وها هو يسمع الإدانة في النهار ليتلقّى الجزاء في الليل. الجزاء اللائق بالعبيد. بالحمير. بالأشرار. لأنّ الذلّ، في عرف الصحراء، أشرّ من الموت. الذلّ عار، والعار أسوأ من الموت. فإلى متى سيتحمّل أن يظلّ عبداً ؟ إلى متى يرتضي أن يُهان ويُضرب كالحمار ؟ هل تستحقّ الحياة تحمّل العار ؟

في تلك الليلة لم يتوقف الجنّي عن ضربه حتّى احتمى منه بقبر الأم.

اكتشف سرّاً آخر.

كلّما أقبل الجلاّد، واشتدّ عليه الضرب هرب إلى السفح، واعتصم بقبر الأم. كلما لجأ إلى القبر تراجع الجنّي عن مطاردته. فهل هو إجلال للمقابر والموتى من جانب الجنّ، أم تقديس للأمّ؟ وهل يقدّسون أمه لخصال الفضيلة والخير أم لأنّها تمتّ للجنّ بصلة قرابة ؟ لقد أخبرته عن أخوّة أهل الصحراء بأهل الخلاء، وحدّثته مراراً عن رباط الدّم بينهما، كما لم يأت ذكر الجنّ إلاّ وتنبري تتحدّث عن فضائلهم وخيرهم وطيبتهم. والحقّ أنهم كانوا معه رحماء دائماً، و لم يبخلوا عليه بالعطايا في صباه. ظلّ يفكّر في صلات القربى بين كائنات الصحراء حتّى توصّل إلى أن كون جلاّده هو أحد إخوته هو أمر جائز. بل إنّ شعوراً خفيّا خامره بأن يكون جلاّده الليلي أخاً له من قبيلة أهل الخفاء.

ولكنّ الاكتشاف لم يجبر الجلاّد على التراجع. كأنّه يؤدّي واجباً مقدّساً. كأنّه ينفذ حكماً إلهيّا. كأنّه رسول القدر. كفّ القدر.

احتمى من حملة التعذيب بقبر الأم مرة أخرى.

ثم أصبح يقضي لياليه متوسّداً قبر الأم.

حوّل القبر إلى مأوى يعتصم به في الليالي.

هجر الوديان والكهوف وصنع من المقبرة بيتاً يأوي إليه في الليل. كان صوت الإدانة يزوره في الوديان نهاراً فيعرف أنّ الجلاّد سيزوره في الليل. ينتظر حتّى المغيب فيترك الإبل في الوديان ويحتكم إلى الحرم. يوقد النار بجوار القبر ويصنع شاي المساء. يتعشّى بالتمر أو يقضم من خبز الملاّل الذي تبقّى من رغيف القيلولة. يعدّ الرغيف في رمل الوادي مستثمراً أمان النهار. وعندما يقترب الظلام يحمل تموينه إلى الحرم.

استمرّ على هذه الحال إلى أن اضطرّ أن يلتجئ إلى طرق القوافل لمقايضة أحد الجمال بالشّعير. غادر السهل مبكّراً عازماً أن يتحايل على الوقت ويختصر المسافة التي تعوّد أن يقطعها في أربعة أيام إلى يومين فقط.

ولكنّه عاد من منتصف الطريق.

جاء رسول الإدانة بمجرّد أن قطع وادي «أميهرو». وفي الليل جاءه على يدي الجلاّد أعسر حساب. اعتدى عليه بضرب وحشي فاق كلّ توقّع. واستخدم في عدوانه أسوأ الأدوات المتداولة في الصحراء لتأديب العصاة وإهانة الحمير والعبيد. بدأ باستعمال قبضته. تعب فاستبدلها بالعصا. ثم استبدل العصا بسوط أحرّ من الجمر. أدرك أخنوخن أنّ الجلاّد اختلى به بعيداً

عن حرم القبر وقرّر أن يضاعف العقاب انتقاماً لليالي التي قضاها بدون جزاء محتمياً بالحصن المقدّس. ليلتها لم ينجُ من يدي الجنّي بسهولة. ترك الجمل وهرب. ظلّ يجري عبر العراء دون أن يتوقف الجان عن مطاردته. عاد إلى الحرم في آخر الليل. ممزّق الثياب. ملوّثاً بالدّم. بدنه مغسول بالعرق والذلّ.

-22-

اكتشف حقيقة أخرى.

اكتشف أنّ فرحه بالحرم لم يطل. الحصن تحوّل إلى سجن. وهو، أخنوخن الطائر، الطليق المتنقّل بين الكهوف والقمم والوديان، تحوّل، فجأة، إلى أسير في هذا الحصن، في هذا السجن. اكتشف أنّ النهار وحده لا يكفي حتّى لردّ الإبل على أعقابها دون أن يُدركه الليل في منتصف الطريق، فكيف بالوصول إلى طريق القوافل، أو بلوغ منتجعات الرعاة؟ وإذا استمرّ مهدداً بالجلاّد حتّى حلول الشتاء فإنّ قامة النهار لن تكفي حتّى لاستجلاب الماء من البئر. وكلّ الدلائل لا تشير إلى أنّ الجلاّد ينوي أن يتراجع في الوقت القريب، فما العمل؟ كيف يستطيع أن يستعيد احترامه لنفسه ويغسل عن جسده عار الضرب الذي حوّله من مخلوق نبيل، مكابر، إلى حيوان أسوأ من حمار كافر؟

ولكنّ هاجساً شقيّاً قال له: «أنت لست حماراً. أنت قاتل. أيّهما أبشع في عرف الصحراء: أن تكون حماراً عنيداً، أم

قاتلاً للأمّ؟ أليس الحمار أكثر نبلاً من قاتل في شرائع الأرض وأعراف السماء؟».

سرت في بدنه رجفة، هام بين القبور. ترقرقت مقلتاه بالدّموع.

أجاب الهاجس بصوت مبحوح: «لا فرق بينهما، لأنّهما، كليهما، جديران بالموت».

-23-

وجد نفسه مشدوداً إلى حجارة القبر مثل معزاة مقيّدة إلى الوتد بحبل. أصبح الحرم سجناً بعد أن كان خلاصاً وملاذاً. وإذا كان للمعزاة سيّد يأتي لها بحزمة عشب، فإنّ القدر جعل منه عبدًا بدون سيّد. هرب من عبودية العصا وعار الضرب ليجد نفسه طفلاً يحتمي بتلابيب الأم، وعبداً لحجارة قبر!

فكّر أيّاماً في هذا المأزق، ثمّ توصّل إلى حيلة أخرى.

قضى ليلة كاملة يبكي فوق الحجارة يتوسّل الغفران، ونهض في الصباح وبدأ يحفر القبر. تذكّر عندما سافرت الأم وقام بحفر المثوى في مقبرة الأجداد، وقال لنفسه إنه لم يتخيّل أن يضطر، بعد سنوات، للاستعانة بالرّفات ونبش الحفرة من جديد. مسح الدّمع من عينيه والعرق عن جبينه، واستمرّ يزيح الحجارة والتراب حتّى حلّ الضّحى.

بلغ الرّفات.

تغذّى التراب بأجزاء من الكفن وتولّت الديدان أمر الجسد. جرّدته من اللحم وتركت هيكل العظام. أدهشته ضآلة العظام ونحافة الأطراف. الهيكل في حجم طفل حديث الولادة. وقفص الصدر كأنه لجدي أو ماعز. بلغ الجمجمة. أزاح التراب عن جزئها العلوي. مازالت خصلات بائسة من الشيب تتمسك بالعظم. فوقها تيبّس الطين وقطعة بائدة. متآكلة باهتة، من الكفن. أزاح مزيداً من التراب بيدين مرتجفتين. بلغ الطرف الأيمن من الجمجمة. مسح الغبار عن العين اليمنى. عين الشفقة، والرحمة، والحب. العين التي تنزف بالدمع عندما يستجيب قلب الأم للانفعال، والمحبّة والحنين.

فوجئ.

حدّقت فيه مقلة المحبة بنظرة خاوية، عمياء، قاسية.

ظلّ ينحني في فوهة القبر في ذهول، خيّل له أنّ قلبه أيضاً توقف. التنفّس أيضاً توقّف. جاهد لالتقاط الهواء واستعادة النّفس. قفز خارج القبر بأعجوبة. تلوّى في العراء كالمجذوب. دنّس حرم السكون بأصوات غريبة، غامضة. ثم استولت عليه نوبة من القيء.

-24-

عرف أنّه لابدّ أن ينقل القبر في أمتعته إذا أراد ألاّ ينزل إلى الأم، ويشاركها الإقامة في القبر. ولمّا كان الحجاب بين الأحياء والأموات قائماً كما قام يوماً. بسبب الخيانة بين أهل الصحراء

وأهل الخفاء، ولمّا كان طريق الوصل بينهما مقطوعاً إلى الأبد كما أكّدت له الأم بنفسها مراراً، ولمّا كان الإنسان على استعداد أن يصنع المستحيل في سبيل استمرار الحياة ما دام على قيد الحياة. فلا خلاص إلاّ بالمعجزة. إلاّ بإخراج الأم من رقدتها القاسية لتهاجر معه وتتنقّل، وتعيش حياة الصحراء. لابدّ أن تخرج إليه من القبر إذا أراد هو أن يستمرّ في الحياة. لابدّ أن يعود الميّت من الموت إذا شاء الحيّ ألاّ يخرج من الحياة. القدر شاء أن يُحكم إغلاق الدائرة وصنع له أحد الخيارين. القدر هو الذي رسم الخطّ. القدر قال له: إمّا أن تذهب إلى حضن الأم، أو تأخذ معك أمّك معك في حضنك. لا خيار ثالثاً. نفس القدر الذي ساقه إلى هذا المصير بلعبة. بتسلية. بشرك بائس صنعه من الشجر لقتل الوقت. الوقت النفيس الذي لم يجرؤ صحراوي على الاستهتار به يوماً فكيف بـ«قتله». ولولا التّرف. لولا السيول والخيرات التي غمرت تاسيلي، لولا امتلاء المطامير بالتمور والحبوب، لولا النعمة والشبع لما تجاسر على «قتل» الوقت بهذه الطريقة الغبية، الشرّيرة التي يستنكرها عرف تاسيلي، وتستفظعها شريعة الصحراء. وها هي النتيجة. بدل أن يقتل الوقت قتله الوقت. بدل أن يصطاد طريدة، ليس في حاجة إليها أصلاً، اصطاده القدر. وبدل أن يهنأ بالسكينة والسكون لاحقه جلاّد الليل وصنع من جسده دابّة تتلقّى الهراوة والعار !

فكيف لا يمدّ يده إلى أمّه ويأخذها معه إلى الصحراء ؟ كيف لا يحتمي بها كما احتمى بها دائماً ؟ بل وماذا سيفعل في

تاسيلي بدون أمّه ؟ ماذا فعلت به الوحشة طوال الأعوام الماضية التي أعقبت سفرها ؟ في الأيام الأولى هام بين الكهوف كأشباح الجنّ. غالب الإحساس بالضياع. ضياع أشرس من ذلك الضياع الذي أحسّ به أهل الصحراء عندما فقدوا كتاب الحكمة المقدّسة «آنهي». كان يبكي بصوت طفولي عالٍ فتردّد الكهوف الصدى. سمع الجنّيات تنوح أيضاً. وشاركه الجنّ الحزن والمأتم. قابل بعضهم في الجبال الجنوبية المشرفة على وادي «اميهرو». وجاءه آخرون في المغارة، وسهروا معه الليل كلّه. ناحت الجنيّات مهدّلات الشعور، ولكنّ الشيوخ التزموا الصمت في وقار وشرعوا ينصتون للسكون المقدّس. تنقلوا حوله. أشعلوا النيران وأعدّوا الشاي. جاءت العجائز بأطعمة شهيّة الرائحة، ولكنّه لم يستطع أن يأكل برغم الإلحاح. تقاطر الجنّ على المغارة ثلاثة أيام متتالية. ثم ارتدوا لباس المهاجرين وذهبوا إلى «تاسيلي ناهجّار» وأخبروا الرعاة بالوفاة. في اليوم الرابع ازدحمت المغارة بالمعزّين من قبائل الإنس. تقبّل منهم التعازي صامتاً أيضاً.

ولكن لا تعازي الإنس. ولا تعاطف الرعاة استطاع أن يغلب الضياع ويقتل فيه الإحساس الوحشي بالوحشة.

ثم..

ثمّ عادت إليه الأم.

بدأت تزوره كلّ ليلة. تجلس في المدخل وترفع صوتها بالأغاني الصحراوية الحزينة. بالمواويل الشجنية التي تتحدّث عن الضياع. ضياع «آنهي»، ضياع «واو»، ضياع المعشوق الذي لم يعد من رحلة القوافل. وفهم أنّ الضياع هو قدر الصحراوي. الضياع هو قدر الإنسان.

استمرّت تزوره بانتظام حتّى طلب منها ذات ليلة : «أريدك أن تمخضي لي الحليب يا أمّي كأيّام زمان. الشكوة جفّت في الزاوية وأنا لا أريد اللّبن إلاّ من يديك». والحق أنه كذب عليها. لم يكن اللّبن هو الغاية، ولكنّه أخفى عنها رغبته في أن يراها وهي تهيم في الوجد. كان يقع في الوجد دائماً عندما يراها تترنّح وتهيم وتجذب وهي تمخض الحليب المقدّس.

ذهبت في تلك الليلة و لم تعد أبداً. فكّر فيما يمكن أن يُغضبها، ويسبّب في هذا المسلك المفاجئ. فكّر طويلاً.

لقد نسي ما قالته له يوماً من أنّ الأموات إذا ذهبوا يستطيعون أن يغنّوا، ولكنّهم لن يستطيعوا أن يمخضوا حليباً للأحياء دون أن يستدرجوهم إلى الموت أيضاً.

- 25 -

سيرة التميمة عبرت تاسيلي إلى الشرق والشمال فوصلت «آزجر»، واجتازت القمم الغربيّة فبلغت «آهجّار». وحملها تجّار القوافل إلى «آير» و«آضاغ» في أقاصي الجنوب.

لم يقل الرعاة، الذين تناقلوا السيرة، أنّ الجنّي الذي اختار الإقامة مع الجنّ في تاسيلي قد اتّخذ من جمجمة الأم تميمة تحميه من اعتداءات جيران الظلمات، لأنّه لم يبح لأحد بسرّه، لم يخبر أحداً بأمر النّزاع مع أهل الصحراء القدماء، ولكنّ الرعاة قالوا إنّ الجنّي أخنوخن لم يطق فراق الأم ليس لأنّها أم، ولكن لأنّه لم يعرف في حياته إنساناً غيرها، فلحقها إلى القبر وأخرج عظامها واحتفظ بها في جراب السّرج كي تؤنسه في وحدته.

كلّما سمع الشائعة من عابر جوّال، أو راعٍ مهاجر، ابتسم بكآبة والتزم الصمت.

ظلّ يتنقّل بها في رحلاته كلّها. بل حرص أن يحمل الجراب معه حتّى في تنقّلاته بين الوديان ساعياً وراء قطيع الإبل. يجلس في المراعي. يخرج الجمجمة من الجراب. يحرّرها من غلالات القماش، يرشّها بالماء، يمسحها بعناية بطرف لثامه. في العين اليمنى الفاجعة وضع قطعة من وبر الجمل كي يخفي الفجيعة من العين. ولكنّه حرص أن يترك خصلات الشعر الأشيب، الشاحب، الذي نجا من شراهة التراب، مشدودة إلى قمة الجمجمة. وعندما ينتهي من الطعام ويحتسي الدور الثالث من الشاي، يلفّ الجمجمة بغلالات القماش، ويعيدها إلى مثواها الجديد في الجراب.

استمرّ على هذه الشعائر إلى أن سلبها منه السيل.

- 26 -

السيل أيضاً لم يهاجمه عبثاً.

السيل أرسله القدر كجزاء، كقصاص جديد على إثم جديد.

هجع في وادي «اميهرو» في ليلة شتوية قاسية. في المساء، عند الغرب، لاحظ كيف تتراحم غيوم غاضبة وتزحف على القمم البعيدة. قمم تاسيلي ناهجّار. ولكنّه لم يتوقّع أن تدركه بأنفاسها بهذه السرعة. في الليل نزل البرد. استيقظ فوجد النداوة تزرع الوادي بطبقة جليدية بيضاء. كان يرتجف. أطرافه جمدت. فقد القدرة على تحريك أصابع اليدين. مضى وقت طويل وهو يدفئها بأنفاسه. ثم تحرّك ببطولة حتّى بلغ أقرب شجرة. تحسّس الأغصان ولكنه لم يتبيّنها في العتمة. وربما ساهم الجليد في تجفيفها فبدت يابسة. انتزع كوماً وأوقد النار. ارتفعت ألسنة اللهب. ظلّ يحتمي بالنار ويحوم فوقها كفراشة بلهاء. اقترب أكثر فتشبّث لسان النار بكم الجلباب. دسّ الكم في الأرض وأهال عليه التراب باليد الأخرى. كاد يحترق فيما استمرّ يرتعد من الجليد. لم يسمع الأنين الفاجع في الأغصان الخضراء. لم ير دموع الشجر. لم ير نزيف الدّم في أعضاء الشجر. لم ير بركة الدم التي استنزفتها النار، وسالت على الرمل بجوار الموقد.

- 27 -

أيقظه الفحيح. حشرجة الجمر في الموقد لحظة هاجمها الغمر. حشرجة مكتومة، فاجعة. هبّ واقفاً فاكتشف أنّ السائل، السلسبيل، الوديع الذي يعبده أهل الصحراء، قد تحوّل إلى غول. في البدء حفر تحت قدميه بشقاوة الأشقياء. تخلّت عنه الأرض فسقط على قفاه. تلقّفه اللسان الوحشي وفرّ به عبر الوادي. دحرجه الموج المجنون مسافة طويلة. تجرّع الماء الممزوج بالطين والبعر والقشّ أمسك بشجرة حلفاء ملساء، وأحسّ كيف دفعه اللسان المتوحّش إلى الأمام فاقتلع الشجرة من جذورها، ورافقته في رحلته إلى المجهول.

في الرحلة اعترضته أشجار، وحجارة، وأجسام لم يميّزها في قعر الوادي، ولكنّ السيل لم يتح الفرصة ليتشبّث بها. كلّما مدّ يده وحاول النجاة انتزعه الموج المجنون وقذفه بعيداً عن يد النجاة. الصحراء تسخّر الأشجار والحجارة والأجسام الخفيّة لإنقاذه، والسيل يقاتل لإبعادها عنه، وأخذه بعيداً عنها.

استمرّ العراك.

اعترضته شجرة كبيرة. طلحة كبيرة. تشبّث بجذعها بكلتا يديه. التفّ حولها بجسمه كالثعبان. التصق بها. التحم بها. أصبح جزءاً منها، وأصبحت جزءاً منه. حاول أن يثبّت قدميه على الأرض فسحب السيل الأرض من تحته وجرف الرمل. بدأ يتقيأ الروث والطين والقش، دون أن يتخلّى عن التحامه بالطلحة. بشجرة الخلاص.

بقي يجاهد طوال النهار. مع العشيّة هدأ الموج ونزل مستوى الماء. قبل حلول المساء تراءت قمم الأشجار مع انخفاض مستوى السيل، فتخلّى عن شجرة الحياة وقطع الوادي إلى الشاطئ. استلقى على الضفة ونام.

في صباح اليوم التالي اكتشف أنّ الشجرة التي أنقذته من الموت ووهبته الحياة نفس الطلحة التي جرّدها من الأغصان الخضراء وأطعمها للنار كي يتدفأ بها.

الشجرة أعادت له الحياة، ولكنّها أخذت منه تميمة الحياة.

- 28 -

صمّم أن يستردّها ولو طارت إلى السماء.

انتظر حتّى جفّ الماء في الوادي. بدأ بحثه في الأشجار المجاورة. فتّشها شجرة شجرة، كما تفقّد حجارة الوادي وصخوره. لا أثر للجمجمة ولا للأمتعة.

جلس على المهري وسافر عبر مجرى الوادي. هاجر وراء السيل في مسيرة اثنى عشر يوماً.

في النهايات انقسم الوادي وتعدّد المجرى في أودية صغيرة، تتوازى وتتجاور حيناً، وتتنافر وتتباعد في مواقع أخرى.

قضى شهراً كاملاً وهو يتفحّص الوديان، ويفتّش الشّعب. بعد ثلاثة أسابيع عثر على طرف السرج الأمامي مشدوداً إلى

شجرة حلفاء كثيفة على ضفة إحدى الشّعب، ولكنّ الجمجمة طارت إلى الأبد.

أخيراً يئس.

وعندما يئس، وعرف أهل الخفاء أنه يئس، زاره رسول الإدانة في الليل وسرد على رأسه قصّة مفاجئة. لم يأت في النهار، ولكنه تعمّد الإخلال بالخطّة فجاءه بالصوت بدل السوط. لم يعرف سرّ التحوّل إلاّ بعد أن تكلّم الصوت :

– هل نسيت يا شقيّ أنّك طلبت منها الحليب ؟ هربت لتأتي لك بالحليب، و لم يكن أمامها إلاّ أن تتحوّل إلى أنثى الودّان. لابدّ أن تتحوّل إلى أمّ إذا أرادت أن ترضعك الحليب. هل نسيت يا شقيّ أنّك لم تتوقف عن رضع الحليب من ثديها حتّى بلغت السابعة ؟ كنت وحيداً، و لم يكن أمامها إلاّ أن تدلّلك. كنت وحيدها المدلّل. وعدما أرادت أن تدلّلك مرة أخرى صنعت لها شركاً وقتلتها.

سكت الصوت لحظة بنفس النبرة الواضحة، القاسية :

– نسيت أن أقول لك أنها أمي أيضاً. لم تخطئ عندما ناديتني بـ«الأخ» لأنّ الدّم هو الذي تكلّن فيك يومها. لقد قتلت أمّك وأمّي يا أخنوخن. ورحت تحتمي من جريمتك بجمجمتها. ما أشقاك يا أخنوخن ! ما أشقاك يا أخنوخن !

ردّد «ما أشقاك يا أخنوخن» عدّة مرات وهو ينسحب ويبتعد. ثم سمعه ينشج في العراء ويشهق بأنين موجع.

وجد بدنه مبلّلاً بالعرق. بسائل لزج لا شكّ أنه عرق. لثامه مبلّل. لزج. و... سكين من نار تستقرّ في صدره. أحسّ بضيق في التنفّس. وقف على قدميه. ترنّح. سقط على الأرض. تزحزحت السكين النارية وصعدت ببطء إلى أعلى. نحرت الصدر ووجدت الطريق إلى الحلق. عبرت البلعوم شقّت البلعوم بحريق. توقفت في الحلق. تدفّق النزيف. جوف كلّه ينزف. ما أرحم الجلاّد القديم بالمقارنة مع زائر الليلة. ما أقسى الصوت بمقابل السوط. ما أسهل تعذيب الجسد بجوار التنكيل بالروح. ما أهون نزيف البدن بالمقارنة مع نزيف الرّوح.

لم يعِ. لم يحسّ. لم يتعب. ظلّ يركض حتّى انشقّت الصحراء وولدت الفجر. حتّى وجد نفسه يتسلّق القمّة. حاول أن يسحب الهواء، أن يتنفّس، أن يزحزح السكين إلى أسفل، أو إلى أعلى، ولكنّ السكين تشبّثت بالحلق، تحرق وتذبح وتسدّ النّفس. احتجبت الجبال. تاهت الصحراء، غاب العراء الأبدي. اختفى الإحساس بالسكون الخالد. و.. انفصل أخنوخن عن الصحراء. وجد نفسه في منفى لا يعرفه. في أرض أخرى غير الصحراء. وأحسّ أنّه كائن غير الصحراوي.

حاول أن يلتقط الهواء.

سدّت السكين النارية كلّ المنافذ، والأوعية، والقنوات، والأوردة. جحظت عيناه. دارتا في محجريهما في تحية وداع مُهداة إلى الملكوت الصحراوي في الأفق. أحاط لثامه برقبته. لم

يلحظ كيف سقط طرف اللثام وتعلّق بنتوء بارز، شرس، في الصخرة، أطلق أنيناً طويلاً، موجعاً، كأنّه جمل يُذبح. و.. قفز. قفز من القمّة.

لم يسقط إلى الأرض. القدر الذي حوّل اللثام، في رمشة، إلى فخّ، تلقّفه قبل أن يبلغ السفح.

لم يهبط إلى الأرض. إلى الحضيض.

شدّت الصخرة طرف اللثام فوجد نفسه معلّقاً في برزخ بين السماء والأرض، وطرف اللثام الآخر ملفوف، كثعبان الأدغال، حول رقبته.

لحظتها، فقط، أحسّ بتزحزح السكين وانزلاقه إلى مكان ما، تنفّس. شهق. طلق التنفّس، ودّع النّفس، فاستقرّ في مقلتيه تسليم، وخلاص، وبسمة غموض. نفس الغموض الذي نطقت به مقلتا الأم المشدودة إلى الفخ، المعلّقة من رجليها الخلفيتين، في الجبل.

موسكو

1991/5/2 م

المبتدأ في سفر الشّقاء

– 1 –

دخل الجمل الصحراء يختال مزهوّا بقامته الهيفاء ورقبته المديدة فاستوقفته الصّحراء وقدّمت له عرضاً. قالت المعمّرة الحكيمة :

– عزمت أمري على الاعتزال بعدما رأيته على يدي الخلق. هربت وتفضّأت وآثرت العري. تعاهدت مع غول السماء ليحرق كلّ ما يغري الإنسان ويشجّعه على ملاحقتي. تصحّرت وطاب لي الخلاص والخلوة. ملأتني السكينة بالوجد وناجيت اللّه في ملكوت السكون. ولكنّ النعيم لم يدم طويلاً. إذ فوجئت ذات يوم بابن آدم يقتحم عليّ خلوتي ويفسد فردوسي، يسلخ جسدي بالمحاريث ويمزّق وجهي. يدقّ أوتاداً في بدني ويشقّ قلبي بحثاً عن الكنوز. بل بلغ به الطمع والجشع حدّاً حفر فيه أخاديد مخيفة ليشرب من دمي دون أن يشفق عليّ من النزيف. وأنا الآن أعرض عليك صفقة تربّحك وتقيني شرّ هذا المخلوق.

فحد الإنسان واحمله على ظهرك بعيدا مقابل حصانة أهبها لك ضدّ الظمأ، وصبراً على الماء أخصّك به من دون الحيوانات كلّها.

ضرب الجمل المكابر صدره بخفّة وخاطب الصحراء :

– أنا على استعداد لأن أحمل الكون كلّه على ظهري إذا ضمنت لي الصحراء الحكيمة ألاّ أصاب مرّة أخرى بهذا الدّاء. ويبدو أنّ عجوزنا الجليلة عاقبتني بالعطش أوّل مرّة في نيّة مبيّته كي تستدرجني إلى العهد.

ضحكت الصحراء قبل أن تقول :

– رأيت كم أنت مكابر ومفاخر ولكنّني لم أظنّ أنّك حكيم (أو فلنقل لئيم) أيضاً.

ثم رفعت إلى قامته نظرة حزينة وأكملت :

– أنا لا أحبّ المخلوقات المكابرة التي تتشبّه بالإنسان، وإذا كنت سأبقي عليك في أرضي وأتركك ترتع فوق جسدي فلن أفعل إلاّ إذا قبلت العرض وخلّصتني من العبء الأكبر، من وزر الإنسان.

– أعرف أنّك طردت كلّ الحيوانات المكابرة. الزراف، الأسود، النمور، الفيلة..

قاطعته الصحراء :

– وتركت الوديعة. تركت الغزال والأرنب والفأر. ولكن يجب أن تعرف أنّك لا تنتمي إلى هذه الفئة.

هزّ الجمل رقبته المديدة، وعاد يضرب صدره بخفّة ويسأل :

– هل جعلتك قامتي ورقبتي وهيئتي تضعينني في حساب المكابرين المتشبّهين بالإنسان ؟

– ليس الهيئة وحدها. في مشيتك نفسها روح من استكبار. أنا أحسّ بجسدي، وأنت تمشي على صدري. فلا تنس.

– ولكنّ عقاب العطش أقسى عقاب. الحرمان من الماء أسوأ عذاب اخترعته الآلهة، ولا أعرف سرّ القساوة في هذا العقاب.

– ليس صعباً أن تعرف سرّ الظمأ إذا عرفت سرّ الحياة، بل إنّ سرّ الظمأ مستعار من سرّ الحياة. فالآلهة التي خلقت كلّ شيء من الماء تعرف أنّ الحرمان من هذا السائل هو حرمان بطيء من الحياة. وقد خصّتني الآلهة بهذا السّلاح مكافأة لي على عزلتي ومخالفة هواي.

طأطأ الجمل رأسه وخاطب الصحراء :

– هنيئاً لك يا عجوزنا الحكيمة. فلا أحد غيرك استطاع أن يقدّم حياته كلّها قرباناً مقابل أن يختلي باللّه !

– هل قبلت العرض ؟

فكّر الجمل ثم قال :

– إذا كان سيعفيني من العطش فأنا على أهبة الاستعداد لحمل كلّ أثقالك.

– ليس لديّ ثقل أثقل من الإنسان.

– أنا طويل وعريض ومهيب ولكنّني مخلوق ضعيف ولا أطيق صبراً على الماء. سأحمل عنك الإنسان مقابل الحصانة ضدّ الظمأ.

– إذن فقد قام بيننا العهد !

- 2 -

راق الجمل للإنسان ورأى أنّه مكابر وجليل ومناسب للمركوب. حرق فخذته بالنار ليطبعه بسيماء قبيلة بني آدم. ثم صمّم أن يتّخذه مطيّة فبدأ يروّضه ويعدّه لقدره الجديد. أحاط صدغيه بقطعتين شرستين من حديد كأنّهما شرك، شارعاً في صناعة شكيمة قاسية لم يسبق للجمل أن رأى مثيلاً لها على حيوان. طفق يجرّه بالشكيمة الحديدية القاسية ويعبر به الصحراء أياماً فيما بدأت فخذته المحروقة بالنار تلتهب وتنزّ بالدم والصّديد. وعندما تعب الإنسان من الهرولة والجرجرة والرّكض ذهب إلى سدرة وحيدة شقيّة واقتطع منها هراوة أقسى من الشكيمة.

بدأ فصل جديد من سفر الشّقاء.

كان يضربه بالهراوة الوحشية مع الشروق ولا يتوقّف ولا يتعب حتّى يحلّ المساء. استنجد الجمل بالصحراء فأجابته بلغة السكون المكابرة. استغاث بالآلهة وطلب النجدة من السماء فهربت السّحب وغابت الإشارة في السماء. أزبد وناح واستصرخ الملائكة فتلقّى علامة غامضة من القدر توصيه بالتسليم والتعلّق بالصّبر.

واصل الإنسان طقس القصاص. تحطّمت الهراوة ولكنّه لم يتعب. ذهب إلى السدرة واستبدلها بأخرى. استمرّ يستبدل الهراوات حتّى خرّ الجمل البائس ساجداً.

قفز فوق ظهره وانطلق يحق السّراب.

منذ ذلك اليوم انطبعت في الذاكرة الإشارة: كلّما أراد الرّاجل أن يمتطيه لوّح في وجهه بالهراوة فيخرّ له راكعاً.

- 3 -

ثم شاء أن يعوّده على حمل المؤن وقرب الماء والأثقال. كان عاماً مجدباً تسقّط فيه صاحبه أخبار المطر. وما إن تناقل الرعاة ورجال الاستطلاع خبر فوز الحمادة الشمالية بمياه سحابة ضائعة حتّى أناخه وبدأ يضع على ظهره الغثّ كل القيود التي تشدّ كل المخلوقات المصنوعة من طين إلى صدر أمّهم الأرض: الفسطاط، والرّحى، والجوالق وأكياس المؤونة وقرب المياه والمفارش والأوتاد وأغطية سميكة كالبرادع وحجارة أخرى صقيلة وملساء ورثها عن أسلافه دون أن يعرف المهمّة التي استخدمت من أجلها ودون أن يتوقّف عن التنقّل بها أيضاً. وقد حاول أن يسدي له النصح ويحثّه أن يلقي بالأصفاد بعيداً، إلى الأرض التي تحمل كلّ شيء، أو إلى الشيطان الذي اخترعها، ولكنّ النطق أعجزه وهو الذي لم يتعلّم من اللّغة الناطقة سوى التوجّع والشكوى.

انتهى «الرفيق» من عمله فلوّح بالعصا الوحشية في وجهه. حاول أن ينهض ولكن هيهات. أحمال الأرض وأصفاد الشيطان كانت أثقل من جبل، وأقوى من الهراوة الوحشية،

وأقسى، ربما، حتّى من الظمأ نفسه. أنزل السلاح الوحشي على رقبته فلم يجد في نفسه إلاّ العجز. أنزلها على صدغه الأيمن فتأوّه ورفع شكوى أليمة، طويلة، موجّهة إلى السماء :

– آ.. آ.. آ.. آ.. ع.. ع.. ع..

استولى الغضب على «الرفيق» فسدّد إليه ضربات متتالية أصابت الرأس والعينين والجبين والفكّين. استمرّ يرطن بالآهات ونداءات الشكوى. ولكنّ الإنسان لم يرحم. بل ازداد وحشيّة وصعّد من الهجوم. يشدّه من الرسن فتحفر شكيمة الحديد أخاديد في الصدغين. انبثق دم وهوت على الأرض لطخات كبيرة، ناصعة، من الزّبد الكثيف. ولكن لا الشكوى نفعت، ولا الدّماء شفعت. ارتفع جنون الإنسان إلى درجة أخرى. ذهب إلى شجيرة بريّة بائسة أماتها العطش الطويل واستعار منها كوماً من الحطب اليابس. أحاط بدنه بأعواد الحطب دون أن يفهم في البداية ماذا ينوي أن يفعل. ثم..

ثم أوقد تحت لحمه ناراً.

مدّت النار لساناً جشعاً، جائعاً، والتهمت الحطب اليابس. وامتدّت تنتقل من عود إلى آخر حتّى وصلت إلى البدن. أكلت الوبر فشمّ رائحة الشياط. ثم تسللت إلى أبعد. اجتازت البرزخ وأدركت اللحم الحيّ. فتح فكّيه على الاتساع، ورفع شكواه إلى المجهول :

– آ.. آ.. آ.. ه.. ه..

ردّدت الجبال الزرقاء نداءه، وبلّغت الرسالة إلى السماء. بعثت إليه قوّة خفيّة مكّنته من أن يفزّ ويقف على ساقيه بالحمل الخرافي، الشيطاني.

– 4 –

ورأى الإنسان الغزالَ يتقافز في الهواء كالطّيف، يعبر مراعي الحمادة مرحاً، طليقاً، فأراد أن يتحرّر أيضاً ويصبح مثله. نسي التميمة البريّة القديمة التي تقوم إنّ كل مخلوق مسؤول عن اختياره، والقدر لن يكتب الحرية لمن اختار القيد واستسلم، منذ البدء، لأوزار الأرض وأحمال عدوّ الكائنات إبليس. وأغلب الظنّ أنّ إبليس هذا هو نفسه الذي قرّر أن يسخر من المخلوق المملوك فسخّر الجنّ لتنقل له وحي المجازفة في الليل. نهض الإنسان في الصباح وشرع حالاً في تنفيذ الوحي الجنوني.

أوقد ناراً شرهة ودسّ في لهيبها وتداً مهيباً ثبّت في نهايته إبرة أطول من عقلة السبابة. وعندما التهبت واستعارت خصائص النار أناخه وقيّد يديه الأماميتين وأحاط رقبته بجسمه وربط الرأس إلى الذيل. جاء بآلته الجنونية وغرسها بوحشية في شفته العليا. سمع فحيح النار وهو يلتهم اللحم وشمّ رائحة الشياط. مضت ومضة خاطفة قبل أن يتلقى ضربة الألم في عصب الرأس. فتح فكّيه ورفع عقيرته بالشكوى :

- آ..آ..آ..ه..ه...

ردّدت الصحراء نداء الألم. تناقلته الجبال الزرقاء وبلّغته إلى السماء. نزلت الرحمة السماوية وحجبته عن الألم. خطفته بعيداً عن الإنسان فبقي بلا وعي زمناً. وعندما عاد إلى الأرض وجد الإنسان قد انتهى من مهمّته. استبدل الشكيمة الحديدية التي كانت تحيط صدغيه بلجام متوحّش يخترق طرفه السفلي الشفة العليا.

كان الرأس مازال يسطع بوميض الألم.

- 5 -

انتظر أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ، ولكنّ الشيطان أرسل لقرينه الإنسان جنّياً آخر ونقل له فصلاً جديداً من سيرة العذاب. وجده يقفز في الفجر الصحراوي البتول ويشعل ناراً أخرى. انتظر حتّى همدت. تناول سكيناً مخيفاً ودسّه في أحشاء الجمر الشّره. أحسّ بالخطر فتملّص محاولاً أن يتخلّص من العقال. ولكنّ حبل المسد كان أقوى. تقدّم نحوه وشدّه من اللجام بشراسة فأفلتت من صدره شكوى فاجعة. ولم يكن يدري أنّ طقوس الفجيعة لم تبدأ حقاً إلاّ في اللحظة التالية التي استلّ فيها الإنسان سلاحه المخبّأ في جوف النار وجزّ العضو المدسوس بين فخذتيه الخلفيتين. لم يجزّ العضو وحده ولكنّه نحر الخصيتين أيضاً. ولول الجمل وضاقت بألمه

الصحراء الكبرى كلها. عوى بالفجيعة كذئب يتوقّع المجاعة[1]:

- آ..آ..آ..آ...

ظلّ يتلوّى ويرغي ويرطن بلغته المجهولة. حدس الإنسان أنّه ربما يلعن يوم الميلاد فعزّاه قائلاً:

- هذا ضروري كي تبرأ من همّ الجري وراء النّوق. هذا ضروري كي تتفرّغ للرقص والسباق. بدون التضحية بهذا االشيءب لن تقدر أن تتحمّل وتحترم قواعد اللّعبة !

- 6 -

قواعد اللّعبة لم تنته عند حزّ «الشيء».

في إحدى الأسفار المدهشة وقع الإنسان في قبضة العطش.

ترنّح وتضرّع إلى السماء وقرأ التعاويذ وجاهر بالنّذور قبل أن يقهره الوهن ويتدحرج من فوق السّرج. زحف على يديه وقدميه وبطنه طويلاً. دسّ رأس في بساط التربة الحمراء، الرّامضة، وقبّل أمّه القديمة التي نكرها دائماً وداسها برجليه ورفع

(1) تقول الأسطورة أن الذئب يعوي ضاحكاً عندما يجوع، لأنّه على يقين أنّ الجوع لا بدّ أن يعقبه شبع، ويعكس الحال عندما يفوز بوليمة؛ فيملأ الصحراء عويلاً وصراخاً، خوفاً من العاقبة وتوقّعاً للمجاعة.

أمامها أنفه استكباراً. ولكنّ الأم أشاحت عنه بوجهها و لم تعطه الماء. ولا يعرف الجمل متى وصل المبعوث الرّجيم ووسوس في صدر الإنسان بالاختراع الجديد. راقبه وهو يزحف نحوه كالحيّة ويتسلّق ساقيه الأماميتين. استعان بهما حتّى وقف ثم أخرج من كمّه مدية بشعة رشقها، برشاقة، في صدره. انهمر الدم وطفق الإنسان يرضع من النّبع الدموي. بدأ الجمل يغيب ويتراجع في النسيان. قطع مسافة في النسيان. اختلى بالصحراء في برزخ الفناء. قال لها:

– ثمّة شيء واحد أقسى من الظمأ: إنّه الإنسان!

ابتسمت الصحراء بحزن كأنها توقّعت نتيجة المسيرة، ولكنّها لم تعلّق. أكمل الجمل وهو يقطع مسافة أخرى في صراط الفناء:

– خذي عنّي الإنسان وأعيدي لي ظمئي!

ولكنّ الجمل لم يعلم أنّ الأوان قد فات مرّتين. مرّة لأنّ القدر خطّ العهد في اللّوح المحفوظ. والثانية لأنّ المخلوق لا ينبغي أن يضع وزناً لحساب الرّبح والخسارة إذا اجتاز البرزخ وسار في طريق الفناء.

طرابلس – مالطا

بين 14 و 1991/3/24

جرعة من دم

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾
سورة الأنبياء، الآية: 30

لم يعد وانس الصغير يحتمل العطش، فأخبر أخته تانس كيف نسي أحجبته حيث كان يرعى قطيع الغزلان، فبكت تانس ورجته ألاّ يشرب من بول الغزال، ولكن وانس لم يعد يحتمل فذهب واختطف أحجبته، وشرب من بول الغزال بعد أن ألقمه حجراً، فعاد إلى أخته تانس وقد تحوّل نصفه الأعلى إلى غزال وأحجبته معلّقة على قرنيه.

«من أسطورة للطوارق».

الناس والبحر

انكفأت الشمس في مظاهرة من اللون الأرجواني، لفظ معها النهار أنفاسه الأخيرة. هبّت نسمة هواء شمالية حبلى بالماء والحياة لأوّل مرة بعد ثلاثة أيام من القيظ ورياح القبلي، ملأ بها صدره فتسلّلت لتغمر روحه وجسمه بالانتعاش والنشاط. لاشكّ

أنها نسمة قادمة من جنّة اللّه.. من البحار البعيدة، هناك.. حيث يعيش بشر مسحورون في مدن كبيرة.. أخيراً زار رجل المدينة ورأى أنّ ماء البحر أزرق كألبسة الطوارق المستوردة من كانو.. وحجمه.. حجمه كبير.. كبير.. كالصحراء. ما أسعد حظّ هؤلاء الناس. وهبهم اللّه ماءً وفيراً ووضعه تحت أقدامهم، فماذا ينقصهم؟ ولكنّ الرجل أخبره أنّهم أشقياء وشرّيرون برغم البحر : يسرقون ويتشاجرون ويقتل بعضهم بعضاً. كيف يجرؤ هؤلاء البشر أن يركلوا نعمة اللّه بأقدامهم ليشقوا ويسفحوا دم بعضهم، ويعيثوا في الأرض فساداً برغم الماء الوفير الذي ينساب تحت أقدامهم، فأيّ إنسان يجرؤ أن يهين النعمة ويكفر بالماء لو لم يكن شيطاناً رجيماً؟

الأفعى تقتفي أثر قاتلها

شرع الظلام يهجم وانهزم النهار. ترجّل عن الجمل وقاده عبر الأعشاب البرية اليابسة باحثاً عن مكان مناسب يقضي فيه ليلته. عند شجرة سدر كبيرة أناخ الجمل. نزع عنه السرج والبندقية والمؤن وقربة الماء وبقية الأثقال. ذهب يبحث عن حطب بعد أن أحكم العقال حول ركبة الجمل.

شرع ينزع أغصان شجرة برية ماتت، بعد أن نزع منها الجفافُ الروحَ والحياة لتقوم الشمس بقيّة المهمّة. همّ بأن يجمع أعواد الحطب المتناثرة عندما سمع ذلك الفحيح الكريه الذي يقشعرّ له البدن دائماً، ويُشعره بالتقزّز ويبعث في نفسه الجنون والعدوان. رآها مكوّمة عند جذع الشجرة قرب عشٍ من أعشاش

الطيور البرّية مهدّدة بلسانها. تذكّر أنه نسي البندقية فهجم عليها بعصاته في جنون ناتج عن غريزة الدفاع عن النفس. مظهرها الكريه لا يدع فرصة للتفكير أبداً. كان حزامها منتفخاً. تكتشف أنها ابتلعت الطائر.. فلم يبق في العشّ سوى ثلاث بيضات صغيرة. أتى بحجرين كبيرين.. نزع رأسها عن جلدها.. حفر حفرة صغيرة بعصاته ودفن الرأس. كان لابدّ له أن يفعل ذلك.. فإذا قتلت أفعى وأهملت أ، تنزع رأسها، جاءتها بقية الأفاعي بعد أن تمضي مباشرة لتعيد لها الحياة، وتمضي تقتفي أثرك حتّى تقتلك أينما كنت.. هكذا يقول الطوارق، وهو لم يؤمن في حياته بشيء كما آمن بقدرة الأفعى على المطاردة والانتقام من قاتلها إن لم يجتثّ رأسها عن جلدها. ربما لأنّ خوفه من الأفاعي أقوى من كلّ شيء.. من طغيان الأشباح والصحراء وكلّ الأعداء.

شباب اللّه وماؤه

أشعل النار في الحطب، وتناول الدّقيق من جرابه الجلدي.. صبّ ماء من القرب في الإناء.. بدأ يعجن الدقيق في انتظار أن تخبو النار. الماء تضاءل كثيراً في القربة. يومان خائبان في الخلاء.. والأولاد لم يذوقوا طعم اللحم منذ ثلاثة أشهر.. المعيز التهمها الجفاف.. وما تبقى غثّ جائع تتأفّف الذئاب من لحمه.. يومان لم يقابل فيهما سوى غزالة واحدة فشل في إصابتها. أين تلك الأيام التي كان يصيب فيها الغزال من الطلقة الأولى؟ أين تلك الأيام التي راهن فيها على إصابة غزال يركض في عينة وهو يمتطي ظهر المهري؟ تلك أيام الشباب.. يد الشباب

الثابتة كالحديد تصيب غزالة طائرة في الهواء وتظلّ ثابتة حتّى وهو يمتطي ظهر المهري يعدو.. الرصاصة تمضي إلى هدفها دائماً. أمّا يد الشيخوخة هذه.. فترتجف بلا سبب.. ترتجف وهو راقد على الأرض المنبسطة، راكن إلى قمة ربوة. وقطعان الغزلان ترتع أمامه في هدوء، ومع ذلك يخطئ الهدف.

الشباب. الشباب كالماء نعمة من اللّه يهبها لِمَنْ يشاء، ثمّ لا يلبث أن ينتزعها متى شاء.

الخبز والملح

أزاح الجمر جانباً، وألقى بالعجين في الرمل الملتهب. أهال عليه التراب وعاد يغطّيه بالجمر مرة أخرى. صبّ الماء في إناء الشاي ووضعه فوق الجمر. ينبغي الاقتصاد في الماء. وإذا لم يرسل اللّه غداً نسيماً بحريّاً وسحباً شمالية تلطّف من لهب الشمس وتنعش النهار فإنّ هذه القطرة لن تصمد ضدّ رياح القبلي يوماً آخر. انتشل الخبز من الأرض.

دفنه في التربة الرملية وشرع ينظفه من الرماد والجمرات الصغيرة العالقة به. نفض عنه الغبار وهمَّ بأن يغسله بالماء كالعادة، ولكنّه استدرك. تناول السكين من الجراب وشقّ الرغيف نصفين. بدأ يلتهم النصف الثاني، نسي الملح.. لا يهمُّ.. الأرض قامت بالمهمّة.. ملّحته الأرض من تلقاء نفسها.. ملح الأرض ألذّ طعماً. يا اللّه! ما أطيب ملح الأرض.. ما ألذّ الخبز عندما يُدفَن في أحشاء الرمل اللاهب.. ما أطعم الخبز الناضج في

أعماق أُمِّنا الأرض.. الخبز المسحور الذي يعبق برائحة الجنة، هذا الخبز الإلهي الذي يشبه طعمه رائحة تلك النسمة العبقة القادمة من الشمال.. من البحر الكبير كالصحراء.

الفكرة الحكيمة

أكل الخبز وشرب الشاي وتوضّأ بالتيمّم، ويمّم شطر القبلة ليجمع صلوات أوقات اليوم الخمس في وقت واحد. تهيّأ للنوم عندما تذكّر «الأشقر».. نسيه.. نسي أن يداعبه قبل النوم حسب العادة. اقترب منه توقف عن الاجترار.. وشرع يلعق يديه بشفتيه بحثاً عن أعشاب أو قبضة شعير، وعندما أدرك أنه أتاه بيدين فارغتين حكّ رأسه بقامته ثم مدّ رقبته وعاد يجترُّ في صبرٍ مسلّماً أمره للّه. هذا جمل ليس ككلّ الجمال. مهري نادر الوجود في الصحراء الكبرى كلّها وربما في الدنيا كلّها. يتمتّع بروح مَرِنة ويفهم معنى الصداقة.. ربّاه بيديه منذ كان صغيراً ليبذر في نفسه العاطفة الإنسانية، وينزع الخبث من رأسه.. بعد أن أرته الجمال التي يشتريها من الغرباء نجوم الليل في عزّ الظهر. أحد هذه الجمال ابتاعه من بدوي ينتمي إلى قبيلة الأمغاد، فورث عن صاحبه الخيانة والخبث وكلّ الرّذائل التي تتمتّع بها هذه القبيلة الشقيّة. فقد حاول أن يبرك عليه ويسحقه عندما كان نائماً في إحدى رحلاته. أمّا الثاني فقد قايضه بخمسة رؤوس من الغنم، من مواطن تشادي يتاجر بالعطور المحلية الكريهة الرائحة. ويبدو أنّ هذا التاجر أوصى جمله أيضاً بممارسة بعض الطقوس السحرية، التي تعوَّد أمثال هؤلاء التجّار أن يرتزقوا منها عندما يتغرّبون عن بلادهم.

في البداية حاول أن ينتحل الأعذار لخرافته وحماقاته ونزواته، وأرجعها إلى غباء موروث في دمه.. ولكنّه ما لبث أن كشف عن معدنه اللئيم. فقد انتهز هذا الحيوان الكريه فرصة انشغاله بالمحراث، عندما كان يحرث الأرض بعد نزول أمطار موسمية غزيرة في وادي الجعيفري فالتهم يده اليمنى وشرع يمضغها.. انهال عليه باللّكمات بكفّه اليسرى بلا جدوى، فماذا تستطيع اليد اليسرى أن تفعل إذا كانت توأمتها اليمنى تحت رحمة فكّي جمل هائج كذاك الجمل. أنقذه رجل كان يحرث الأرض بجواره بعد أن حطّم فكّي الحيوان المسعور بكعب البندقية. آمن يومها وما زال يؤمنُ أنّ ذلك الجمل كان ثمرة مؤامرة دبّرها أعداؤه. شدّ يده اليمنى التي اكتسبت سمعة وشعبية في الرماية أثناء الحروب الأخيرة مع الطليان والقبائل المعادية.

وقد أكّد هذا الاعتقاد فقيه من غدامس.. زاره مرّة لعيادته بعد هذا الحادث.. وقد قرأ الفقيه على رأسه بعض الآيات القرآنية والتعاويذ، ودسّ حجاباً بين أحجبته بعد أن أغرقه في حمام من البخور، و لم يطلق سراحه بالطبع إلاّ بعد أن انتزع من جيبه عشرة فرنكات فرنسية. ولكنّه عرف كيف ينتقم لنفسه من هذا الجمل المسحور الذي دسَّه له أعداؤه كما أكّد له ذلك الفقيه الساحر.. فقد حاصره العطش ذات مرة في الخلاء، فتذكّر تلك الفكرة الحكيمة التي وُجدت منذ وجود الطوارق والصحراء على الأرض: ذبحه وارتوى من دمه. أمّا يده فقد برئت، وعاد فدرّبها على فنّ التصويب والرماية، و لم يقتنع بشفائه إلاّ بعد أن أصاب غزالة طائرة في الهواء وهو يمتطي ظهر مهري يعدو. جمل واحد

اختصّ له قبل «الأشقر» ولكنّه التهم دوداً مع الأعشاب فانتفخت بطنه، وبعد أن هاجمته سكرات الموت ذبحه ورفض أن يأكل لحمه. أمّا «الأشقر» فقد صنعه بيده المعروقة المرتجفة هذه.. حمله على ظهره وعبر به الصحراء طولاً وعرضاً، دون أن يشكو أو يتبرّم برغم الجوع والعطش ولهب الشمس. قضى معه من الوقت أكثر ممّا قضاه مع زوجته وأولاده. يفهمه أكثر من امرأته.. وربما يحبّه أكثر من امرأته. فكيف لا يعشق المرء حيواناً وديعاً ومطيعاً كـ«الأشقر» بعد هذا العمر الطويل من العشرة والملح.

الإثم هو أن تطالب بالجنة

حمل «الأشقر» أثقاله.. وثبّت على ظهره السرج. داعب رقبته بحنان وهو يعده بالحشائش الخضراء في وادي «عوينة ونين» قبل أن يقفز على السرج بوثبة واحدة، انطلق به قبل الشروق عندما انتصف النهار بلغ وادي «عوينة ونين» (كانت الشمس تتدفّق كاللهب). أبصر قطيعاً من الغزلان ترتع في بطن الوادي.. شدَّ رسن «الأشقر» وقفز إلى الأرض بهدوء، نزع الزمام حول رقبة المهري وتركه يهجم على الأعشاب البرية الخضراء. انطلق نحو الوادي متنقلاً من شجرة رتم إلى أخرى حتّى أطلّ على القطيع : سبحان اللّه ما أجمل الغزلان.. عينان صغيرتان كحلاوان، قوائم رفيعة أنيقة.. سحنة ساحرة. لم يخلق اللّه جسماً كالغزال في تناسق لا تراه إلاّ وتشعر برغبة في أن تحتضنه وتقبّله وتملأ عينيك من رؤيته وتطلق سراحه. كَمْ هو

جميل أن يرى المرء غزالاً أمامه. ولكن الأجمل لو يطمئن الغزال للإنسان. الغزال.. جسَّد اللّه في خلقه أجمل صورة للجمال البري.. فكيف عجز في شبابه عن اكتشاف هذا الجمال الخارق الذي يمثله هذا الحيوان الصغير ؟ كيف استطاع أن يقترف هذه الخطيئة في شبابه، عندما كان يعود إلى البيت وجمله ينوء بحمل الغزلان المقتولة بيده ؟ أمْ أنّ اللّه يفعل ذلك كي يعاقب الإنسان عن كلّ خطاياه دفعه واحدة، بأن يجعله يكتشف الحقيقة مرّة واحدة في حياته، ولكن بعد أن يكون الأوان قد فات.

في شبابه كان طائشاً معطّل العقل، وقادراً على صيد الغزلان وامتلاكها حتّى وهي حيّة، ولكن.. عقله لم يكن يسمح له بإدراك حقيقة الجمال الكامنة في هذا الحيوان الوديع.. والآن بعد أن غزته الشيخوخة وامتلك عقله يعاقبه اللّه باكتشاف الجمال في الغزال، دون أن يكون قادراً على الاستيلاء عليه. فكيف يستطيع أن يطلق عليه النار حتّى لو لم يكن عاجزاً ؟ كيف ؟ كيف ولكن.. الأولاد.. الأولاد يبكون عندما يستولي عليهم الجوع.. فكيف يطيق الأب أن يرى أطفاله يبكون من شدّة الجوع، دون أن يفقد عقله ويسبح ضدّ إرادته : تشبّث بظهر ربوة صغيرة تطلّ على الوادي.. سدّد فوهة البندقية على غزالة متوّجة بقرنين طويلين، عاوده العذاب وغزاه التشاؤم للحظة.. ورغم ذلك ضغط على الزناد.. تبدّد القطيع في سرعة السهم خلال لحظة واحدة. هرع إلى الوادي وأعماقه تردّد : «كلّنا خاطئون. ليس بين الناس أبرياء، فمَنْ الذي يحقّ له أن يطمع في الجنّة ؟ أنْ يطالب الإنسان بالجنة فهذا هو الإثم».

لعنة الغزال

اكتشف آثار دماء مسفوحة على الأعشاب حيث كان يرعى القطيع. تدفّق العرق فوق جبينه وغمر وجهه وفمه.. سقطت قطرات منه على الأرض وامتزجت بدم الغزال الجريح تذكّر أنه نسي أن يبسمل عندما أطلق النار : آه.. هذا نذير شؤم.. الغزلان أيضاً مسحورة.. إذا أطلقت النار عليها فيجب أن تتأكّد من إصابتها إصابة قاتلة، فتقتل شياطينها معها.. وإلاّ فإنّ لعنتها قادرة على أن تلحق بك الأذى، خاصّة إذا حدث ونسيت أن تذكر اسم اللّه عند الضغط على الزناد. عرف رجلاً جرح غزالة حاملاً فركبته شياطينها وفقد عقله.. وبعد ثلاثة أيام مات.. وحدَّثه رجل من أوراغن، كيف ظلّ يطلق النار على غزالة مسكونة منذ الصباح حتّى انتصف النهار، كانت تقفز في الهواء مع كلّ طلقة وتعود إلى الأرض لترتع بهدوء، دون أن تعبأ بعياراته النارية حتّى نفد رصاصه في نهاية الأمر وتأكّد أنّ الشيطان يسكنها.

أطلق عنان الأشقر في أثر الغزال الجريح مهتدياً ببقع الدم المسفوح حتّى هجم الظلام. بات ليلته بلا عشاء اقتصاداً في الماء، واستيقظ عند الفجر وواصل رحلته في إثرها. لم يبق من الماء في القربة ما يكفي لنصف يوم، ولكنه مضى يطاردها في عناد حتّى أدركها راقدة عند سفح الجبل بعد أن تخلّى عنها القطيع ونزفت كلّ دمائها. ذبحها وسلخها وتعشّى على رأسها وأحشائها. في تلك الليلة نَفَذَت آخر قطرة من الماء.

جرعة الدم

لم يكن في وسعه أن يختصر مسافة أربعة أيام ونصف في يومين، دون أن يقتل «الأشقر»، عَدْواً. قاد المهري ومشى على قدميه طوال الليل ليدع له فرصة الخلود للراحة، استعداداً لمواجهة مسيرة نهار مهدّد بجحيم الحرّ في اليوم التالي. امتصّ جلد القربة بعد أن مزّقه بيديه. وفي نهار اليوم الثالث عجز عن الجلوس فوق السرج.

ترجّل وجلس يستظلّ بـ«الأشقر» من الحرّ المتدفّق في الخلاء المغطّى بالحصى العاري حتّى منَ الصخور. تأمّل الصحراء المنبسطة أمامه كراحة اليد. وفي النهاية.. هناك كان السراب يتراقص فتذكّر البحر.

كان كلّ شيء ساكناً، هادئاً مستسلماً لسلطة الشمس القاسية. حتّى الذباب لم يعد يطنّ حول الغزالة المعلّقة على طرف السرج. شفتاه تزدادان جفافاً.. حلقه يابس بعد أن فقد القدرة على استحلاب العاب.. قلبه تكوّر وتخشّب. وفي هذه اللحظة لمعت في رأسه فكرة.. الفكرة الحكيمة، ولكنه ارتجف رعباً: «الأشقر».. لم يبق له إلاّ أن يذبح الأشقر ويتجرّع دمه. أناخه وأحكم العقال حول قائمتيه الأماميتين. فعل ذلك بحماس أذهله. إنها العاطفة الجنونية التي تدمّر العقل مرة واحدة في سبيل فكرة الحياة.. التشبّث بالحياة ولكن جرعة واحدة.. واحدة فحسب، لن يضطرّ لأكثر من ذلك. ربّت على رقبة المهري يداعبه.. فتحسّسه «الأشقر» بشفتيه وقبّل يديه كأنّه يبارك فعله ثم رفع رقبته نحو الأفق

البعيد حيث يتراقص السراب في كبرياء واستسلم لمصيره إلى الأبد، في هذه اللّحظة اضطرب الشيخ وانهار على الأرض الرمضاء.

السكّين

حاول أن ينهض.. لكنه عاد فسقط عند ركبتي االأشقرب. غرس يديه في الأرض. لسعته الرمضاء فانتزعها، أجال ببصره حوله، لم يعد ير شيئاً.. لم يعد قادراً على رؤية الخلاء الممتد إلى ما لا نهاية.. عَجِزَ حتّى عن رؤية السراب. كل شيء يتراقص.. يتراقص.. يتراقص.. ويختفي في الظلام عينيه. عاد يحلم بجرعة الدم. قدح صغير من الدم يبلّ به ريقه ويعيد له الحياة.. الحياة.. الحياة. نهض مستنداً على «الأشقر» حتّى بلغ رقبته.. ثم رأسه احتضنه طويلاً.. استسلم «الأشقر» بين ذراعيه، شمشمه بخياشيمه.. يستحثّه على الإسراع.. لم يَعُد يطيق الانتظار.. كان شاهراً رقبته الطويلة منتظراً أن يدسّ فيه السكين. قرّر أن ينتشل السكّين.. دسّ يده في الجراب، فلم يجدها.. فتّش عنها بين أحجبته بين ثنايا البطانية.. في كل مكان، اختفت.. ضاعت.. نسيها. حيث سلخ الغزال. الغزال.. الغزال.

رحلة اللاّشيء

هذه خطيئتي.. كنت أستطيع أن أتمتّع برؤيته وأعود. كان في إمكاني ألاّ أطلق النار.. أو أبسمل باسم اللّه على الأقل.. ولكن.. هل خطيئتي أيضاً أن يبكي الأطفال عندما يجوعون ؟

هل خطيئتي أنّ اللّه خلق مخلوقاً جميلاً وزرع فيه روح الجنّ والشياطين ؟ حقاً إنّ اللّه لا يخلق شيئاً بلا سبب.

مدَّ يده وحلّ وثاق االأشقرب وفي أعماقه صدى ضجيج يتردّد: هل أنت أوّل جثة ابتلعتها الصحراء؟ هل أنت آخر جثة ستبتلعها الصحراء؟ الآن لم يعد يخشى الشمس.. والعطش.. أو الصحراء.. أو أيّ شيء.. آخر شيء استطاع أن يراه قامة االأشقرب الفارهة وهو ينهض.. ثم وهو واقف فوق رأسه، يتحسّس جبينه ويشمشم ملابسه بخياشيمه. يبرك إلى جانبه ليحجب الشمس القاسية عن جسمه.. حبّات الرمل في فمه لم يعد لها طعم، أو أنّ طعمها لا يذكّره بشيء : ومتى كان ثمة طعم لشيء، أي شيء. لم يفكّر بعدها بشيء. لم ير شيئاً.. تلاشى كلّ شيء في لا شيء.. لتبدأ رحلة جديدة مجهولة من التلاشي و.. اللا شيء.

بابا جاء.. بابا جاء

بعد يومين رأى الأولاد جَمَلاً قادماً يصارع الأفق.. تراكضوا نحوه وهم يتصايحون كالعادة : «بابا جاء، بابا جاء». تحلّقوا حول «الأشقر» الذي مضى في طريقه كأنه لا يعبأ بهم. لا يعبأ بشيء.. ولا يرى شيئاً سوى الأفق. يجرجر زمامه خلفه والغزال معلّق على السرج.. ولكنّ السرج نفسه كان.. خالياً.

تحوّلات الضبّ بوحدة القياس الفلكيّ

«إذا أردتُ أن أحيا عليّ إذن أن أنسى أنّ جسمي ينتمي إلى التاريخ، وأغرق في الوهم بأنني معاصر للأجسام الحاضرة الصغيرة السنّ لا جسمي الماضي. والخلاصة أن عليّ دورياً أن أُبعث من جديد وأكون أصغر سناً مّما أنا عليه».

رولان بارت

– 1 –

في البدء كان سيّد الصحراء. يسير في السهول المجاورة للوادي مكابراً، متباهياً بفتنته وشبابه، فرآه سلطان الظلمات في إحدى الجولات. أكلت الغيرة قلبه وتحرّك في نفسه الحسد. قال في نفسه : كيف يجرؤ مخلوق وضيع مصنوع من ماء وطين على منافستي في البهاء ؟ جلس فوق صخرة تطلّ على وادي الماء المقدّس وفكّر في حيلة يوقع بها المخلوق الطيني المكابر. استدعى السعلاة وأوكل لها المهمة. خرجت الجنّية القديمة إلى السهل في

بدن حورية لم تر الصحراء نظيراً لحُسنها. غنّت بصوت يليق
بحوراء الفردوس، عزفت نشيداً على وتر الأشجان والأحزان.
سكر سيّد الصحراء ووقع في الوجد. جذب في العراء، تحت ضوء
القمر، طويلاً. نفّس عن صدره الصحراوي المشحون دائماً بالحنين
إلى واو الضائعة وحزن البحث الجليل. ثم خرجت إلى الوادي
فسار وراءها. انقاد بِحُسْن الصورة وبهاء الروح الذي رآه في
المعزوفة والغناء. كانت تتنقّل بعفّة وخفّة وتتوقّف لتلتفت بين حين
ولآخر. تلتفت وتبتسم بسحر لا تخبره إلاّ حسان الفردوس.
بسمات الاستدعاء والحياء والإغواء بلغت الوادي. في الأسفل
جرى الماء المقدّس جليلاً، صامتاً، حاملاً سرّ الحياة والصحراء.
ينعكس عليه ضوء البدر فيومض بالإشارة ويتحفّز لبوح. ولكنّه
يعود للانكفاء مهموماً، متكتّماً على سرّه. عبرت الحورية المجرى.
حصلت أعجوبة. رآها بنفسه تمشي فوق الماء المقدّس، العكر،
المخلوط بالطين والبعر، وتعبره إلى الشاطئ الآخر دون أن تغرق أو
تبتل حتّى أطراف ثوبها الفضفاض. رفع رأسه نحو البدر متسائلاً
فحذّره الكوكب بإيماءة كئيبة. ولكن هل يفهم إشارة السماء من
رَهَن فؤاده في يد سعلاة تتنقّل في هيئة حسناء من الفردوس ؟

- 2 -

تذكّر التحريم. اكتئاب الكوكب ألهمه بالوصية بالمزبورة
على جدران الجبل، الوصية الموروثة عن الأسلاف التي حرصت
كل أمّ في الصحراء أن تلقّنها للوليد قبل أن يدبّ على قدميه

ويقترف الإثم في حق النهر. قالت العجوز في ضياء القمر :
«اعلم يا ولدي أنّ الماء مقدّس، والوادي الذي تراه هو آخر نهر
جارٍ على وجه الصحراء الكبرى كلّها. ويل لمن تجرّأ واغتسل في
مائه. مزبور في حجارة الأوّلين أنّ من يدنّس الماء المقدّس سيصبح
مسخاً جزاء له. فهل تريد يا ولدي أن تتحوّل إلى حيّة أو خنفس
أو ضبّ ؟ إيّاك. إيّاك. ثم إيّاك». هذه لغة لم تقتصر على الإنس
في الصحراء، ولكن عرفها أولاد كلّ المخلوقات البرية. الجنّ
والحيوانات والنبات. سلطان الضياء والسماوات حرم
الصحراويين الأنهار لقاء آثامهم. فكان، في الزمان القديم،
يجفّف ينابيع الوادي كلّما ارتكب الخلق إحدى الكبائر. وعندما
تبقّى هذا الوادي وضع عهداً بينه وبين المخلوقات البرية يتوقف
بموجبه أهل الصحراء عن ارتكاب الحرام، ويترك لهم السلطان
السماوي الماء يجري. ولكنّه وضع شرطاً يحرّم الاغتسال في
النهر. فإذا دنّسوه رفعه إليه وحرمهم منه. فكان عليهم أن
يحفظوا الوصية جيّداً ويتقيّدوا بنصّ العهد.

تذكّر المكابر هذا العهد بإيحاء من القمر ولكن ذلك كان
للحظة خاطفة. إذ غمزت الحوراء بعينها من الشاطئ الآخر
فنسي الوعد وختم على عقله بالنسيان. قال لنفسه إنه يستطيع
أيضاً أن يتخطّى المجرى بقفزة كما فعلت الحسناء، والدليل أنها
تقف أمامه في الناحية الأخرى والماء ما زال يعدو في مجراه و لم
يرتفع إلى السماء. شمّر على ساعديه، رفع سرواله إلى ركبته،
وقفز إلى الشاطئ الآخر بحيوية الفرسان عندما يقفزون على
ظهور المهاري. خيّل له أنه طار طويلاً، وعندما هوى وقع في

قلب الماء. أشاح القمر بوجهه وهرب من الصحراء. قهقه سلطان الظلمات في مملكة الخفاء وتلاشت الحسناء متحوّلة إلى طائر اعتصم بالجبل. تزلزلت الصحراء بغضب سلطان الضياء. تلاشى النهر وتصاعدت أبخرة الماء في الغيب. رقصت الجنّيات في جبل الحساونة وناحت الحوريات في الفردوس. بدأ التحوّل.

وجد نفسه يزحف على يديه وركبتيه. استطال وجهه ثم استدار حتّى استقرّ على هيئة جديدة كوجه الضفدعة. نبت في دبره ذنب مسنّن، خشن. تقلّصت الركبتان واليدان ونبتت لها في أطرافها مخالب شرسة. حاول أن ينهض ويقف على قدميه فلم يقدر. زحف فسمع الصوت المهيب :

– خنت العهد وخسفت بآخر ينبوع ماء. كتبت عليك أن تعيش خالداً في بدن ضبّ. وسأضع بينك وبين الماء عداوة، إن ذقته هلكت. وسوف تهرب من وجه المخلوقات وتعيش في الجحور معتزلاً، خجلاً.

لبس سلطان الظلمات ثيابه وذهب في جلد أفعى لزيارة الضبّ. وجده بائساً، حزيناً، في بدنه الجديد، يخرّ خاشعاً يتوسّل الشمس أن تتدخّل للوساطة. قال سيّد الظلام بفم الحيّة :

– نلت الجزاء أيها المكابر. تتباهى بالفتنة وتدوس على الخلق. سحقت بيضي بعقبك القبيح. وها أنت تزحف، حقيراً، على الأرض مثلي، أخيراً جاءني الزمان بالعدالة. ما أسعدني إذ أراك شقيّاً، محروماً من الماء.

ولكنّ الضبّ ظلّ واقفاً فوق حجر في فم الجحر، مواصلاً صلاة غامضة نحو الشمس، في كبرياء.

قال سلطان الظلمات المندسّ في جلد الحيّة :

– ترفع أنفك ولا تتنازل عن المكابرة حتّى وأنت ضبّ حقير ؟

أصابه الاستفزاز، أجاب بغضب :

– تغيّر وعاء الطين ولكن هيهات أن يتغيّر الأصل. في هذا القفص تتَخفّى أنفس جليلة لسلطان الضياء.

– تكذب ! أنت عبد حقير في جلد ضبّ أسود.

– لن تنال من قبضة الضياء مهما سخّرت من السّعالي.

– ها.. ها.. ها.. ألم أجبرك على الزحف على البطن ؟

– ولكنّ عصفور النور أبعد لك من النجوم.

– لا ترفع رأسك أيها القبيح. رفع الرأس لا يليق بالعبيد.

– أنا عبد مغضوب عليه وأنت ملعون كريه إلى الأبد.

– اخرس يا ضبّ !

– امش يا رجيم !

نشب العراك بين الضبّ والحيّة. فجلدها بذنبه المسنّن، الخشن، حتّى أدْمَى جسدها البشع.

لأوّل مرة تُهزم الحيّة في عراك ؟

– 3 –

عاش في الظلمات آلاف الأعوام. يعتزل في الجُحر ستة شهور في الحَوْل، ثم يخرج مع نهاية الربيع ليقف، في خشوع، على الحجر المنصوب في فم الجُحْر، ويبدأ في الشعائر الأبدية. يرفع رأسه نحو الشمس كلّ صباح ويستجدي الوساطة مع السماء، حتّى ينتصف النهار. يتفقّد المكان، يستطلع الصحراء خوفاً من أن يراه الخلق في ثوبه الأسود، القبيح. فإذا اطمأن نزل

الوادي القديم الذي جفّ بالغضبة السلطانية العليا، وظلّ عارياً، ظمآن، منذ عشرات الآلاف من السنين. تنبت في حواشيه أعشب شحيحة في مواسم متباعدة تتساقط فيها الأمطار من بعض الغيوم العابرة دوماً إلى الشرق. يتغذّى بالأعشاب الشاحبة، البائسة، ويعود إلى مغارته الظلماء ليمكث في منفاه حولاً آخر بعد أن يغيّر جلده في كلّ بيات جديد.

– 4 –

عرف سرّ الخلود بالصدفة.

كان يرتع في الوادي عندما قبض عليه عدد من الرعاة. ذبحوه بالسكين فغشيته غيبوبة ظنّها إغفاءة أزلية في ظلمة الجُحر. ظلّ راقداً في الخلاة وهو يستمع لحوار الرعاة في برزخ بين الضياء والظلمة، اليقظة والغيبوبة. سأل الأوّل :

– هل خرج منه دم غزير ؟

أجاب الثاني :

– قليل جدّاً، قطرات معدودة.

عاد الأوّل :

– إذا لم ينزف كثيراً فلن يموت أبداً. لابدّ أن نتركه طويلاً حتّى يموت.

لا يدري كم مَكَث في برزخه الخفي. ولكنه لا ينسى لحظة الحساب التي ذاق فيها طعم النار.

ألقوا به في اللّهب فبدأ يتقلّب ويتململ ظنّاً منه أنه شعاع شمس. فتح عينيه ليخرج للصلاة ويتمتّع بدفء الربيع فوجد نفسه

في النار الموقدة. قفز من الموقد وركض في العراء. وظلّ يركض حتّى قفز في أوّل جُحر. هجع في ظلماته وسمع الراعي الأوّل يقول :

– ألم أقل لك ؟ كان عينا أن نتركه أياماً أخرى حتّى يبرد دمه. ما أصعب أن يموت الضبّ !

– 5 –

أعياه الدّهر وتعب من الخلود. كَرِهَ الحياة وتمنّى الموت. خرج للعبادة للمرة المليون. وصمّم أن يبوح للشمس بسرّه أثناء الصلاة. قال لها :

– لا أطمع في الغفران ولكنّي تعبت وأريد الراحة الأبدية.

دهشت الشمس :

– أوّل مرّة أسمع مخلوقاً أرضياً يزهد في الحياة. ها أنت ترتفع إلى درجة وليّ.

فقال بيأس وتسليم :

– لا أرجو سوى غفران السلطان فمتى يأذن لي بالزوال ؟

هشّت الشمس سحابة طائشة أمام وجهها وقالت بعجب:

– ألم تدر أنّ الخلود في جلد ضبّ هو قصاص ؟

سقطت من عينيه دمعتان كبيرتان.

– 6 –

جاءته الشمس بعد مائة ألف عام أخرى بالبشارة. قالت :

– قَبِلَ سلطان الضياء صلاتك وأقرّ لك بالخلاص.

رقص الضبّ في العراء فكشفت الشمس عن السرّ :

– افتح فمك للسماء !

فتح فكّيه نحو السماء وأغمض عينيه. سقطت قطرة مطر من الماء المقدّس في فمه فغاب عن نفسه. حلّ المحو وخُتم عليه بالنسيان. وجد نفس يسعى سعيداً في جلد ضبّ. وسوف ينقضي دهر فلكي آخر حتّى يشكو لمولاه التعب فينفيه بخلاص آخر.

– 7 –

... وتمرّ دورة جديدة في الزمان الفلكي فيرحمه أرحم الرّاحمين، يحرّره من جسر الزمان ويأذن له بالخروج من الجسد. منذ ذلك التاريخ بدأ التبدّل الدّوري. يخرج للشمس في ربيع كل عام فيسلخ جلده القديم، ليود في الجديد.

– 8 –

ولكنّه ظلّ يمارس طقساً تلقائياً كان له سبباً في هلاك يوماً ما، فيخرج إلى المرعى مكابراً، مرفوع الرأس، كأنه يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبل طولاً، فالجسد وحده محكوم بالنسيان. أما الجوهر، كتلة الضوء، فهيهات أن تنسى.

الدار البيضاء

1991/2/19

البـرزخ

اشتعل الفضاء في الواحة.

بقيت في القمة، وسط فروة السعف، فوق العش، تحتمي بالنخلة، وتحمي الفرخ.

في الأسفل، عند الجذع، كمَنَ مقاتلان خلف تلّة رملية صغيرة. يرتديان ثياباً فضفاضة، ناصعة، معمّمان بلثامين ناصعين أيضاً كأنّهما أقبلا للمساهمة في فرح أو عيد وليس للمشاركة في اشتباك. أحدهما نحيل، طويل القامة، يمسك بسلاح قصير الذراع. أما الثاني فمكتنز، عريض المنكبين، يمسك بسلاح أطول ذراعاً. زحف النحيل على مرفقيه حتّى رأس التلّة. سدّد الأداة إلى الشمال و...

– طاخ.. طاخ.. طاخ..

ثلاث مرات. فزعت، تكوّر القلب وتدحرج إلى أسفل. صفّقت بجناحيها دون أن تدري. وجدت نفسها تتخلّى عن الفرخ وتطير. اخترقت الفروة وخرجت إلى الفضاء، رفرفت

بهلع وهي تتجه صوب الأحراش البعيدة. ولكنها سمعت النداء البائس :

– صَوْ.. صَوْ.. صَوْ..

فتذكرت الفرخ، عاد لها العقل الطائش فحلقّت في دائرة طويلة وعادت باتجاه النخلة المكابرة. في اللحظة التي مرقت فيها داخل الفروة تزلزلت الواحة بالدوي :

– بوووم !

اهتزّت النخلة وشاهدت أفراداً من العشيرة ينتشرون فوق الأحراش الشمالية، ويتشتتون في الفضاء. ظلّت ترفرف داخل الفروة في احتيار. حلّقت فوق العش. ظلّ الفرخ المزغب يرفرف بجناحيه في عجز، شاهراً رقبته البائسة الصغيرة في الهواء، باحثاً عن صدرها. حطّت فوقه وغمرته بريشها الدافئ، الكثيف.

دسّ رأسه في الريش، هرشها بمنقاره الشقي في الصدر. ظلّ الصدر يعلو ويهبط. في الناحية الأخرى ارتفعت سحابة من الغبار. غطّت قرص الضُّحى وأخفت سرب العشيرة. في الأحراش ارتفع ذيل طويل من دخان.

هدأ الدويّ المتبادل. توقّف حوار البارود. ولكنّها استمرّت ترتجف. في ريشها ارتجف الفرخ وازداد بها التصاقاً، تلاحماً. تداخلا، فأصبح نبضهما، رجفتها. إيقاعاً محموماً واحداً. ظلّ الغبار يتصاعد في الفضاء. تبعه دخان الأحراش الشمالية في ذيل شفاف. انتهكته أشعة الشمس. تخاطب

المحاربان عند الجذع. استند النحيل على النخلة وتلهّى بالتملّص من الغبار. في حين انهمك الآخر في الاعتناء بالسلاح وشحنه بقطع الذخيرة. راقبتهما من خصاص السعف وتمنّت أن تبلعهما الأرض. لو بلعتهما الأرض أو طارا في الفضاء، مع حبيبات الغبار، لاستعادت قلبها وذاقت طعم الخلاص والسكينة، لو اختفيا لضمنت سلام العشّ وسلامة الفرخ العاجز، الخائف، الوحيد.

هيمن السكون.

فكّرت. لا يكمن السبب في المخلوقين. فهما يحتميان بالجذع كما تحتمي هي بالقمة. بالفروة. بل المصيبة أنها لا تمتلك مخالب مثل الصقور. لو كانت صقراً لاحتضنت الصغير بين مخلبيها وفرّت به إلى أبعد نخلة، أو دغل أو واحة. لا. الذنب ليس هنا أيضاً. ليس من حقّها أن تحلم بامتلاك ما لم تهبه الطبيعة. هل هي أحكم وأذكى من الطبيعة حتّى تتجاسر وتحمل نفسها ما لم تهبه الطبيعة. هل هي أحكم وأذكى من الطبيعة حتّى تتجاسر وتحمّل نفسها وِزْرَ هذه الأمنيات البلهاء ؟ الخطأ في مكان آخر. أين الخطأ ؟

ثم :

– طق.. طق.. طق.

لم تعد تحتمل. وجدت نفسها تحلّق عالياً، بعيداً، غائبة، ناسية. وما إن عادت إلى نفسها حتّى دارت وعادت إلى الفروة. إلى العش. وجدته ينتفض كأنه يحتضر. يزقزق بصوْصَوَته

الفاجعة ويبحث عن حضنها الدافئ المفقود. ضمّته إلى صدرها وضمّت أيضاً رجفته إلى رجفتها. هدأ حوار النار، راقبت تنقّل المحاربين على طول الجبهة الجنوبية. غيّروا المواقع واحتموا بالاستحكامات الرملية، ولكن الجار النحيل وضيفه البدين لم يتحرّكا. أفلت منها الذّرق رغماً عنها. أفلت من الفزع فسقط على ذراع النخيل كما يبدو. سمعته يقول لجاره :

– هل تعتقد أن يتحمل الحمام الطلقات ويبقى في رأس النخلة؟ عجيب !

ضحك زميله. سمعته يعلّق :

– ربما فرخ. في القمة يبقى العش، ولكن الحمام يطير.

ثم ضحك ولا تعرف لضحكته سبباً. إذن، أين الخطأ؟ الخطأ في رجفة أخرى. الرجفة الأولى. خفقة القلب البكر والتعلّق بالقرين. لو لم تعشق لما ارتبطت بقرين وارتكبت الحماقة. نعم، في هذه النزوة يكمن سرّ الشقاء كلّه. تعلّقت، فباضت، فقست بيضة العشق عن الثمار. عن الخطيئة. عن الفرخ. الفرخ الذي يملك قلبها ويشدّها الآن إلى الشجرة، فتبرك راجفة بين الأشواك والليف تحت رحمة الخطر. تحت رحمة الطقطقات والطخطخات والدمدمات. دمدمات وحشية لم تسمع بمثلها قبل اليوم. روت لها جدّتها عن هذا الدويّ أساطير عقب عودتها من هجرة موسمية شقيّة إلى الشمال البعيد، ولكنها لم تظن أبداً أنّ أساطير العجائز يمكن أن تصبح حالاً واقعاً.. و..

– بوووم !

اهتزّت النخلة، تزلزلت الأرض. احترقت السماء والشظايا وسحب الغبار والدخان. كادت الواحة البائسة أن تختفي. ومن فرط رعبها انشلّت هذه المرّة. عجز جناحاها عن الرفرفة. فتكوّمت، وتكوّرت حول نفسها حتّى كادت أن تختفي أيضاً. صوصو الفرخ في أحشائها وتحولا، معاً، إلى كتلة واحدة، صغيرة، راجفة، من الريش. تحت الريش ساح سائل، وغمر البدن بالنداوة والبلل. من عينيها أيضاً فزّ البلل. بلل حار وأليم. تحوّل قلبها إلى جمرة تتجوّل في صدرها وتلعن الذكور. يظلّ الذكر يحوم حول الأنثى حتّى يوقعها ثم يتركها مع الفراخ في العش ويهرب. يهاجر وراء أوّل أنثى ويدعها وحدها مع الفراخ والخطر. لعن اللّه الذكر.

في الأسفل، عند الجزع، بصق البدين لعاباً ممزوجاً بذرّات الرمل، وخاطب رفيقه :

– أخبرت الزعيم بسلوك هذا الغول !

النحيل لم يجب. انشغل بإزالة الرمل عن البندقية، ثم شحنها بأصابع الرصاص. أضاف البدين :

– فوهته في سعة فم التنّور، طلقته تولول طويلاً قبل أن تسقط، ثم، ثم تزأر كالسّبع عندما تنفجر.

أنصت للمناوشات بعيارات البنادق في الجهة الغربيّة، القريبة من أحراش السواقي. علّق النحيل فجأة :

– مسكين الحمام. يرمي بالفضلات وهو معتصم برأس النخلة. لن يتمسّك بالبقاء في النخلة لولا وجود العش. مسكين الحمام.

ولكنّ الرفيق مسح العرق عن وجهه بطرف لثامه، وواصل حديثه عن سلوك «الغول» :

– يخرج من هذا الوحش القبيح بدن يكفي لحرق غابة. رأيته عندما هاجمونا في مدن الشمال، عند بداية الغزو، يحرق مزرعة كاملة. ألم تر النار كيف اشتعلت هناك في الأحراش، منذ قليل ؟

هَسْهَس النحيل بكلام مهموس مثل أغنية شجينة مكتومة من النوع الذي يخاطب به المهاجر الملكوت القائم خلف الأفق الخفي عندما يكون وحيداً في الصحراء. أنصت البدين للنشيد فلمعت عيناه بالبلل والوميض. قال بصوت كسول :

– قلت للزعيم أنهم لن يدعونا نصل إليهم. سيرموننا بحمم التنّور من أبعد مسافة كما فعلوا معنا في الشمال، ولكنه لم يأخذ بتدبيري، لأن المثل يقول : ليس من رأى كمن سمع.

هيمن صمت متوتر، كئيب، محفوف بالانتظار، ازداد البريق في عيني البدين، أفلتت من مقلته اليمنى حبة نقية كقطرة مطر ثم قال بصوت مخنوق :

– إنهم جبناء !

في تلك اللحظة انطلق العويل المكتوم، المشبوه، المتوعّد، الغدّار، قبل أن تسقط القذيفة عند حضيض النخلة.

قبل أن تفيق تماماً من الدوي سمعت صوتاً طائراً في الهواء. أدركت، في غمضة، أنّ هذا الصوت الكئيب، الموحش، الخفي، كان قد سبق الانفجارين السابقين، فازدادت تضاؤلاً

والتحاماً بالوليد، حتّى أصبحا قطعة واحدة. وبرغم هذا الالتحام إلاّ أنّ قوّة الدمدمة هذه المرة أجبرتها أن تنفصل، في لحظة مشحونة، خاطفة، عن الطرف الآخر، عن جزئها، عن نفسها، وتطير إلى أعلى بدون إرادة أو وعي. فردت جناحيها تلقائياً، وبرغم أنها لم ترتفع، فوق العش، سوى شبر، أو ربما، عقلة إصبع، إلاّ أنها لم تجد العش، عندما عادت وأرادت أن تنزل فوق الوليد.

ماذا حدث ؟ لم تنتبه، هذه المرة، للدوي، لم يفزعها عنف الانفجار، لم يتدحرج قلبها إلى أحشائها، لأنّ الشظية سلخت قلبها من جسدها وأخذته، مع العش، إلى المجهول. تفقّدت الفروة بنظرة واحدة، شاملة، ولكنها كافية لترى الفاجعة. لا أثر للفرخ. ضمّت جناحيها إلى صدرها ونزلت على رأسها، نحو الأرض، وسط عاصفة الغبار التي خلّفها الانفجار. كان الرجل البدين ممدّداً على الرملة، بجوار الجذع، وقد غطّاه الغبار والدم وأشلاء العش. فوق صدره رقد فرخ صغير، أخضر، مكسو بزغب ذهبي. بمنقار مفتوح كأنه يطرح سؤالاً. في رقبته نزّ خيط صغير من الدم.

ظلّت ترفرف فوق الجثمان الممدّد بجنون من فقد عقله أيضاً.

زحف النحيل نحو رفيقه. تفحّصه لحظات، ثم أسبل له جفنيه وسحب على وجهه اللثام. حام حوله وحامت هي

فوقهما. جرّه من رجليه ويمّمه شطر القبلة. ولكنه لم يقترب من الفرخ.

رفرف فوقهما بيأس وجنون.

ثم...

ثم عاد الصوت المخيف، الخفيّ، الوحشيّ، الذي سبق الدويّ. وقبل أن يتدبّر الخطر هوى جسم ودوّى انفجار. اختفى الجثمان مع الفرخ، وطار إلى أعلى الرجل النحيل. في نفس اللحظة كان الطائر، المرفرف في الجوّ، يهوي إلى أسفل، ليلتقي مع الإنسان الطالع، في برزخ غامض، بين السماء والأرض.

الطريق إلى «واو»

- 1 -

أخيراً ظهر.

ظهر بعد أن يئس أهل الصحراء من ظهوره.

ويستطيع الحكماء والمعمّرون وحدهم، الذين ورثوا الانتظار عن أسلافهم، أن يقدّروا مدى الخسارة التي تكبّدتها القبيلة بسبب غيابه وعزوفه عن الظهور كلّ هذا الزمان. فيروى أنّ الوليد الصحراوي يتلقى الوصية وهو يتقلّب في القماط، ويرث الوعد مع الهدهدات في حضن الأم، فيكبر مجبولاً على الانتظار والأمل. يتدفّق الزمان كما تتدفّق ألسنة السراب في الخلاء، ويجد الرضيع نفسه يقف على الرابية، يجري في العراء، ويتفقّد الجديان. في المراعي يخلو الصبيّ إلى نفسه، يتوقف عن التلهّي، يشاهد السماء النقية وهي تقترب من بدن الصحراء لحظة الغروب. تنزل الظلمات فيلتحم العشيقان في عناق محموم لا

تفضحه إلاّ عناقيد النجوم وهي تتغامز وتومئ بإشارات ذات معنى! يرتجف قلب الصبيّ ويستيقظ في جوفه نداء الأسلاف. يعتلي الرابية ويتفقّد الأفق علّه يفوز برؤية القادم المنتظر. رسول الحنين الذي سيأخذ القبيلة إلى الوطن السري في «واو». ولكنّ الضبّ العجوز يعتلي أيضاً المرداة[1] كأنّه يصلّي. والحكماء وحدهم يعرفون أنّ الضبّ لا يخرج من جُحره إلاّ ليسخر من سلالة الصحراوي الذي يجد في نفسه الجرأة ويطمع في الخلاص على يدي رسول الحنين المجهول.

– 2 –

ولكن الطموح في الخلاص، وانتظار الرسول الموعود لا ينتهي عند الطفولة، ولا يتوقّف مع تراجع الطيش أو الصبينة، بل يشتدّ ويستعر مع تدفق الزمان الصحراوي. لأنّ الوصايا الموروثة عن الأسلاف خاصية خاصّة تجعل الحلم يكبر، والشوق يشتعل، حتّى يصبح الانتظار عبادة، وتفقّد الرسول المجهول، وتسقّط أخباره، عادة، تقيم الصبايا على شرفه حفلات الاستحضار، وتدبّج شاعرات القبيلة الموهوبات قصائد العشق والاستدعاء، ويرقص الفتيان في الأمسيات لهفة للقائه. بل ويقع حتّى الرجال المجلّلون بالوقار في الوجد كي يخففوا في قلوبهم شعلة الحنين إلى حقيقة أكّدت الأساطير أنها ستأتي، ولكنها لم تأت. استمرّت

(1) المرداة : الحجر الذي ينصبه الضبّ علامة على جُحره.

طقوس الشوق والانتظار زمنا لا يعرف أحد في قبيلة الصحراء متى بدأ، و لم يتوقع أحد أن تتحقّق المعجزة ويتحقق الانتصار.

– 3 –

خلال هذا العمر الذي قطعه الزمان الصحراوي في تدفّقه تغيّرت الصورة، وأضيفت أشياء كثيرة للأسطورة، حتّى أنّ هيئة القادم المجهول، عندما جاء أخيراً، أصابت الكثيرين، إن لم يكن الجميع، بخيبة أمل. لم يصل الأمر إلى المجاهرة بالخيبة، ولكن ليس صعباً على الخبراء بنفوس أهل الصحراء أن يقرأوا في عيونهم الدهشة الطفولية التي فاضت بها عيونهم عندما وجدوا أنّ رسول الخلاص، الذي انتظروه زمناً سحيقاً بدأ مع الخلق نفسه، ليس طيباً في الملامح، ولا يتمتّع بأية مواهب تميّزه عن باقي المخلوقات الصحراوية البائسة. بل إنه في المظهر يشبه الرعاة، وفي الملامح القليلة التي تسمح العمامة بالكشف عنها، يبدو صارماً مثل الفقهاء. (هل قلت الفقهاء؟ الواقع أني تسامحت قليلاً، لأنني لم أشأ أن أتطرّف فأقول إنّ تجهمه يماثل الوجوم الخالد المطبوع على وجوه مريدي الطريقة القادرية الذين آلوا على أنفسهم ألاّ يكفّوا عن التحديق في الآخرة). الرسول أيضاً بدا وكأنه يحدّق في الآخرة. ولا يرى مخلوقاً واحداً من كل الحشد الذي تجمّع احتفالاً بحلوله. ظلّ متجهّماً، حزيناً، متعلّقاً بالأفق البعيد وهو يجلس، بجلال، على ظهر حمارته البيضاء.

كان الصبيان أوّل من هرع لاستقباله. مالت الشمس الوحشية إلى المغيب، وتنفّست الصحراء فرحاً بالخلاص.

أحاطت به فرق الصبية فرمى لهم بالحلوى، ولكنّه لم يتنازل عن كبريائه، أو وجومه، أو تعلّقه بالأفق. كان يرتدي لباساً ناصعاً. مقنّع بعمامة بيضاء تكشف عن وجنتين مهيبتين، بارزتين، وأنف كبير، معقوف، ملوّح بالشمس والسّفر الطويل. فوق اللّثام تكوّمت عباءة ناصعة أيضاً. ويبدو أنّ الشيء الوحيد الذي لم ينله السفر هو اللباس. وقد لاحظ العقلاء أنهم لم يروا أثراً لذرة غبار على ثيابه، وجاهروا بالأعجوبة وقالوا إنها برهان آخر على أنه الرسول الإلهي المنتظر. ولو لم يكن سماوياً لما افلت من عبث القبلي وغبار الصحراء.

بدأت مسيرة جديدة، شهدت المسيرة أوّل شجار. تنابز صبيان وتشاجروا بسبب قطعة حلوى. قال الأوّل، وهو فتى رفيع البُنْيَة، طويل القامة، مشطور الرأس بشريط من الشّعر كعرف الديك :

– جدّي الضبّ يقول إنّ وانتهيط[1] لن يقودنا إلى الوليمة.

قال الثاني، وهو فتى أكثر بدانة، أقصر قامة، وشعره مصفّف في الجهة اليمنى وحدها، وهي طريقة ابتدعها الرعاة وخصّوا بها الجدعان المصابة بالجرب :

– وجدّي الودّان يقول إنه سيعيدنا إلى «واو».

ضحك الأوّل وعلّق ساخراً :

[1] وانتهيط : صاحب الحمارة (تماهق).

– هذا شرك. الودّان يقع دائماً في الشرك. ولكن لا أحد ينفي أنّ الضبّ أحكم المخلوقات الصحراوية. هل تنفي أنّ الضبّ حكيم؟

– لا أنفي أنه حكيم، ولكنك ستضطرّ لأن تعترف أيضاً أنّ الودّان وديع.

– ولكن وانتهيط لن تقودنا إلى الوليمة في كل الأحوال.

– بل سيتحقق الوعد ونتخلّص من الظمأ والأسفار والجوع. سنسافر مرة واحدة إلى «واو» وسنبقى هناك إلى الأبد. سننعم بالوليمة.

قهقه الرّفيع مرة أخرى، ثم أكّد :

– لن يكون هناك وليمة. لن نبلغ «واو» أبداً. جدّنا الضبّ يقول إنّ الطريق إليها مقطوع.

– اخرس !

عندما لاحظ الرفيع انفعال البدين ليّن من لهجته وقال بإشفاق :

– أنا لم أقل إلاّ ما قاله العجوز !

فاضت من مقلة البدين دمعة. مسحها وخاطب رفيقه :

– عجوزك الضبّ يقول هذا لأنه يروّج لعقيدة الحقد واليأس. الودّان يقول إنّ كل من اختار العزلة فهو حاقد.

– أن تختار العزلة أهون من أن تقع في الشرك.

– الصحراء كلها شرك.

– ها أنت تعترف بأنّ الصحراء شرك. أراهن بقطعة حلوى أنّ جدّك الودّان هو الذي قال ذلك. وإذا اتفقنا مع عجوزك أنّ

الصحراء شرك فهذا يبرّر العزلة ما دام الطريق إلى «واو» مقطوع.

– اخرس !

– لا أمل في الوصول إلى «واو»، ووانتهيط لن يقودنا إلى الوليمة.

– اخرس !

بكى البدين بصوت عالٍ، وهرع وراء الموكب.

– 4 –

اقترب الموكب من المضارب فخرجت إليه النساء. رفعن أيديهن إلى أفواههن وولولن بالزغاريد. كافأهن الضيف في الحال ورمى لهن بالحلي الذهبية. تلألأت قطع المعدن اللعوب وتناثرت على الأرض الحمراء فقاتلت كل امرأة بالأظافر للاستيلاء على حصتها. في المؤخرة سارت امرأتان فاتنتان. الأولى نبيلة بيضاء والثانية خلاسية ماردة. اشتكت النبيلة من مسلك نساء القبيلة واغتابت أخريات بالاسم وهي تنتقد جشعهن ووحشيتهم في انتزاع نصيبهن من الذهب. ثم ختمت نميمتها :

– يتصرفن كنساء العبيد. تصرفهن يشكك في كنز الوليمة.

علّقت الخلاسية:

– الكثيرون يشكّكون في أمر الوليمة. أنا نفسي أشكّ.

– هل أنت من سلالة الضبّ ؟

– لا أدري. ولكن جدّتي تلمح إلى أنّ جدّي من أمي ينتمي إلى عشيرة الضبّ. ولكن شكّي لا علاقة له بالسلالة. صدّقيني.

– لا يشكّك في المسيرة إلا من انتمى لهذه العشيرة. أنت لا تعرفين ماذا يعني ألاّ نبلغ واو.

– جدّتي تؤكّد أنّ الطريق إليها مقطوع.

– ها أنت تقدّمين الدليل على الانتماء. ما أقسى الضبّ ! ألا يستطيع أن يكفّ عن ملاحقتنا ويدع لنا أملنا حتّى لو كان وهماً ؟

راقبت الخلاسية امرأتين تتقاتلان بشراسة وتتنازعان سواراً ذهبيّا كبيراً. قالت :

– سرّه في قساوته. خلوده في العزلة جرّده من أساليب التحاليل وأنساه حاجة أهل الصحراء إلى العزاء. هذا ما يجعله يجهر بعدائه للرحلة فيقول إنّ وانتهيط أكذوبة، والوليمة شرك، والطريق الموعود إلى «واو» شرك.

قالت النبيلة بيأس :

– ولكن الصحراوي يحتاج إلى بعض الكذب، إلى قليل من الوهم. تخيّلي الصحراء بدون أمل في الوصول إلى واو ! تخيّلي الصحراء بدون انتظار للوليمة والخلاص ! هل تطاق الصحراء بدون أحلام الصحراء ؟

– الحق أنّ الصحراء لا تطاق بدون أحلام الصحراء.

– فوق بساط الوليمة سننال كل ما نشاء من مصنوعات الذهب.

– الضبّ يشكّك في هذا أيضاً.

نهرتها النبيلة بغضب :

– ألم نتفق بأن ننسى شكوك هذا الشيطان الذي يسكن الظلمات ؟

– إنه يحذّرنا من الخدعة، ومن الوقوع في الشرك.

– حقّاً إنّ العرق دسّاس. من قال لك أني أريد أن أنجو من الخدعة ؟ من قال لك أني أنوي أن أتجنّب الشرك ؟

بصقت النبيلة على الأرض غاضبة، ثم أسرعت الخطو والتحقت بالركب.

– 5 –

انضمّ الرجال أيضاً إلى الموكب، فألقى لهم بالدمية التي تناسب مقام الرجال : السيوف !

سار في الوراء رجلان. بحثا عن تسلية في حوار. قال الأطول قامة:

– لن تكتمل رجولة الرجل إلاّ بالسيف. لن ينتزع النبيل البطولة بدون سيف.

قال الأقصر قامة بلغة غامضة :

– يوجد في الصحراء من وجد في نفسه الكفاءة لأن يسخر من السيف ومن البطولة نفسها.

واصل الأوّل موّاله عن البطولة والرجولة :

– لا رجولة بدون نبل، ولا نبل بدون بطولة، ولا بطولة بدون سيف. لا يشكّك في هذا الرباط إلاّ العبيد والجبناء.

فعاد الثاني يقول بنفس الغموض :

– المخلوق الذي وجد في نفسه الرجولة لأن يسخر من السيوف ومن حملة السيوف قال إنّ الرجولة الحقيقية هي أني ضبط الرجل هواه ويسيطر على رغباته.

هبّ الأوّل :

– هراء. لن يكون الصحراوي رجلاً إذا لم يعشق الحسان، ولن يعشق الحسان إذا لم يشارك في الغزوات. ولن يشارك في الغزوات إذا لم ينل سيفاً.

اعترض الأقصر قامة بنفس البرود :

– هذه عناصر لا تنفع في «واو». هذه عناصر لا معنى لها بالنسبة لمن نوى أن يركن إلى «واو» ويجعل من مقامها نهاية المطاف.

– للنبل معنى في كل مكان، للفروسية والرجولة والبطولة معانٍ حتّى في «واو».

– أخشى أن هناك لن ينفع غير التسليم.

– التسليم ؟!

ثم توقف. التفت إلى رفيقه القصير. تفحّصه تحت لثامه كأنه يكتشفه لأوّل مرة. هتف كأنه اكتشف قارة :

– ها.. لقد فهمت. أنت من أنصار الضبّ. لا مكان لمريدي المسخ في مسيرة اللّه. اذهب من هنا.

جرّد سيفه وهجم عليه.

– 6 –

جاء دور الشيوخ.

مشوا في آخر الطابور. بعضهم حرص أن يرتدي اللباس الأزرق احتفاء بالمناسبة، واكتفى الفريق الآخر باللباس الأبيض ليس زهداً في الشعائر ولكن لأنّ المفاجأة لم تتح لهم الفرصة كي يبالغوا في الطقوس. وحتى الذين مشوا وراء الركب باللباس الجليل كانوا من فئة المعمّرين الذين تحصّنوا بثياب الفرح تحسباً للميعاد وانتظاراً لهذا اليوم المهيب الذي انتظروه، من خلال الأسلاف، منذ الأزل. في آخر الطابور سار أحد هؤلاء المعمّرين الذين ناهزوا المائة أو تجاوزوها بقليل. لم يكن مقوّس الظهر، ولكن أنفاسه المتلاحقة، اللاهثة، هي التي فضحته وأومأت للجميع بأنّ لهفته في ملاحقة وانتهيط ما هي إلاّ يأس من الحياة ودنوّ من الهاوية.

اقترب من المعمّر اللاهث شيخ آخر. رفيع القامة، قويّ البُنْية، واثق الأنفاس. خاطب المعمّر:

– لا أعرف ما الذي يحمل شيخ مثلك ويجعل منه عضوا في موكب الرعاع.

أجاب المعمّر وقد ازدادت أنفاسه تلاحقاً :

– وهل يطمع الصحراوي بفوز يعادل الوصول إلى «واو» ؟

– هل أنت على يقين أيضاً أنّ وانتهيط يسير في الطريق إلى «واو» ؟

– إلى أين يمكن أن يسير وانتهيط ؟

– ثمة من يشكّك في ذلك !

سكت المعمّر لحظة. شحن صدره بالهواء. قال :

– لا يشكّك في هذا الأمر سوى الضبّ وأتباعه. الضبّ يشكّك في كلّ شيء لأنه مخلوق كريه وحاقد.

– البعض يقول إنه زاهد.

قال المعمّر متعجّباً :

– لا يرى فرقاً بين الزاهد والحاقد إلاّ البلهاء المخدوعين بفلسفة الضبّ الداعية لقطع الأمل والاعتصام برؤوس الحجارة.

أخفى الشيخ الرفيع ابتسامة خبيثة بطرف اللثام قبل أن يواصل الحوار :

– ما يدهشني ليس لهاث الحكماء أمثالك وراء شبح مجهول الهويّة والأصل، ولكن ماذا يمكن أن يجنيه شيخ وقور مثلك في واحة بعيدة، موعودة، مستحيلة، مثل واو ؟

احتجّ المعمّر :

– وماذا يمكن أن يجنيه أمثالي غير السكينة والحكمة ؟

ضحك الرفيع. قال بلهجة مازحة :

– السكينة والحكمة ؟ فيما يتعلّق بالسكينة أظنّ أنّك لن تجدها في واو. ولا في أيّ مكان إذا لم تجدها في الصحراء الخالدة. أما الحكمة فاللهم أجرنا.

سأل المعمّر :

– وما الاعتراض على الحكمة أيضاً ؟ هل أضطر أن أردّ على تجديف الضبّ حتّى وأنا أسير في الحرم ؟

ضحك الرفيع مرة أخرى. قال :

– يقتل الصحراوي نفسه في شبابه جريا وراء العشق والنساء، ويقتل نفسه في شيخوخته جرياً وراء الحكمة.

– لا يجد ذريعة للاعتراض على الحكمة إلاّ الضبّ، فهل أنت من أتباعه، أم أنّك من سلالته ؟

ولكنّ الرفيع واصل كأنه لم ينتبه لمعارضة المعمّر الجليل :

– أنا لا أرى حكمة أعظم من تسليم زمام الأمر للصحراء. يوقظني النسيم البحري في الفجر البكر. أشاهد انفصال جسد السماء عن جسد معشوقته الصحراء. من الانفصال الخجول يولد الضوء البتول، فتغنّي العصافير موّال الميلاد والفرح. أغنّي معها حتّى تكبر المفاجأة وتتحوّل، بأشعة الشمس، إلى نهار. أنزل الوادي وأستنشق أعذب عطر في زهرة الرتم. أسكر. يمتلئ صدري بوجْد ينافس وجْد دراويش الزاوية القادرية. أجذب وأرقص وأهرع إلى السهل فتكشف لي الصحراء عن صدرها وتعطيني كنزها. كنزها الحقيقي وليس كنز التبر المزيف،

المشؤوم. تخرج لي من القُلاع ترفاسة مصنوعة من سحر ربّي. في الليل أتوسّد يدي فيهدهدني القمر ويمسح على جبيني نسيم المساء الشمالي فتنتظم أنفاسي وأنسحب من بدني وألتحق بالله. أظلّ هناك حتّى فجر اليوم التالي. فهل يستطيع شيخنا الجليل أن يجد في واو أحكم من هذه الشريعة ؟ بل هل يشكّ شيخنا أنّ هذه هي «واو» الحقيقية وليس «واو» الوهم التي يسعى إليها البلهاء ؟

توقّف المعمّر لاهثاً. جحظت عيناه. لمعت مقلتاه بالغضب :

– هل أنت من أتباع الضبّ ؟ هل أرسلك الكريه لتفسد رحلتنا ؟

أشاح عنه بوجهه وتحرّك خلف الركب.

– 7 –

مضى الموكب الجليل يشق الصحراء الأبدية. يقطع السهول اللانهائية ويصعد الروابي العارية والجبال المسلّحة بحجارة لها مخالب الوحوش. ينزل السفوح المفروشة بالحصى والتربة الرمادية، أو يسلك الوديان الجدباء القاسية، الممتدة إلى الأبد. تساقطت القرابين والضحايا ولكنّ السعي المقدّس استمرّ.

ولكن الرحلة لم تتواصل في المكان وحده. ولكنها استمرّت في قرينه الزمان. تدفّقت الأيام كالسراب الصحراوي

اللعوب، وتملّص الزمان المراوغ من قبضة البؤساء. وعندما يفلت زمام الزمان ويقرّر أن يتولّى قيادة المسيرة فإنّه قادر أن يضع السعاة في خانة أخرى في واو أخرى. هلكت قبيلة الصحراء، قبل أن تبلغ واو الميعاد، ولكن وانتهيط المهيب واصل مسيرته المدهشة، ومضى يشقّ الأفق.

فوق قمم الجبال الزرق عند مرداة الحجر، راقبه الضبّ بحزن. فاضت من عينه دمعة شفقة على مصير القبيلة.

ليماسول (قبرص)

1991-3-30

العبور

– 1 –

لا أحد يعرف حدود الضياع. لا أحد يعرف حدود هذا القمر لا في الزمان ولا في المكان. متى تمّ الخروج من «واو» ؟ متى انفصل الصحراوي عن المنبت، عن الأصل ؟ أين بدأت مسيرة الشقاء ؟ أين تبدأ القارة الخرافية المسمّاة صحراء ؟ أين تنتهي حدود العراء ؟

حلّ النسيان ففقد الطّريد الذاكرة. كان بإمكان لعنة النسيان أن تتحوّل إلى رحمة تنقذ الصحراوي من شقاء الحنين وعذاب المنفى، ولكنها أصبحت نقمة إذْ أصابت الجسد وأخطأت الرّوح. فقد الصحراوي، بفقدان الذاكرة البدن، طريق العودة إلى «واو»، ولكنه لم ينسَ كما أراد له الجدّ الأوّل، فتضاعف الشقاء. الروح تبحث، تفتّش، تطلب الأصل، والجسدُ تائه، بطيء، بليد ضيّع السبيل إلى الأصل.

الضّياع الأوّل أنجب أكثر من ضياع. ضاع آنهي ففقد الصحراوي دليلاً آخر إلى الحياة. كانت «واو» دليله إلى السماء،

وآنهي دليله إلى الأرض والحياة والناس. وعندما أضاع الكتاب أصبح الطريق إلى الأرض مقطوعاً أيضاً. أصبح الوجود نفسه ضائعاً. وجود الصحراوي في الصحراء وجود ضائع من البداية وإلى الأبد. الصحراء نفسها قارّة معزولة، ضائعة عن الكون. الصحراء تائهة منذ الأزل. ويجمع العرّافون أنها لن تهتدي إلى الأصل أبداً.

الضياع قَدَرُ الصحراء نفسها فكيف لا يكون قدر الصحراوي ؟

- 2 -

جاء دراويش الطريقة القادرية إلى الصحراء، وروّجوا للضياع. شيَّدوا الزوايا في الواحات وكتبوا على جدرانها بالخطّ الكوفي : «مَنْ لم يفقد لم يجد، ولا يجد إلاّ مَنْ فقد»، أو «الحقيقة في الفقد». أو هذه العبارة الخفيّة : «الفقد سرّ الوجد». أو عبارة أخرى أقسى : «الفقد طريق إلى الحق». أو عبارة أخرى أشدّ غموضاً : «لا خير في امرئ لم يذق طعم الفقد». ولم يفت أهل الصحراء أن يستنطقوا شيوخ الطريقة. تحدَّث شيخ الزاوية إلى الزعيم فقال : «ليس وجدنا جذباً أو عشقاً للحال ولكنه فرح بالعثور على الكنز الفقيد. الإنسان ينفق العمر طلباً لنفسه الضائعة، فإن وجدها جذب ورقص فرحاً. ولم يكن ليستطيع أن يجدها ما لم يفقدها. لا ينوجد شيء أبداً ما لم يضع يوماً. فكيف لا تفرح إذا وجدت نفسك ؟ كيف لا ترقص إذا وجدت اللّه ؟». ولكنّ

الجواب لم يمزّق الحجاب، ولم يفتح ثغرة في جدار النسيان. ظلّ الزعيم يهيم في الفلوات، يسائل العابرين، ويستنطق الجنّ.

حاور فقيهاً جوّالاً.

وجد الفقيه مبرّراً للطعن في كفاءة شيوخ الطريقة وحمل على الدراويش : «إذا أردتم، يا أهل الصحراء، أن تعرفوا الطريق فابتعدوا عن الطريقة. إلى متى تستمرون في الإصغاء لزنادقة يمزّقون صدورهم بالسكاكين ويدّعون أنهم رأوا اللّه ؟. واللّه لن تخرجوا من الظلمات ما دمتم تجاورون البدع وتحاورون أهل الطرق والزنادقة». ثمّ طلب أجراً على الفتوى قبل أن يجيب على سؤال الضياع. تناول حفنة من التراب ورماها في وجه الزعيم. قال : «لقد أردت أن تعرف الأصل. فإليك جوابي». ثم ضحك ببلاهة وأضاف : «لا أصل غير التراب. منه جئنا وإليه نعود. فكفّوا، يا أهل الصحراء، عن البكاء، وتوقّفوا عن طلب الأصل. الاجتهاد إذا زاد عن حدّه انقلب إلى زندقة !». ركب ناقته وسافر إلى المجهول.

ولكنّ الزعيم لم يمل إلى الفقهاء يوماً. وكان لا يخفي تعاطفه مع الدراويش في صراعهم مع فقهاء الواحات. ويذكر أنّ الدراويش انزووا في الزوايا عندما هجم الفقهاء واحتلّوا الجوامع. تبعهم أهل الباديات الذين استسلموا للنسيان. في حين ظلّ أهل الحنين على علاقتهم السرّية برُسُل السرّ. لأنهم رأوا دائماً أنّ الحقيقة باقية في الخفاء، واللّه أبى إلاّ أن يكون سرّاً.

- 3 -

في «كانو» قابل عرّافاً مهيباً ما زال على دين المجوس. طلب منه العرّاف قطعة الطّرونة[1] قبل أن يجيبه على السؤال. قضم من الجوهرة ومضغ التّبغ ثم بصق اللعاب. تمايل منتشياً قبل أن يجيب : «لن تجد الطريق إلى «واو» دون أن تستعيد الذّاكرة تماماً. في صحرائكم شجرة واحدة تستطيع أن تخرجك من ظلمات النسيان : آسايار ! إنها آسايار ! هل تعرف آسايار ؟. هل تعرف ماذا يفعل هذا النّبات ؟ إنه يميتك ويبعثك من جديد حيّاً. يجعلك تولد مرّتين. بحث عن آسايار إذا أردت أن تستعيد ذاكرتك وتجد طريقك إلى إلهك». وعندما حدّث عرّافا من تينبكتو عن النبتة السرّية ضحك العرّاف حتّى دمعت عيناه، ثم أخبره أنّ آسايار اندثر منذ آلاف السنين، والأمل في العثور عليه استحال منذ زمن بعيد. ولكنّه اقترب وهمس في أذنه بالسرّ : «يُروى أنّ راعياً عثر عليه منذ أعوام فأطعم به غنمه ظنّاً منه أنه حلفاء. في الصباح لم يجد القطيع». حَدّجه بنظرة خفيّة فسأل الزعيم : «ولكن أين يمكن أن يختفي القطيع ؟ إذا لم يهاجمه ذئب فإنّ العراء لا يبتلع القطعان». قال العرّاف وهو يحدّجه بنفس الغموض : «هذا ما أظنّه أيضاً. ولكنّ الرعاة أجمعوا أنّ الماعز تحوّل إلى مخلوقات. والمخلوقات انتقلت إلى الخفاء. آثرت أن تسكن مع الجنّ». سأل الزعيم : «ما فائدة العثور على آسايار

(1) الطّرونة : نوع من الأملاح التي تُستعمل كنكهة لتبغ المضغ.

إذا كان سينقلني إلى الخفاء ؟ أنا أريد الحقيقة وليس الخفاء». ابتسم العرّاف ونطق بالمفاجأة : «الحقيقة هناك، في الخفاء. القطيع انتقل إلى الخفاء لأنّه عرف الحقيقة. كل مَنْ عرف الحقيقة يفضّل الانتقال إلى الخفاء». هنا سأل الزعيم : «هل يروق للجنّ أن يقيموا في الخفاء لأنّهم عرفوا الحقيقة ؟». ردَّ العرّاف بلهجة صارمة : «وهل شككت في ذلك يوماً ؟».

- 4 -

تلقّى الجواب على يد حكيم من الجنّ.

خرج من الحمادة مع بداية الصيف في ذلك العام.

فاز بربيع سخيّ شمال الجبال الزرق، ونزح بجماله إلى تادرارت لقضاء الصيف. ترك القطيع يرتع، في وديان تتبعثر في ضفافها أشجار الحلفاء، وصعد إلى المرتفعات. تفقّد الكهوف، وتنقّل بين القمم السماوية. في مساء اليوم الثالث وجد نفسه في ضيافة القبيلة السخيّة. استيقظ من إغفاءة القيلولة مع العشيّة فوجد الوادي يفيض بالقوافل : تصايح الرّجال. تباكي الأطفال. تنادى النساء. وتعالى ثغاء الماعز مختلطاً برغي الإبل. رفع رأسه فرأى أكثر من خباء وقد انتصب في حضيض الجبل. على ضفّة الوادي، اشتعلت النيران، وارتفعت ذيول الدخان. أقبل نحوه فريق من الشيوخ فنهض لاستقبالهم. صافحوه بوقار النّبلاء وجلسوا في مدخل المغارة. أوقد النار وبدأ يعدُّ الشاي. أخرج لهم طبقاً من التمر ولكنّهم لم يأكلوا. لم يستفهموا عن الكلأ،

و لم يأتوا على سيرة المطر. وجد حرجاً في أن يسألهم عن قبيلتهم أو وجهتهم.

عندما شربوا الدّور الأوّل بدأ الحوار.

سمع أحدهم يقول:

– البدن مشدود إلى الأرض بألف وتدٍ، والروح تريد أن تطير، وتلحق بالأصل.

قال أكبرهم سنّاً وأشدّهم وقاراً:

– الصحراوي وُلد درويشاً من بطن أمّه. يهيم في الخلاء الخالي، ويضرب صدره بقبضته باكياً: «مَنْ أنا؟ من أين جئت؟ ولماذا أدبُّ على قدمين بدل أن أطير بجناحين؟ لماذا جئت؟ ما غايتي في الصحراء؟ ألَمْ يكن أجمل لو كنت ضوءاً أو نسمة أو قطرة مطر؟ ماذا يمكن أن تفقده الصحراء لو لم أُخْلَق؟ أليس أيسر للجميع لو لم تر الصحراء وجهي من البداية؟ أليس أفضل لو لم أوجد؟». ولا يكتفي الصحراوي بالسؤال، ولكنه يهرع لأوّل عابر كي يستحلفه أن يخبره مَنْ هو. ومن أين جاء. ولماذا جاء. ويستنطقه عن رأيه فيما لو لم ينوجد. أليس هذا المخلوق درويشاً بالطبيعة؟

ساد صمت.

في الخضيض استمرّ الهَرَجُ.

التفت أحدهم نحوه وسأله فجأة:

– هل تبحث عن «واو»؟ قيل لي إنّك تبحث عن الأصل أيضاً.

همَّ بأن يردّ: «وَمَنْ في الصحراء لا يبحث عن «واو»؟ مَن في هذا الكوكب الضائع لا يبحث عن الأصل؟». ولكنّه لاحظ كيف أسكت الشيخ الجليل الرّجل بنظرة صارمة. تلهّى بخلط الشاي فقال الشيخ الجليل:

– هناك مَنْ يجزم أنّ الجبن في العبور، والمسافر هارب من محاربة الغول في نفسه. ولكنني أرى أن لا وجود لبواوب إلاّ في التنقّل والهجرة. أنت قرين نفسك ما ظللت عابراً، فإن توقّفت تجاوزتك وابتعدت عنك.

سكت لحظة. التفت نحوه كأنّ الخطاب موجّه إليه وحده:

– لا يبتلع غول الضياع إلاّ العبور. ولا يخفّف من وجع السؤال إلاّ السّفر. فسافر! إيّاك أن تتخلّى عن السّفر! إذا لم تجد اواوكب في نفسك، في سفرك، فلن تجدها في أيّ مكان.

في تلك الليلة استضافوه في منتجعهم وأطعموه بصنوف أطعمة لم يذقْ لها طعماً أبداً. وفي الصباح، عندما نهض وتفقّد الخضيض، لم يعثر لهم على أيّ أثر. لم يجد أثراً لنيران البارحة، ولا لروث القطعان، ولا أثر الأقدام. تذكّر أهل الخفاء فابتسم بغموض.

ولكنّه لم ينسَ تلك التميمة التي تلقّاها من حكيم الجنّ.

كانت تميمة الحياة.

فهــرس

«أنا الطرقيّ...» أو منطق العناصر «الكونيّة» 7
الجبــل 25
الحوار بمنطق العناصر الكونيّة 35
إخبار الكائنات 39
نـذر البتـول 43
خــروج 79
الطائر المقدّس 83
مولد الترفاس 97
وطن الرؤى السماويّة 109
مسلك السراب 149
النخلة تصلّي لأجل قاتلها 163
أمـغـار 177
الـفـخّ 191
المبتدأ في سفر الشقاء 241
جـرعـة مـن دم 251
تحـوّلات الضـبّ بوحـدة القيـاس الفلكي 263

البرزخ 271
الطريق إلى واو 279
العبور 293

فهرس 301

من إصدارات سلسلة «عيون المعاصرة»

محمود المسعدي
حدث أبو هريرة قال...
تقديم توفيق بكار

محمود المسعدي
السد
تقديم توفيق بكار

البشير خريف
الدقلة في عراجينها
تقديم الطيب صالح

البشير خريف
برق الليل
تقديم فوزي الزمرلي

محمد المويلحي
حديث عيسى بن هشام
تقديم محمود طرشونة

حنا مينه
الياطر
تقديم الرشيد الغزي

الطيب صالح
موسم الهجرة إلى الشمال
تقديم توفيق بكار

عبد الرحمن منيف
شرق المتوسط
تقديم حسين الواد

حسن نصر
دار الباشا
تقديم محمد القاضي

محمود المسعدي
من أيام عمران
تحقيق وتقديم محمود طرشونة
قراءة توفيق بكار

إميل حبيبي
المتشائل
تقديم توفيق بكار

علياء التابعي
زهرة الصبار
تقديم هشام الريفي

صنع الله إبراهيم
اللجنة
تقديم حسن الصادق الأسو

إميل حبيبي
المتشائل
تقديم توفيق بكار

أمال النخيلي
ترانيم البردي القدي

نور الدين العلوي
المستلبس